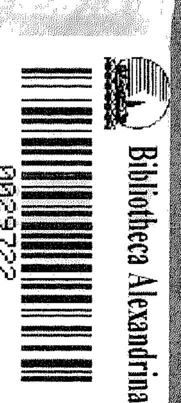
دكتور محمود محمد الحويري

اللومبارديون في التاريخ والحضارة

٥٦٨ - ٧٧٤م



دار المعارف



اللومبارديون في التاريخ والحضارة

٥٦٨-٧٧٤م

تأليف

دكتور محمود محمد الحويري

استاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
بكلية الآداب بسوهاج — جامعة اسيوط



الطبعة الاولى

١٩٨٦



دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

رأيت بعد أن صدر كتابى « رؤية فى سقوط الامبراطورية الرومانية » أن أتبعه بآخر يتناول أساسا أحد الشعوب الجرمانية المتبربرة التى غزت الامبراطورية الرومانية وأسست ممالك لها ، خاصة أن من كان لهم سبق الريادة فى الاشتغال بتاريخ أوربا العصور الوسطى ، وقدموا للمكتبة العربية فيضا من مؤلفات وترجمات ضافية فى إبداع وأصالة وسعة أفق ، لم يقدموا دراسة مستقلة عن شعب جرمانى ما ، باستثناء الأستاذ الدكتور ابراهيم طرخان ، الذى وضع كتابه القيم « القوط الغربيون » • وأخيرا وجدتها فرصة مواتية لأقدم جهد المقل دراسة شاملة عن اللومبارديين فى إيطاليا تعالج تاريخ مملكتهم وحضارتها • ومما حدابى الى اختيار هذا الموضوع أن اللومبارديين على عكس الشعوب الجرمانية الأخرى ، كانوا آخر شعب جرمانى يشق طريقه الى إيطاليا غازيا فاتحا سنة ٥٦٨م ، قادما من « جرمانيا » عالم البرابرة الواسع ، حاملا معه تقاليده وعاداته نقية من الحضارة الرومانية ، حيث قدر له أن يلعب دورا رئيسيا فى أحداث هذا القطر على مدى قرنين من الزمان ونيف • كذلك لم يحظ هذا الموضوع إلا بفصل فى الكتاب القيم المعروف الذى وضعه الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، وهو « أوربا العصور الوسطى » الذى طبع عدة مرات ، ولا زال يلاقى قبولا واسعا فى جامعات العالم العربى ، وفيما عدا ذلك ، فليس هناك غير صفحات أو جزء من فصل تناول هذا الموضوع من زاوية معينة •

وبداية أود القول أنه كان بوسع الامبراطورية الرومانية أن تحافظ على وحدتها وتماسك بنائها خلال الفترات التى تعرضت فيها لغزوات

الشعوب الجرمانية فى القرنين الثالث والرابع للميلاد ، ولكن أحوالها السيئة وأباطرتها الضعاف حالوا دون حماية حدودها • وقد حاولت الإمبراطورية فى الغرب الأوربى إبان القرنين الأخيرين من حياتها أن ترد عنها غائلة الجرمان ، ولكن محاولتها باءت بالفشل ، حتى إذا أقبل عام ٤٧٦ كانت أعجز من إنقاذ نفسها من الأنهيار • ففى هذا العام دهمها طوفان من الجرمان والبرابرة ، جعلها تسقط فريسة سهلة فى أيديهم • على أنه رغم سقوطها العاثر ، وضياع وجودها السياسى القديم ، فإن فكرة تلك الامبراطورية ظلت عالقة فى أذهان الأوربيين طوال العصور الوسطى • بدليل أن الأباطرة الشرقيين اعتبروا أنفسهم امتدادا للأباطرة الرومان السابقين وورثتهم ، وما حدث فى رأيهم سنة ٤٧٦ أنه لم يعد ثمة سوى إمبراطور واحد للامبراطورية يحكم فى الجزء الشرقى منها • والحق أن الامبراطورية الرومانية الغربية بعد انهيارها لم تعدم بعض الأباطرة البيزنطيين العظام ، الذين عقدوا نيتهم على ضرورة إحيائها ، وإعادتها الى سابق مجدها قوية موحدة • وكان من أبرزهم جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) ، الذى تمكن بفتوحاته الكبيرة من القضاء على مملكة الوندال فى شمال أفريقية ، واجتث جذور القوط الشرقيين من إيطاليا ، كما اقتطع الجزء الجنوبى الشرقى من مملكة القوط الغربيين فى أسبانيا • بيد أن الجهود التى بذلها العاهل البيزنطى لإحياء الامبراطورية الرومانية القديمة ، مع كل عظمتها وصدق دوافعها ، لم تحقق الهدف المرجو منها ، إذ بعد موته بثلاث سنوات ، إجتاح اللومبارديون إيطاليا ، وسلبوا اجزاء عديدة من أرضها • إذ انثالوا عليها من وراء الألب فى صورة كتلة متراصة ، فى وقت كانت تئن تحت وطأة الشقاء والويلات التى خلفتها حروب جستنيان • وما أن انقضى زمن وجيز حتى استطاعوا الاستيلاء على شمال إيطاليا والأجزاء الداخلية التابعة لبيزنطة ، حيث أسسوا مملكة عاشت بين سنتى ٥٦٨ و ٧٧٤ ، تغيرت خلالها أحوال إيطاليا تغييرا جذريا • وبعبارة أخرى ، دخلت إيطاليا مرحلة جديدة من تاريخها ، من أبرز خصائصها ذلك النزاع الذى احتدم بين هذه المملكة والقوى السياسية وهى : الامبراطورية البيزنطية ، والبابوية ، ومملكة الفرنجة فى الغال

(فرنســا) • ولعل القــارىء الكريم المشتغل بتاريخ أوربا العصــور الوسطى ، يستطيع أن يلمس أن أوضــاع مملكة اللومباردين التى ظهرت على صفحات هــذا الكتاب ، لتشعب تاريخها وتشابك أحداثهــا ، وإن كانت مقصودة لذاتها ، إلا أنهــا كانت أيضــا محوراً لدراسة القــوى السياسية السالفة الذكر ،التى غيرت مجرى تاريخ هــذه المملكة •

وأيا كان الأمر ، فقد رأيت أن أقسم الكتاب الى خمسة فصول ، الفصل الأول ، وعنوانه « اللومبارديون قبل غزوهم إيطاليا » تحدثت فيه عن الفترة المبكرة من تاريخهم التى عرفوا خلالهــا بالعنف والضراوة ، والميل الى خوض الحروب ، وتتبعت هجراتهم وتحركاتهم الى أن صاروا فى منطقة الدانوب الأوسط بجوار بانونيا فى حوالى سنة ١٦٥م • وممــا يذكر أن المصــادر التاريخية الرومانية والإغريقية تقف منذئذ صــامتة حيال أحداثهم لفترة تزيد عن ثلاثة قرون (١٦٦ ــ ٥٠٨) • وقد تناولت فى هــذا الفصل أيضا الحروب التى دارت بينهم وبين القبائل الجرمانية الأخرى ، وعلى وجــه الخصوص الهيرولى والجبيداى ، حيث أسقطوا الأولى من قائمة الشعوب الجرمانية المستقلة ، ممــا ترتب عليه عــلو شأنهم من ناحية ، ولفتوا أنظار الامبراطورية كقوة يحسب لهــا حساب خطير من ناحية أخرى ، أمــا بالنســبة للجبيداى ، فقد أنزلوا بهــم كارثة ، لم تقم لهم بعدهــا قائمة •

أمــا الفصل الثانى ، وعنوانه « اللومبارديون فى إيطاليا » فقــد ضمنته أحداث الغزو اللومباردى لإيطاليــا ، ومــا صاحبه من تساقط مدنهــا الشمالية الواحدة بعد الأخرى دون مقــاومة تذكر من الأهالى أو الحاميات البيزنطية • ولا شك أن الحروب لتى جرت على أرض إيطاليا فى السنوات الأخيرة من عهــد جستنيان ، والتى عادت بأوخم العواقب عليها وعلى سكانها الآمنين ، قد منحت ألبوين ــ فاتح إيطاليا ــ ميزة جعلته يحقق هدفه بســهولة ، ونعنى بذلك قيــام مملكة اللومبارديين فى إيطاليا • وفى هــذا الفصل أيضا تحدثت عن فترة انقطاع الملكية المعروفة فى تاريخ اللومبارديين بفترة الشغور (٥٧٤ ــ ٥٨٤) ، ومــا تخللهــا

من تفاقم حدة الخلاف والمنازعات والفوضى داخل صفوف دوقاتهم ، وهى ظاهرة خطيرة لا نجد لهـا نظيرا فى بقية الممالك الجرمانية الأخرى • على أنهم فى نهـاية تلك الفترة أدركوا أن انقسامهم على أنفسهم فى غيـاب السلطة المركزية ، ومـا جره ذلك من تحالف بين الامبراطورية البيزنطية ومملكة الفرنجة جاء نذيرا بضياع كيانهم ، كل ذلك جعلهم يفيئون الى رشدهم ، ويجمعون كلمتهم على عودة الملكية وتدعيمها •

ويعرض الكتاب فى الفصل الثالث منـه ، وهو بعنـوان « صراع القوى السياسية فى إيطاليا فى القرن السابع » لنهوض البابوية ، وظهورها فى صورة قوة سياسة لعبت دورا رئيسـيا فى أحداث ايطاليا فى هـذا القرن • ذلك أن الامبراطورية البيزنطية وريثة الحق الشرعى فى إيطاليا لم تتراجع عن موقفهـا العدائى من اللومبارديين ، وبمعنى آخر لم يمسك أباطرة بيزنطة أيديهـم عن إيطاليا ، ولكن عجزهم الواضـح عن رد اللومبارديين من ناحية ، وفشلهم فى حماية الكرسى البابوى من ناحية أخرى ، جعل البابوية لا تأخذ موقف المتفرج السلبى ، إذ نهضت بأعبائها ، ومارست سلطتها العلمانية على رومـا وضواحيها • وتأسيسا على ذلك أخذ نفوذ البابوية فى الازدياد ، وخاصة على عهـد جريجورى العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) الذى تأهب للدفاع عن رومـا ضد اللومبارديين • وفى هـذا الصدد مكنته موارده المالية الضخمة ونفوذه القوى ، من تحمـل مسئولية الحفـاظ على مدينتـه وتأمينها • وحرصا على مصـالحه بذل جهده لإبرم اتفاقية سلام بين اللومبارديين والبيزنطيين فى سـنة ٥٩٩ ، جاءت بمثابة اعتراف صريح بالوجود اللومباردى فى إيطاليا ، رغم حقيقته المؤكدة • وفى هـذا الفصل أيضـا استعرضت أعمال الملوك اللومبارديين فى الربع الأخير من القرن السابع ، فضلا عن الوضع السياسى الذى بقيت عليه إيطاليا مقطعة الأوصـال ، وموزعة بين ثلاث قوى ، اللومبارديون ، وبيزنطـة ، والبـابوية •

أمـا الفصل الرابع ، وعنوانه « اللومبارديون فى إيطاليا فى القرن الثامن » ، فقد تحدثت فيـه عن أهم أعمال ليوتبراند أعظم ملوكهـم

قاطبة ، وكيف استغل النزاع الدائر بين البابوية والامبراطورية البيزنطية حول النزاع اللاأيقونى لصـالحه ، فعول على بسط نفوذه على إيطاليـا كلهـا ، ولكن البابوية فوتت عليه غرضه • إذ فى سبيل المحـافظة على بقائهـا وتأمين مصـالحها ، استعانت بقـوة سياسية من خارج شبه الجزيرة الإيطـالية ، وهى مملكة الفرنجة • والواقع أن سياسة هـذه المملكة فى بداية الأمر كانت تقضى بالامتناع عن التدخل فى شئون إيطاليا ، الى أن تمكنت البابوية من اجتذابها إلى جانبها ضـد اللومبارديين ، الأمر الذى نعتبره أول سابقة خطيرة من نوعهـا فى تاريخ إيطاليا العصـور الوسطى ، أحدثت انقلابا فى ميزان القوى السياسية لصـالح البابوية ، فى الوقت الذى كانت بداية النهاية لملكة اللومبارديين • وأخيرا لم تستطع هـذه المملكة أن ترد عنهـا قدرها العاثر ، فسقطت على أيدى شارلمان عاهل الفرنجة سنة ٧٧٤ • ويعتبر سقوطها أمرا حاسما فى تاريخ إيطاليا ، حطم القاعدة الصـلبة التى كان بإمكان الوحدة الإيطـالية أن ترتفع عليهـا ، واستحال تحقيقها حتى الثلث الثانى من القرن التاسع عشر

أمـا الفصـل الخـامس والأخير ، وهـو بعنوان « حضـارة اللومبارديين » ، فيبحث فى أوضاع اللومبارديين الحضـارية المتمثلة فى تنظيمهم السياسى ، وديانتهم ، وجيشهم ، وورومنتهم ، ورعاياهم الرومان ، ومجتمعهم ، وحياتهم الفكرية ، وفنهم ، وعمارتهم • وفى هـذا الفصـل أيضـا ألقيت الضوء على أحوالهم فى القرن السـابع ، إذ توقفوا عن كونهم برابرة أجلاف بسبب تأثرهم بالحضـارة الرومانية ، ويتضح ذلك فى تحولهم الى المذهب الكاثوليكى ، واستخدام اللاتنية لغـة رسمية ، وصياغة قوانينهم ذات الطابع الجرمانى المحض •

وفى الختام ، هـذا هو مـا حاولت القيـام به على قدر طاقتى المحدودة ، والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه •

محمود محمد الحويرى

القـاهرة فى ٢٠/٢/١٣٨٦هـ •
٣ /١١/١٩٨٥م •

الفصل الأول

اللومبارديون قبل غزوهم إيطاليا

- الفترة المبكرة من تاريخ اللومبارديين •
- حرب اللومبارديين ضد الهيرولى •
- حرب اللومبارديين ضد الجيبداى •

إصطدم معظم الباحثين الذين تناولوا فجر تاريخ اللومبارديين خاصة خلال الحقبة السابقة لميلاد المسيح عليه السلام ، بفجوة واسعة من الغموض • وقد اختلفت المصادر التاريخية فيما يتصل بوصفهم الإثنولوجى ، فيشير البعض منها الى أنهم ينتمون الى مجموعة الشعوب الجرمانية الغربية ، فى حين يرى البعض الآخر أنهم ينتمون الى مجموعة الشعوب الجرمانية الشمالية ، وإن كان من المحتمل — الى حد كبير — أنهم كانوا يؤلفون احدى قبائل المجموعة الأخيرة ، التى عاشت فى أحد مواضع الساحل الجنوبى لشبه جزيرة اسكندنياوة ، حيث نزحت منه حوالى القرن الأول أو الثانى قبل الميلاد ، الى الإقليم الواقع على الضفة اليسرى لنهر الإلب ، بالقرب من مصبه ، ثم تحركت منه الى هو لشتين Holstein أو مكلنبورج Mecklenburg على الضفة اليمنى من مصب هذا النهر ، قبل أن تغادره نهائيا الى منطقة وسط الدانوب (١) •

ورغم ندرة المعلومات التى وصلتنا عن اللومبارديين ابتداء من القرن الأول الميلادى ، إلا أنها كانت واضحة ومحددة • إذ عاد أسمهم الى الظهور فى مؤلفات مؤرخى الامبراطورية الرومانية خلال فترات متفرقة من هذا القرن • ولكن مما يدعو الى الدهشة أن أحداثهم منذ حوالى سنة ١٦٧ حتى زمن الإمبراطور أنسطاسيوس (٤٩١ — ٥١٨) ، وهى فترة طويلة تزيد على ثلاثة قرون ، قد انقطعت تماما فى كتب المؤرخين الرومان والإغريق •

ويعتبر سترابو (كتب حوالى سنة ٢٠م) ، وتاكيتوس (حوالى ٥٤ أو ٥٥ — ١١٧) ، وبطليموس (حوالى ١٠٠ — ١١٦) المصادر الرئيسية التى تناولت اللانجوباردى Langobardi وهو الشكل الباكر لاسم اللومبارديين ، قد سكنوا بالقرب من مصب نهر الإلب ، حيث ربطتهم علاقات وثيقة بالهيرموندورى Hermunduri والسيمنونى Semnones ، وهما قبيلتان عظيمتان من أصل سويفى ، استقرتا

---

(1) Dudden, Gregory the Great, I, pp. 80 - 81.

على الضفتين الشرقية والغربية من أعالى هـذا النهر • وثمـة اختلاف طفيف بين سترابو وبطليموس حول المنطقة التى شغلها اللومبارديون على ضـفاف هذا النهر ، فقد جعلها سترابو بعيدا عنهـا ، ويقصـد بذلك هولشتين ومكلنبورج ، فى حين حددها بطليموس فى الجزء الشرقى من مقاطعة هانوفر ، فى الرقعـة الممتدة من لونيبرج الى سالزويدل • ويبدو أن مـا ذكره المؤرخان صحيحا ، إذا وضعنا فى الاعتبار أن كلا منهمـا قد صنف تاريخه فى زمن يبعد عن الآخر ، خاصـة أن سترابو أضـاف بقولـه إن سكان هـذا الجزء من جرمانيا يغلب عليهم الميـل الى تغيير مواطنهم ، بسبب حياتهم التى فرضت عليهم الترحال من مكـان الى آخر ، سعيا وراء العشب والكلأ لمواشيهم وأغنامهم (١) •

وتجدر الإشـارة هنـا الى أن قبيلتى الهيرموندورى والسيمنونى لم يقدر لهمـا البقاء طويلا ، إذ اختفيتا من خريطة أوربا دون أن يخلفا أثرا ، فى حين بقيت قبيلة الأنجلى Angli ، وهى إحدى القبـائل السبعة التى جاورت اللومبارديين — الى الجنوب منهم — فى جرمانيا ، واشتركت جميعا فى عبادة الإلهـة نيرثا Nertha (الأم الأرضية) ، ومن المحتمل أن اللومبارديين شاركوا هـذه القبائل فى عبادتهم (٢) •

وقـد عرف اللومبارديون إبان الفترة الباكرة من تاريخهـم بالعنف والوحشية والضراوة ، والميل الى خوض الحروب • وأبلغ دليل على ذلك مـا ذكره المؤرخ باتروكولوس (٣) ، الذى كان معاصرا للقائد الرومانى

---

(1) Hodgkin, Italy and her Invaders, V, pp. 81-82.

(2) Hadgkin, V, pp. 82-83.

(٣) جايوس فيليوس باتروكولوس Gaius Velleius Paterculus (حوالى ١٩ ق.م — بعد سنة ٣١ م) • وهو مؤرخ رومانى ولد فى أسرة عريقة ، واختار الحياة العسكرية ، وخدم بضع سنوات تحت قيادة تيبريوس فى جرمانيا وايلليريكوم ، ورقى الى رتبة فارس سنة ٧ م وبرايتور سنة ١٥ . وقد كتب تاريخا عن روما منذ أقدم العصور حتى سنة ٣٠ • وتبدو اهمية =

تيبريوس ومادحه فى ذات الوقت • فمن خلال حديثه عن مآثر بطـله فى جرمانيا حوالى عام ٦ م قال : « إن الشعوب الجرمانية التى كنـا نجهل أسماءها من قبل قد أذاقها طعم الهزيمة ، فاللانجوباردى (اللومبارديون) وهم عنصر يفوق القبائل الجرمانية وحشية تحطم بين يديه ، وسيطرت الفرق الرومانية على المنطقة الممتـدة من الراين الى الإلب (١) • وكـان تيبريوس قد تولى قيـادة الفرق الرومانية فى جبهـة الراين ، وسـط موجات الفرح التى أبداها جنود هذه الفرق لثقتهم الزائدة فى مقدرته • وفعلا أثبت تيبريوس حسن ظن جنده به ، ففى الحملة الأولى التى قام بها سنة ٤م ، تقدم الى ما وراء فيسورجيس ، وقهر قبائل الشيروسكى Cherusci الخارجة عن طاعة الرومان آنذاك ، وكانت المرة الأولى التى قضى فيهـا الجيش الرومانى فصـل الشتاء وراء الراين فى قلعة أليسو الوقعة على نهر لوبيا • وفى العام التالى (٥ م) وصل تيبريوس الى منطقـة الإلب الأدنى ، وقمـع ثورة قامت بهـا قبائل الشـاوكى Chauci ، وهنـاك سمع الرومان لأول مرة عن اللومبارديين (٢) •

على أن هناك خاصـية انفرد اللومبارديون بهـا آنذاك وارتبطت بهم طوال تاريخهم ، تتمثل فى قلة قوتهم العددية بالمقارنة مع نظرائهم من الشعوب الجرمانية ، ولكن هـذا الأمر لم يقلل من شأنهم • وفى هـذا الصدد أشار المؤرخ تاكيتوس فى كتـابه « جرمانيا » قـائلا :

=

ما كتبه فى الصورة الحية التى رسمها لبعض الشخصيات الرومانية العظيمة . كما يحتوى تاريخه على معلومات مباشرة عن الحروب التى دارت فى جرمانيا والبلقان • انظـر :

Classical, Byzantine, Oriental & African Literature. (Ed. by Dudley & Lang). pp. 17-172.

(1) Hodgkin, op. cit., V, p. 85; Dudden, op. cit., I, p. 82; Villari : The Barbarian Invasions of Italy, II, p. 274.

(2) Bury : A Hist. of the Roman Empire from its Foundation to the Death of Marcus Aurelius, p. 131.

« يتباهى اللانجو باردى بأعدادهم القليلة ، ورغم أن شعوبا عديدة قوية تحيط بهم ، فقد أمكنهم البقـاء بينها دون أن يقعوا تحت نفوذهـا ، وذلك بفضـل قوتهم وشجاعتهم ، والحروب التى دأبوا على إشعالهـا دوما ، ممـا جعلهم ينعمون بالأمن والطمأنينة » (١) • كمـا أشار الى الدور الذى لعبـوه خلال الحرب التى دارت بين قبـائل الشيروسكى بزعامة أرمينيوس وقبائل الماركومانى بزعامة ماوروبودس فى سنة ١٧م • وكانت شهرة هذين الزعمين قد بلغت حدا جعلتهما أعظم أسمين جرمانيين عرفهما القرن الأول الميلادى • ذلك أن أرمينيوس استطاع الصمود أمام هجمات الجيش الرومانية ، وتوج جهوده بسـحق ثلاث فرق عسكرية رومانية فى غابات تيوتوبرج فى بوهيميا ، دأبت على تقديم العون لأعداء الامبراطورية ، وصـارت مبعث خطر يتهددهـا فى السـنوات الأخيرة من حكم الإمبراطور أوغسطس (١٤ ق • م — ٢٧ م) (٢) • على أن الموقف لم يلبث أن تبدل فى صالح الإمبراطورية الرومانية ، إذ وقعت العداوة بين الزعيمين البربريين ، وتهيأ كل منهمـا لرفع السلاح فى وجه الآخر ، وفى الحـرب التى اندلعت بينهمـا ، وهزم فيهـا ماروبودس هزيمة سـاحقة ، وقف اللومبارديون والسيمنونى الى جانب حليفهمـا أرمينيوس زعيم الشيروسكى • والجدير بالذكر أن اللومبارديين لعبـوا دورا فعالا فى هـذه الحرب الى جانب حلفائهم ، الذين ظلوا أوفيـاء لهم ، بدليل أنه بعد مضى ثلاثين سـنة على التحالف القائم بينهمـا ، قامت ثورة ضد إيتاليكوس Italicus إبن أخت أرمينيوس ، جعلته يلجـأ الى اللومبارديين مستنجدا بهم ، فبادروا بمساعدته وأعاده الى عرشه (٣) • وبهـذه الأحداث القليلة التى ساهم اللومبارديون فيهـا خلال إقامتهم فى منطقة فى مصب نهر الإلب ، لا تكشف لنـا المصـادر المعاصرة عن المزيد • ذلك أن مـا وصل إلينـا عن تحركاتهم منـذ ذلك

---

(1) Hodgkin, op. cit., V, pp. 85-86; Dudden, op. cit., I, p. 82.

(2) Hodgkin, V, p. 86.

(3) Bury, op. cit., pp. 175-176.

الوقت فصاعدا جاء ضئيلا الى حد كبير(١) • ولكن على الرغم من كل ذلك ، فاننا نستدل من كتابات تاكيتوس وبطليموس ، على أن اللومبارديين ظلوا يشغلون نفس مواطنهم الواقعة عند مصب نهر الإلب زمن الإمبراطورين نيرفا (٩٦ — ٩٨) وأنطونينوس بيوس (١٣٨ — ١٦١) (٢) •

ولما كان اللومبارديون بطبيعتهم أصحاب تنقل وترحال ، شأنهم فى ذلك شأن الشعوب الجرمانية الأخرى ، فقد تحركوا جنوبا مرة أخرى الى منطقة الدانوب الأوسط ، ضمن موجة تحركات القبائل الجرمانية التى أثارتها حرب الماركومانى (١٦٧ — ١٧٤) زمن الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠) ، وفى هذه الهجرة صحبتهم جيرانهم قبائل الأوبى Obii (٣) • وهنا نلاحظ أن ستة آلاف منهم — ومعهم الأوبي — قاموا بعبور نهر الدانوب الى بانونيا على عهد هذا الإمبراطور ، ولكن القائد الرومانى فيندكس Vindex أذاقهم هزيمة ساحقة ارتدوا على أعقابها عن بانونيا ، ثم أنفذوا سفارة الى آيليوس باسوس حاكم هذا الإقليم ، نجحت فى عقد اتفاقية سلام وحسن جوار معه • ولا شك أن وجود اللومبارديين فى منطقة الدانوب الأوسط بجوار بانونيا فى حوالى سنة ٦٥م ، يعنى أنهم صاروا على مقربة من الأقاليم المتاخمة للإمبراطورية الرومانية (٤) •

ومما يسترعى الانتباه أن المصادر التاريخية الرومانية والإغريقية تقف منذ ذلك التاريخ صامتة إزاء أحداث اللومبارديين لفترة تربو عن ثلاثمائة سنة (١٦٦ — ٥٠٨) ، وهى فترة معتمة من تاريخهم تعرقل أية محاولة تستهدف تتبع تجوالهم الغامض وسط جموع البربر الصاخبة • وليس بإمكان الباحث سد فراغ هذه الفترة الطويلة واستجلاء أحداثها إلا من كتاب « تاريخ اللومبارديين » Historia Langobardorum

---

(1) Dudden, I, p. 82.

(2) Hodgkin, I, pp. 87-88.

(3) Hodgkin, op. cit., V, pp. 87-88.

(4) Ibid, V, pp. 88-89.

الذى وضعه بولس الشماس عن قومه ، وتنـــاول فيه عاداتهم وتقاليدهم وأساطيرهم المعروفة بالساجة Saga ، وهى قصص زاخرة بأعمـــال البطولة والمآثر والملاحم ، لا تمكن الباحث من التقاط أية معلومـات تاريخية صادقة عنهم إلا بصعوبة بالغـــة •

وتروى الساجة أنه فى الأرض الشمالية التى تعتبر أم الشـــعوب (مستودع البشرية) ثمـــة جزيرة ضخمة — وهى جزيرة اسكندينافيا — كان يسكنها منــذ زمن بعيد شعب الونيلى Winili ، الذى عرف فيمـــا بعد باللانجوبارد • وقد جاء وقت على هــذا الشـــعب اكتشف أن سبل الحيـــاة قد ضاقت به ، وأضحى عـــاجزا عن القيـــام بأعبائه • ولهــذا قر قراره على أن يقسم نفســـه الى ثلاث جماعات تجرى قرعة فيمـــا بينها ، ويتحدد بموجبها رحيل احداها بحثـــا عن وطن يوفر لهـــا معيشة أفضل ، فى حين تبقى الجماعتان الأخريان فى وطنهما • وكان أن خرج السهم على احـــدى جماعات الونيلى الثلاثة ، فاختارت لقيـــادة مسيرتهـــا وتولى أمورهـــا أخوان شـــابان همـــا آيبـور Ibor وآيو Aio ، لهمـــا أم راجحة العقل ، دأبا على الرجوع إليهـــا طلبـــا للنصـــيحة • وعلى أية حال ، قاد الأخـــوان جماعتهمـــا الى إقليم يدعى سكورينجا Scoringa على الضـــفة اليسرى لمصـــب نهر الإلب — فى المنطقة الواقعة بين نهرى الوزير والإلب الأدنى — حيث استقرو به بضع سـنين (١) •

وفى هــذا الإقليم ، قدر للونيلى أن يقفوا وجهـــا لوجه أمام جماعات الوندال الجرمانية ، التى نشرت الرعب والفزع بين شعوب المنطقة وأخضعتها لطاعتهـــا ، لمـــا عرف عنهـــا من وحشية لا تستجيب لتوسل ولا يهزهـــا رحمة • وكان من الطبيعى أن يسعى الوندال الى فرض سيطرتهم عـلى الونيلى من أجل الحفاظ على هيبتهم وسط القبائل الجرمانية ، فبعثوا إليهم

---

(1) Paul the Deacon, History of the Lombards, (tr. by W. D. Foulke. ed. by E. Peters), pp. 2-12; Dudden, V, pp. 89-91; Villari, II, p. 275.

برسالة عنيفة تخيرهم بين أحد أمرين ، إمـا أن يدينوا بالطـاعة ويدفعوا لهم الجزية وهم صاغرون ، وإمـا أنه لا مفر من الدخول معهم فى معركة يخرج منهـا الخاسر صفر اليدين (١) • ولا شك أن الونيلى رغم شجاعتهم المعهودة وجدوا أنفسهم فجأة أمام خطر داهم بات يهدد كيانهم ، بيد أنهم لم يفقدوا رباطة جأشهم • وفى الحـال لجأ الأخوان آيبور وآيو الى أمهما لاستشارتها فأشـارت عليهمـا أن واجب قومهـا الونيلى يحتم عليهـم الدفاع عن حريتهم ومصيرهم بقوة السلاح ، وألا يجلبوا لأنفسـهم عارا يندى له جبينهم ، وتبعية ذليلة ، إذا قبلوا دفع الجزية • وبفضـل هـذه النصيحة السديدة ، التهبت نفوس الونيلى حماسة وشجاعة ، وأرسلوا ردا قاطعـا للوندال يقول : « سنحاربكم » (٢) •

ويستطرد بولس فى روايته الأسطورية قائلا إن الوندال والونيلى بعد أن عبأا جيوشهما وتهيأا للقتال ، حرص كل منهمـا على تأدية الصـلاة طلبـا للنصر ، فصلى الوندال للإله جودان Godan (Wotan) واستجدوه أن يمنحهم النصر منعندهم ، فأجابهم قائلا : « سوف أمنح النصر للشعب الذى يقع بصرى عليه أولا عنـد شروق الشمس » • أمـا الونيلى فقـد صلوا للإلهـة فريا Freya زوجة جودان ، التى منحتهم بركتها وتأييدها • ورغبة فى مساعدتهم طلبت إليهم أن يقفوا جميعا أسفل نافذة زوجها فى الصباح المبكر ومعهم زوجاتهم ، ونصحت الزوجات أن يطلقن شعرهن ويعقدنه حول وجوههن حتى يبدو فى هيئة اللحى • فلما أشرقت شمس اليوم التالى أيقظت فريا زوجها ، وطلبت إليـه أن يطل من نافذته ، وحين وقع بصره على شعب الونيلى ، وبدت له هيئة النسـاء كمـا أوصت زوجتـه بها ، سألها قائلا : « من هؤلاء أصحاب اللحى الطويلة Langobardi ؟ » ، فردت عليه بقولها : « بمـا أنك أطلقت عليهم اسم اللانجوباردى ، فامنحهم

---

(1) Poul the Deacon, pp. 12-15.

(2) Paul., p. 15; Hodgkin, V, p. 91.

النصر من عندك » ، فأجابها الى الى طلبهـا ، وبذلك تغلب الونيلى عـلى الوندال فى المعركة العنيفـة التى دارت بينهمـا ، وصاروا منذئذ يعرفون باللانجوباردى (١) .

وبالرغم من أن هـذه الأسطورة لا تمت الى الحقيقة بصـلة ، بدليل أن راويهـا بولس الشماس قـد علق على أحداثها بأنهـا مدعاة للسـخرية والضـحك ، لأن النصر الذى أحرزه اللومبارديون جاء بفضـل العنـاية الإلهية ، إلا أن تغيير الاسم كان فى رأيه حقيقة تاريخية ، وفى هذا الصدد يقول : « من المؤكد أن الونيلى أطلق عليهم اسم اللانجوباردى ، لطـول لحاهم التى لم تمسها الموسى ، ذلك أن كلمة «lang» فى لغتهم تعنى «long» أى طويل ، وكلمة «bart» تعنى «beard» أى لحية » (٢) . ويبـدو أن بولس قد أخذ هـذا الاشـتقاق عن المؤرخ إيسيدور الإشبيلى (ت ٦٣٦) الذى يروى أن اللانجوباردى قد عرفـوا بهـذا الأسـم ، بسبب أنهم كـانوا يتركون لحـاهم عـلى سجيتهـا ولا يحلقونهـا (٣) .

على أن بعض المؤرخين المحدثين فسروا لفظة اللانجوباردى تفسيرا مغايرا ، ومن بينهم شمت Schmidt الذى يرى أن اسـم اللومبارديين الباكر كان «Bards» وهو مشتق من الكلمـة الجرمانية القديمـة «barta» أى فأس ، ثم أضيف إليهـا بعد ذلك كلمة «lang» ، وبذلك صـار اسمهم « الرجـال ذوى الفئوس الطويلة » . أمـا المؤرخ ليونارد شميتس Schmitz فيذكر أن الاسم جاء من Lang Bord أى « الرجال الذين يقطنون لانج بورد » ، وهى مروج الإلب الواسعة ، ومع

(1) Paul., pp. 16-17; Hodgkin, op. cit., V, pp. 91-93; Dudden, I, pp. 81-82.

(2) Paul., pp. 17-18; Dudden, op. cit., I, p. 82.

(3) Paul., p. 18 n. I.

أن مـا وصل اليه المؤرخون المحدثون فى هـذا الصدد جدير بالاعتبار ، فالواقع أن ما ذهب إليه بولس الشماس يعتبر أقدم الاشتقاقات جميعا ، وأكثرها قبولا ، وأفضلها بوجه عام (١) • ومـا زال اسم اللانجوباردى مألوفا لبولس والإمبراطور شارلمان (ت٨١٤) ، حتى إذا أشرف القرن الثانى عشر على نهايتـه ، نلاحظ أن أسـم لومبـارديا Lombardia قد شـاع استخدامه بوجه عام ، وصار علمـا على السهل الشمالى من إيطاليا حتى وقتنا الحاضر • هـذا وقد تعودت الأذهان على اسـم لومبارديا خلال الحروب التى خاضها فردريك بربروسـا (١١٦٧ — ١١٨٣) ، وإن كان اللومبارديين ولسانهم الجرمانى قد ذابوا فى شعب إيطاليا منذ زمن طويل (٢) •

وعلى أية حال ، وبعد أن أحرز اللومبارديون النصر على الوندال وقعوا تحت وطأة مجاعة قاسية كادت أن تفتك بهم ، ممـا اضطرهم الى التحرك من جديد ، فغادروا إقليم سكورينجا ، وساروا تجـاه إقليم مـا ورينجا (٣) Mauringa ، ولكنهم عندما اقتربوا من هـذا الإقليم اصطدموا بالأسيبتى Assipitti وهم من الشعوب الجرمانية التى تفوقهم كثرة • وقد بدأ الصـدام برفض الأسيبتى السماح لهم باجتياز أراضيهم الواقعة فى طريق هدفهم • ويروى بولس الشماس أن اللومبارديين عمدوا الى استخدام الحيلة ، إذ أرادوا أن يبعثوا الوهم فى قلوب أعدائهم بوفرة عددهم ، فنصبوا مخيمات عسكرهم على مسافات متباعدة ، وأوقدوا نارا فى أماكن كثيرة متفرقة • وفعلا انطلت الحيلة على الأسيبتى ، فعدلوا عن فكرة الاشتباك معهم فى قتال ، وأنفذوا رسـولا الى اللومبارديين

---

(1) Paul., p. 18; Hodgkin, op. cit., V, p. 174; Dudden, op. cit., I, p. 82.

(٢) شينى : تاريخ العالم الغربى ، ترجمة مجد الدين حفنى ناصف ، مراجعة على ادهم ، ص ١٠٥ .

(٣) ماورينجا منطقة تقع بين نهرى الالب والأودر ، والمحتمل انهـا هولشـتين • (Paul., p. 19 n. 1.)

يعرض عليهـم أن يكون اللقـاء قاصرا على نزال فردى بين اثنين من محاربى الشـعبين ، فإذا تغلب المحـارب الأسيبتى على خصمه كـر اللومبارديون راجعين ، أمـا اذا حدث العكس أذن لهـم بالمرور الى هدفهم المنشود • وكان من الطبيعى أن يوافق اللومبارديون على هـذا العرض ، ولكنهم مـا لبثوا أن اكتشفوا أن المحارب الأسيبتى بطـل قوى لا يشق له غبار ، فوقعـوا فى حيرة ، وساورهم شـك فى التغلب عليه • وفى هـذا الموقف العصيب تقدم أحد عبيدهم ، وأبدى استعداده لمصارعة خصمه ، شريطة أن ينال هو وأسرته حريتهم إن تمكن من الفوز ، فوعده الزعمـاء اللومبارديون والفرح يملأ قلوبهم بتحقيق أمنيتـه • وكان أن لقى المحارب الأسيبتى مصرعه على أيدى العبد ، وتلا ذلك أن اجتاز اللومبارديون أراضى الأسيبتى الى إقليم مـا ورينجا (١) •

على أن اللومبارديين غادروا إقليم ماورينجا ، دون أن يتوفر لدينا سبب لذلك ، اللهم إلا أنهم على شاكلة الشـعوب الجرمانيـة ، التى لا تعرف بطبيعتها طعم الاستقرار • ومـا لبثوا أن بلغوا إقليم جولاندا (جوثلاند) ، حيث استطاعوا الاستيلاء على مناطق انتيب Anthaib (يبـدو أنهـا بافاريا) ، وبانثيب Banthaib (يبـدو أنهـا بوئى وبوهيميا) ، وبرجنديب Burgundaib الواقعة على الجانب الشرقى من نهر الإلب (٢) • وفى المنطقة الأخيرة توفى الزعيمان الأخوان آيبور وآيو اللذان قادا جماعتهما من اسكندنياوه كما رأينا ، واختار اللمبارديون أجيلموند Agelmund — إبن آيو — ملكـا عليهم ، وهـو أول من حمل هذا اللقب ، لأن من جاءوا قبله كانوا زعماء (دوقات) فحسب(٣) • ومن المحتمل أن اللومبارديين خلال تنقلاتهم أحسوا بحاجتهم الى تركيز السـلطة فى أيدى شخصية قوية جديرة بقيادتهم ، وقادرة على تصريف شئونهم ، الأمر الذى جعلهم يخلعون على أجيلموند هذا اللقب •

---

(1) Paul., pp. 19 - 21; Hodgkin, op. cit., V, p. 93.

(2) Paul., pp. 21-23.

(3) Paul., pp. 24-26; Hodgkin, op. cit., V, p. 94.

ووفقـــا لما رواه بولس الشماس ، حدث أن امرأة لومباردية قاسية القلب ، كانت حامـــلا فى شهرها الأخير ، وعندمـــا دنت ســـاعة الولادة وجاءها المخاض ، أنجبت ســـبعة أطفال ، طاوعها قلبهـــا على التخلص منهم ، بإلقائهم الواحد بعد الآخر فى بركة عميقة ، وتصادف مرور الملك أجيلموند وشاهد الأم وهى تنفذ جريمتهـــا الشنعاء ، فترجل عن فرسه ، ولم يستطع أن ينقذ إلا طفلا واحدا ، عهد به الى مربيه للاعتنـــاء به ، ولمـــا كان الطفـــل قد انتزع من البركة ، وهى التى يطلق عليها لامـــا Lama باللغة اللومباردية ، فقد سمى لاميسيو Lamissio (١) •
وعند بلوغه مرحلة الشباب ، أظهر شجاعة منقطعة النظير أكســـبته شهرة واسعة وسط قومه • ثم كان أن قـــاد الملك أجيلموند قومه الى منـــاطق جديدة ، فلمـــا بلغ أحد الأنهـــار لعبوره ، أعترضـــته قبائل الأمازونى الجرمانية ، وهنـــا تكرر مـــا حدث من قبل مع الأسيبتى ، إذ اتفـــق الشعبان على إقامة مبارزة فردية ، فاختار الأمازونى إمرأة محاربة قوية ، فى حين اختـــار اللومبارديون لا ميسيو ، الذى استطاع التغلب عليهـــا وقتلها ، الأمر الذى ترتب عليه أن عبر قومه مجرى النهر ، ونزلوا بأرض اتخذوهـــا مقرا مؤقتـــا ، وبينمـــا هم ينعمون بالراحة والهدوء ، دهم البلغار معسكرهم بغتة أثنـــاء نومهم ، حيث شلوا حركتهم ، وأمعنوا فيهم القتل ، وكان أجيلموند ممن سقطوا صرعى ، علاوة على أن ابنتـــه وقعت فى الأسر (٢) •

لم يلبث اللومبارديون أن استردوا قواهم عقب هـــذه الكـــارثة ، ونادوا بلا ميسيو ملكـــا عليهم • ومنـــذ اللحظة الأولى التى اعتلى فيهـــا العرش ، صمم على الثـــأر لمقتل سلفه ، فزحف على رأس قومه لقتـــال البلغار ، ولكن قومه من شدة تأثير الكارثة حاولوا النكوص على أعقابهم • وهنـــا أخذ لا ميسيو يذكرهم بالميتة الغادرة التى لقيهـــا سلفه ، ومـــا

---

(1) Paul., pp. 27-29; Hodgkin, V, pp. 95-96.

(2) Paul., pp. 26-27; Hodgkin, V, pp. 94-95.

ينتظرهم من عار مخز اذا تركوا دمه يضيع سدى • ولم يزل يحثهم على تخليص ابنـة سلفه من ذل الأسر ، والدفاع عن حريتهم ، ووعد العبيد الذين سيحاربون بشجاعة بعتقهم ،ثم ضرب بنفسـه مثلا رائعـا على التضحية بأن ألقى بنفسـه وسط العدو صارخا فى قومه أن يدافعوا عن أطفالهم ونسائهم • وعندئذ اقتدى اللومبارديون بمليكهم ، واستماتوا فى القتـال ، حتى تم لهم النصر على البلغار ،وخرجوا من المعركة بحصيلة وافرة من الغنائم والأسلاب (١) •

ثم مات لا ميسيو ، وخلفـه ليثو الذى دام حكمـه حوالى أربعين سـنة ، وأتى من بعده ابنـه هلديوك ، ثم جوديوك الذى كان ترتيبـه الخـامس فى قائمـة ملوك اللومبـارد (٢) • وفى عهـد الأخير تحرك اللومبارديون من جديد ، وواصلوا سيرهم حتى بلغوا أرض الروجيين الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الدانوب (مورافيا) ، فاستولوا عليها ، حدث ذلك فى النصف الأخير من القرن الخامس • وكان أن مات جوديوك ، وخلفه على العرش ابنـه كلافو ، وهـذا أيضا بعد موته خلفه ابنـه تاتو Tato • وفى العقد الأول من القرن السادس ، غادر اللومبارديون بقيـادة تاتو أرض الروجيين الى منطقة ذات سـهول واسـعة تدعى فيلد Feld تقع بين نهرى تيس والدانوب ، حيث بدأوا يلعبون دورا أشـد مـا يكون وضوحا على مسرح أحداث تاريخ أوربا العصـور الوسطى ، إذ بعد مضى ثلاث سنوات على وصولهم الى هـذه المنطقـة ، اشتعلت الحرب بينهم وبين قبائل الهيرولى Heruli حوالى سنة ٥٠٨م(٣) •

وتمثل هـذه الحرب التى سنتعرض لهـا بعد قليل أبرز مرحلة فى تاريخهم ، إذ بدأوا يدخلون بهـا دائرة الضوء التاريخى ، فى حين أخذت

---

(1) Paul., pp. 29-30; Hodgkin, op. cit., V, p. 96.

(2) Paul., p. 30.

(3) Paul., p. 33; Hodfikin, V, op. cit., p. 97; Dudden, op. cit., I, p. 83.

أحداثهم الأسطورية الملامح تتساقط من ثقوب غربال التاريخ • وبعبارة أخرى يمكن القول أن الطريق الذى سلكه المؤرخون الرومان ، والآخـــر الذى سلكته الساجة اللومبارية ، وهمـــا طريقان مختلفان متباعدان ، قد التقيـــا عندئذ فى طريق واحد معروف واضح المعالم •

وليس من شك أنه كان من العسير على الباحث التقيد بوضع ترتيب زمنى للأحداث التى سردهـــا بولس الشماس عن قومـــه ، خلال الفترة المبكرة من تاريخهم ، لاضطرابهـــا الشديد ، وجنوحهـــا الى الخيـــال والأساطير • ولكننـــا أوردناها من منطلق القاعدة التاريخية القائلة أنـــه مهمـــا كانت الرواية ساذجة بعيـــدة عن الصحة ، فقد يكون لهـــا أهمية تاريخيـــة •

ويرى المؤرخ هودجين أن أحداث اللومبارديون إبان الفجوة التاريخية الغامضة البالغة ثلاثة قرون ومـــا يزيد كمـــا رواها بولس الشـــماس ، كانت كالجبال التى يشاهدها المرء من خلال ضباب كثيف ، يجعله عاجزا عن تقدير حجمها الحقيقى من ناحية ، وقاصرا عن تقدير المســـافة المؤدية إليها من ناحية أخرى، وبالرغم من ذلك يمكننا أن نخرج بالحقائق التالية(١) :

١ ــ حمل اللومبارديون اسم الونيلى عند بداية ظهورهم •

٢ ــ كان إقليم سكورينجا الواقع عـــلى الضـــفة اليسرى لنهـــر الإلب ــ بالقرب من مصبه ــ أول وطن لهم بعد رحيلهم من اسكندنياوه ، وقد عرف هذا الإقليم فى العصور الوسطى بأسم بارديينجو Bardengau وعاصـــمته باردويك Bardowyk التى لعبت دورا هامـــا فى أحداث الأباطرة الألمان ، الى أن دمرهـــا هنرى الأسد فى عام ١١٨٩ •

ومن المحتمـــل أن اللومبارديين ــ كمـــا يرى هودجين ــ فى القرن الرابع الميلادى ، كانوا تحت سيطرة هرمانريك Hermanric ملك

(1) Hodgkin, op. cit., V, p. 99

القوط الشرقيين • وعندما اجتاحت جموع الهون البربرية بزعامة آتيـلا (ت ٤٥٣) أراضى الإمبراطورية وعبثوا بأقليهما ، من الثابت أنهم كانوا من بين الشعوب الجرمانية الخاضعة لهـذا الزعيم ، وعلى هـذا الأساس أغفلت المصادرة المعاصرة ذكرهم • واذا أخذنا برواية بولس القائلة بأن مملكة الروجيين قد سقطت على أيدى اللومبارديين ، فلا شك أن الأخيرين قد وفقوا فى الحصول على وطن شمال نهر الدانوب مقابل ولاية نوريكوم الرومانية • لكنهم رغم هـذا لم يحققوا أهدافهم ، وربمـا كان ذلك بسبب النفوذ العظيم الذى مارسـه ثيودريك ملك القوط الشرقيين (٤٩٣ — ٥٢٦) فى هـذه الأرجاء ، بالإضـافة الى أن نوريكوم وقفت حائلا دون توسعهم ، ممـا جعلهم يغادرون أرض الروجيين الى سـهول هنغاريـا (فيلد) (١) •

وأخيرا ، يرى هودجين أيضا أن اللومبارديين خلال الفجوة التاريخية الغامضة السـالفة الذكر ، كانوا يحتلون مرتبـة ثانوية بين الشـعوب البربرية القـوية ، مثل الأليمانى والثورنجيين والروجيين والجيـداى والهيرولى ، تلك الشـعوب التى قدر لهـا أن تلعب دراً خطيرا فى مصـير الإمبراطورية الرومانية فى الفترة الواقعـة بين سنتى ٣٦٧ و ٤٧٦م • ومن المعروف أن تلك الشعوب قد ازدادت التصاقا بحدود الإمبراطورية الشمالية آنذاك ، وباتت تتطلع الى عاصمتهـا رومـا بعين شرهة • والواقع أنـه لا يعنينا من أمر تلك الشعوب إلا أنها كانت بمثابة سد منيع حال دون قيام شعب — أى اللومبارديين — قليل الشأن لا حول له ولا قوة بمشاركتها فى أعمال النهب والسـلب • ومن ثم أغفل المؤرخون المعـاصرون ذكره فى مؤلفاتهم ، فلم نسمع عنـه فى مؤلف « حياة القديس سيفيرينوس » أو فى « رسائل كاسيودورس » (٢) •

---

(1) Ibid, p. 102.

(2) Hodgkin, op. cit., V, pp. 102-103.

والقديس سيفيرنيوس St. Severinus ، كان ممثل الكنيسة فى اقليم الهون ، ارتحل الى الاقاليم الواقعة على طول الدانوب داعيـا الى =

حرب اللومباردين ضـد الهيرولى :

يعتبر الهيرولى أشـد الشعوب الجرمانية ولعا بالتجوال والترحال ، فظهروا على الدنيستر والراين ، ونهبـوا اليونان وأسبانيـا ، وهددوا • إسكندنياوة وإيطاليا • ومـا اتصـفوا به من عدم الاستقرار يرجع الى أنهم كانوا منقسمين على أنفسهم منـذ زمن بعيـد الى فرعين كبيرين : أحدهمـا تحرك صوب البحر الأسود ، واستقر المطـاف به فى نهاية القرن الخامس الميلادى على الضـفة الشرقية لنهر الدانوب ، جنوبى السـهول الواسـعة (فيلد) التى كان يشغلهـا اللومبارديون ، حيث عرف هـذا الفرع الذى يهمنـا فى دراستنا بالفرع الشرقى • أمـا الفرع الآخر ، وهو الذى عرف بالفرع الغربى ، فقد ظل قريبـا من موطنه الأصلى ، الى أن ظهر فيمـا بعد على ضفاف نهر الراين (١) •

ويصف المؤرخ بروكوبيوس(٢) الهيرولى بالغدر والضراوة والشراهة ،

=

المسيحية ، حيث نجح فى تحويل العديد من الاهالى ، الى أن توفى سنة ٤٨٢ م ، ونقل رفاته الى ايطاليا . (Paul., p. 32 n. 2)

أما المؤرخ فلافيوس ماجنوس أوريليوس كاسيودورس (حوالى ٤٧٧ — ٥٨٣) Flavius Magnus Aurelius Cassiodorus ، فهو رجـل دولة رومانى ، التحق بخدمة ثيودريك ملك القوط الشرقيين • وتعتبر رسـائله المعروفة بعنوان Variae Epistulae مصدرا هاما لتاريخ القرن السادس . أما كتابه « تاريخ القوط » الذى يعتبر مصدرا تاريخيا هاما تناول أحـداث مملكة القوط الشرقيين ، لم يتبق منه الا شذرات فى كتابات جوردان ، وقد اعتزل الحياة العامة فى سنة ٥٥٠ ، والتحق راهبا بدير فيفاريوم الذى ابتناه فى موطنه بروتيوم . انظر :

Dudley & Lang, op. cit., p. 48.

(1) Hodgkin, V, p. 103.

(٢) ولد بروكوبيوس Procopius حوالى سنة ٤٩٠ أو ٥٠٠ م ، ودرس البلاغة والقانون • وفى عام ٥٢٧ شغل منصبا مدنيا عاليا تحت

=

والميل الى اغتصـــاب أملاك الغير ، واعتبرهم « أحقر البشرية وأوضعها ؛ ومـمــا يذكر أنهم ظلوا على وثنيتهم حتى اختفائهم نهائيـــا من صفحات التاريخ ،وزاولوا عبـــادة ذات طقوس شريرة قامت على أضحية بشرية ، واعتادوا التخلص من مرضاهم ومسنيهم بالقتل ، وأجبروا أراملهم عـــلى التضحية بأنفسهن فوق قبور أزواجهن • وفى بداية القرن السادس كانوا أقوى شعوب المنطقة ، حيث أشاعوا الرعب فى صدور جيرانهم ، وأنزلوهم الى مرتبـــة التبعية ، وأجبروهم على دفع الجزية • وكان اللومبارديون الذين اعتنقوا المسيحية على المذهب الآريوسى وقتئـــذ ، من بين الشعوب التى دفعت لهم الجزية (١) •

ويروى بروكوبيوس أن السبب الذى من أجله أعلن الهيرولى الحرب ضد اللومبارديين ، يرجع الى أنه بعد سنوات قليلة من اعتلاء أنسطاسيوس عرش الإمبراطورية الرومانية (٤٩١ — ٥١٨) ، انصرف الهيرولى الى رغد الحيـــاة ، وأخلدوا الى الكســـل والتراخى ، وهم الذين اعتادوا رفـــع السـلاح فى وجه القبائل المجاورة • وكان المحاربون منهم — على وجـــه الخصوص — أشـــد نقمة على مـــا وصل حالهم إليـــه ، دفعتهم غريزة الفوضى المتأصلة فيهم الى التعبير عن سخطهم فى صورة إهانات وجهوها لمليكهم رودلف • من ذلك أنهم أطلقوا عليـــه صفات لا تليق إلا بالنساء ، كأنثوى رقيق سئم القتـــال ، وآثر السلامة والعافية • وعندمـــا أحس الملك بأنه صـــار هدفا لسخرية محاربته وازدرائهم ، اضـــطر الى النزول

=

امرة القائد بليزاريوس ، وصحبه فى حملاته العسكرية ضد الفرس والوندال والقوط الشرقيين ، ومن ثم جاءت كتاباته شاهد عيان . واهم مؤلفـــاته « تاريخ حروب جستنيان » ، الذى يغطى الاحداث الواقعة بين سنتى ٥٢٧ و ٥٥٣ . وله كتاب آخر اسماه « التاريخ السرى » . Historia Arcana . وتوفى سنة ٥٦٥ . انظر :

Dudley & Lang, p. 206.

(1) Dudden, op. cit., I, pp. 83-84.

عنــد رغبتهم لاسترجاع هيبتــه المفقودة ، فأعلن الحرب على جيرانــه اللومبارديين فى حوالى ســنة ٥٠٨ ، دون أن يتوفر سبب مقنع لها (١) • ولمــا أحس اللومبارديون بمــا أزمع الهيرولى عليه ، عرضــوا عليهــم الإمساك عن القتال ، مقابل دفع الجزية المفروضة عليهم • ولكن رودلف تحت تأثير الرغبــة فى القتال رفض هــذا العرض ، ومن ثم صارت الحرب أمرا لا مفر منــه بين الشعبين • وهنــا نلاحظ أن رودلف استهان بقــوة اللومبارديين وشجاعتهم ، فلم يشمر عن ساعد الجــد استعدادا لخوض المعركة ، ظنا منــه أن مصيرها بات يحدده سلفا أعداد قومــه الوفيرة من جهــة ، ومــا عرفوا به من ضرواة طالما أثارت الرعب فى قلوب جيرانهم من جهة أخرى (٢) • ولكنه نسى أن اللومبارديين فى هذه المرة يدافعون عن طوق نجاتهم ، فلم يستسلموا لليأس ، وحزموا أمرهم على خوض المعركة بشجاعة ، وإلا أصبح الفنــاء مصيرهم •

ويمضى بروكوبيوس فى روايتــه ، فيذكر أنه فى الوقت الذى تهيــأ الشعبان للقتال ، تصــادف أن تلبدت السماء بسحب سوداء فوق صفوف اللومبارديين ، فتيمنوا خيرا ، لأن إله الحرب الذى لا يظهر إلا فى مثــل هــذا الجو المكفهر ســوف يقف الى جانبهم ، وعلى عكس ذلك ، كانت السماء صافية الأديم فوق صفوف الهيرولى ، الأمر الذى أزعجهم واعتبروه نذير فأل سيىء ، ولكنهم لم يبالوا اعتمــادا على تفوق قوتهم العددية • وعلى أية حال ، لم يلبث الشعبان أن التحمــا فى معركة ضارية ، انتهت بانتصــار اللومبارديين ، ووقوع أعداد ضخمة من الهيرولى قتلى ، بمــا فيهم رودلف نفســه (٣) •

على أن بولس الشــماس وقف من أحداث هــذه الحرب موقفــا مغايرا • وبغض النظر عن أنه صاغها فى قالب أسطورى ، نلاحظ أنه حمل اللومبارديين مسئولية قيامها •

---

(1) Hodgkin, V, p. 106; Dudden, op. cit., I, p. 84.

(2) Hodgkin, V, pp. 106-107.

(3) Paul., p. 37 n. 1; Dudden, I, p. 84.

وتبدأ أسباب هـذه الحرب بزيارة قام بهـا أخـو الملك رودلف الهيرولى لتاتو ملك اللومبارديين ، بغرض عقد اتفاقية تحالف بين الشعبين • وبمجرد أن فرغ الأمير الهيرولى من مهمته شرع فى العودة الى وطنـه ، وفى طريقـه مـر أمام قصر روميتروودا Rumetruda ابنـة الملك اللومباردى ، فراعهـا بحاشيته الضخمة ، ودعته لتنـاول الشراب • ولبى الأمير الدعوة عن طيب خاطر • ووقف بباب القصر ينتظر الإذن بالدخول • وكان الأمير شابا ضئيل الجسم ، بخلاف مـا تميز به قومه من طول قامة ، فلمـا استقبلته الأميرة ووقع بصرهـا عليه ولم يكن كمـا تخيلته ، لم تستطع أن تخفى امتعاضها ، وفاهت بكلمات أحس الأمير منهـا أنه صار مثار سخرية أهل القصر وضحكهم ، فكان نصيبهم منـه إهانة لاذعة ، جعلت الأميرة ترتبك وتستاء غضبا لجرح مشاعرها ، ولكنها تمالكت وصممت على الانتقام منه • ومن ثم أخذت تهدىء مضيفها بكلمات ناعمة ، وألحت عليـه أن يبقى لتناول العشـاء على مائدتها ، فوافق الأمير • وحين أتى موعد العشـاء رافقت الأميرة مضيفها بحفاوة بالغـة الى مائدة أعدتها على شرفه ، وطلبت اليـه الجلوس بحيث صـار ظهره موليا لنافذة أسدل عليهـا ستارة رائعة ،وقف خلفها رجال مسلحون بحراب • ثم التفتت الأميرة الى ساقيهـا ، قائلة له بصوت يحمـل مغزى معين : « هـات الشراب ! » • وعندئذ خرج الرجال المسلحون من وراء الستار ، وغرسوا حرابهم فى ظهر الأمير غدرا ، ولم يتركوه إلا جثة هامدة • وطبقا للتقاليد الجرمانية السائدة ، اعتبر اللومبارديون ما حدث مؤامرة دنيئة لا يمكن السكوت عليها ، ممـا أدى فض التحالف القائم بينهم وبين الهيرولى ، واشتغال الحرب بينهمـا (١) •

أمـا فيما يختص بأحداث المعركة التى دارت بين الشعبين ، فقـد أشار بولس الى أن الهيرولى لم يتجهزوا للمعركة قبـل الدخول فيهـا ، لثقتهم الزائدة فى أنفسهم وتفوقهم العددى ، حتى أنهم أهملوا عن قصـد

(1) Paul., pp. 33-35; Dudden, op. cit., I, pp. 84-85.

وضع دروع لحماية أجسادهم ، وإمعانا فى الاستخفاف بعدوه ، لم يتخل رودلف عن قيادة جيشه فحسب ، بل بلغ الغرور به حدا جعله يجلس على طاولة فى معسكره وراح يتسلى بلعبة الداما ، واكتفى بأن أمر أحد كشافيه بتسلق شجرة على مقربة منه ، بهدف مراقبة أحداث المعركة من أعلاها ، وإعطائه تقريرا عنها أولا بأول ، وفى ذات الوقت هدده بقطع رأسه إذا نقل إليه خبرا يتضمن هروب محاربيه • وفى أثناء المعركة كان رودلف يصرف باله عن اللعب بين لحظة وأخرى ، ويتطلع الى الكشاف مستفسرا عن تطور القتال • ولكن الكشاف وقد شاهد قومه ينهارون أمام بسالة اللومبارديين ، خشى إن نقل الى مليكه حقيقة الموقف أن يصيبه بأذى ، واكتفى بالقول أن قومه يقاتلون ببسالة • ثم لاح له أن الموقف لم يعد فى صالح قومه ، وصح ما توقعه ، إذا انتهت المعركة بهزيمتهم هزيمة ساحقة • وعندئذ صاح فى أسى : « يالهيروليا التعسة ، لقد صبت السماء عليك جام غضبها ، وأنزلت بك عقابها ! » • وهنا نظر الملك الى كشافه فى دهشه مستنكرا ما حل بقومه ، وصرخ قائلا : « هل صحيح أن قومى يلوذون بالفرار ؟ » • فرد الكشاف عليه : « أنت أيها الملك الذى نطقت بكلمة الفرار ، وليس أنا » • وهكذا انتصر اللومبارديون بفضل ما أبدوه من بسالة ، وانسحب الهيرولى من أمامهم فارين يجرون أذيال الهزيمة ، تاركين وراءهم العديد من قتلاهم ومن بينهم رودلف (١) •

وإذا كان سبب الحرب بين الشعبين الذى أورده بروكوبيوس أفضل قبولا مما جاء به بولس ، فلعل أهم ما نخرج به من روايتهما أن الهزيمة التى لحقت بالهيرولى ، كانت بمثابة كارثة أليمة أودت بهم ، وأسقطتهم من قائمة الشعوب الجرمانية المستقلة (٢) • إذ على إثرها غادرت فلولهم موطنها على الدانوب ، وظلت هائمة على وجهها بضع

---

(1) Paul., pp. 36-37.

(2) Hodgkin, V, pp. 107-108.

سنوات يجللها العــار بخزيه ، الى أن انطوت أخيرا تحت سيطرت شعب الجيبداى الجرمانى (١) • هذا فى الوقت الذى ارتفع شأن اللومبارديين ، وذاع صيتهم وسط الشعوب الجرمانية ، وبدأوا منــذ ذلك الوقت يلفتون أنظــار الإمبراطورية ، كشعب شديد المراس لابد أن يحسب له حساب خطير (٢) •

حرب اللومبارديين ضــد الجيبداى :

تعرض اللومبارديون عقب الانتصـــار الساحق الذى أحرزوه على الهيرولى لمنازاعات محلية وحروب أهلية ، أدت الى مصرع الملك تاتو على أيدى ابن أختــه واكو Waccho ، مغتصبا العرش لنفسه • وقد حاول هلدكيس Hildechis حفيــد تاتو ووريثــه الشرعى أن يتغلب عــلى واكو ، ولكن محاولته باءت بالفشــل ، إذ منى بهزيمــة فادحة فر على إثرهــا الى بلاط ملك الجيبداى طالبا مساعدته ، بيــد أنه أخفــق فى ســـعيه (٣) •

ومع أن واكو وصـــل الى العرش بطريقة غادرة ، إلا أنه فى الواقع أثبت جدارته فى الحكم • إذ استطاع أن يعيــد الأمور الى نصابهــا ، وينشر الأمن والاستقرار فى أرجاء المملكــة ، التى بلغت خلال عهــده الطويل البالغ ثلاثين ســـنة درجة من القوة والبأس ، جعلت زعماء القبائل الجرمانية فى المناطق المجاورة يخطبون ودهــا ، ويسعون الى التحالف معهــا • وعلى هــذا الأساس تحالف واكو مع كثير من زعماء الجرمان ، وأهم من هــذا أنه ارتبط مع الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥) بعلاقات وطيــدة ، بوصفه حليفا (معاهدا) للامبراطورية البيزنطيــة Foederati (٤) •

---

(1) Villary, II, p. 275.

(2) Dudden, I, p. 85.

(3) Paul., p. 38; Hodgkin, op. cit., V, pp. 117-118.

(4) Hodgkin, V, p. 119; Dudden, I, p. 85.

والحق أن اللومبارديين أثبتوا صدق إخلاصهم لجستنيان بدليل أنهم اشتركوا فى الحروب التى قام بها فى الغرب الأوربى ، بهدف استرجاع ما فقدته الإمبراطورية على أيدى الجرمان • وكانت أولى هذه الحروب ضد الوندال الذين اغتصبوا ولاية أفريقية ، فأنفذ إليهم جستنيان جيشا تحت قيادة بيازاريوس أنهى مهمته بنجاح تام فى سنة ٥٣٣ (١) • وبعد أن فرغ جستنيان من القضاء على الوندال بدأ يوجه عنايته الى إيطاليا التى اغتصبها القوط الشرقيون ،وشادوا بها مملكة مستقرة • وعندما بدأ بليزاريوس يضيق الخناق على ملكهم فيتجيس Vitiges (٥٣٦ ـ ٥٤٠) فى سنة ٥٣٩ ، وكاد أن يلحق به هلاكا محققا ، أخذ الأخير فى البحث عن حلفاء لدفع الأخطار عن مملكته ، فأنفذ سفارة الى واكو يعرض عليه مبالغ ضخمة ، مقابل الدخول معه فى حلف ضد الإمبراطورية البيزنطية ، ولكن واكو الذى كانت تربطه علاقة طيبة بالإمبراطورية آنذاك ، رفض ما عرض عليه (٢) •

وكان أن توفى واكو ، وخلفه على العرش ابنه الطفل والتارى تحت وصاية المحارب أودوين Audoin • ولكن والتارى لم يعش طويلا ، إذ توفى بعد حكم دام حوالى سبع سنوات (٥٤٠ ـــ ٥٤٦) ، كان الوصى خلالها يدبر أمور المملكة • وبموته انتهى حكم بيت ليثنجى العظيم ، الذى استمر فترة تزيد على ستين عاما (٣) ، وهو من البيوت التى تزعم أنها تنحدر من الملكة الحكيمة جامبارا التى قادت قومها من اسكندنياوه منذ عشرة أجيال (٤) • وعلى آية حال ، اختار اللومبارديون أودوين ملكا عليهم • ومما يذكر أن عهده البالغ حوالى عشرين سنة (٥٤٦ ـــ ٥٦٥) ، يعتبر من أبرز عهود مملكة اللومبارديين ،

---

(1) Davis, A Hist. of Medieval Europe, p. 56.

(2) Paul., p. 39 n. 2; Hodgkin, V, pp. 119-120; Dudden, I, pp. 85 - 86.

(3) Hodgkin, V, p. 120; Dudden, op. cit., I, p. 86.

(4) Oman, Dark Ages, p. 182.

ففى المقام الأول أخذت الروابط بينه وبين الإمبراطورية البيزنطية تزداد متـانة وتدعيمـا (١) .

وفى هـذه الأثناء ، شاء سوء حظ الإمبراطورية أن الجيبداى زادوا من ضغطهم على حدودها الشمالية الشرقية . وأهم من هـذا أنهم عادوا لغزو مدينة سيرميوم التى كانت فى حوزتهم ، فاستولوا عليهـا ، كمـا انتزعوا من الإمبراطورية ولاية داكيا(٢) الواقعة جنوبى الراين . ويبدو أن جستنيان كان عاجزا وقتئذ عن القيـام بعمل حربى يدفع به خطر الجيبداى المتزايد . فدفعتـه الحـاجة الى الاستعانة بقـوة حلفائه اللومبارديين الناهضة ، وذلك بدعوتهم للإقامة فى إقليم بانونيا (٣) (وهو يوغوسلافيا الآن تقريبا) الى جوار الجيبداى . والملاحظ أن اللومبارديين لم يتأخروا عن قبول دعوة الإمبراطور ، إذ غادروا سهول هنغاريا الى بانونيا ، وأقاموا فى البلاد المعروفة حاليا بأسم ستيريا وسالزبورج وكارينثيا ، حيث صـار بمقدور صياديهم ومغامريهم ومحاربيهم أن يتسلقوا جبـال الألب المطلة عـلى إيطاليـا (٤) .

ولا شك أن هـذا التصرف من جانب جستنيان كان بعيدا عن الصواب الى حد كبير . ويبـدو أنه كان لا يدرك عواقبه وقتئذ ، وفى غفلة عن الأخطار التى ستعود على الإمبراطورية من ورائه . ذلك أنه لم يكن مـن الحكمـة أن يأتى جستنيان باللومبارديين الأفظـاظ من سـهول هنغاريا البعيـدة ، ويسمح لهم بالإقامة على مقربة من إيطاليـا ، وهو الذى عرف بشـدة حرصه على وحدة الإمبراطورية وتماسكها ، وضحى بالكثير من الأموال والدماء فى حروبه بالغرب الأوربى فى سبيل ذلك .

---

(1) Dudden, op. cit., I, p. 86.

(2) Hodgkin, V, p. 123.

(3) Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire, II, pp. 32-33; Lot, Les Invasions Germaniques, p. 134; Hodgkin, V, p. 124; Dudden, I, p. 86.

(4) Hodgkin, op. cit., V, p. 124.

وربمـا كان يتعين على جستنيان أن يتذكر مـا حدث عندمـا إذن لقائده نارسيس بالاستعانة باللومباردين فى حروبه ضد توتيلا ملك القوط الشرقيين (٥٤١ — ٥٥٢) • فقـد انضم خمســة آلاف محارب لومباردى لجيش هـذا القائد ، لعبوا دورا فعالا فى الانتصــار الساحق الذى حققه فى موقعة تادينوى (تاجنياى) — بالقرب من جوبيو الحاليــة — فى سنة ٥٥٢ ، لدرجة أن القوط الشرقيين لم يستطيعوا الثبــات أمامهم • ومع أن نارسيس قد نجح فى استئصال شأفة القوط الشرقيين ، وعادت إيطاليا الى حظيرة الإمبراطورية ، إلا أن اللومبارديين لم يتوقفـوا عن المجىء الى إيطاليـا ، الأمر الذى استوجب على جستنيان سرعة التخلص منهم دون أن يفطنوا الى ذلك ، فأصـــدر أوامره الى قائده باعادتهم الى بانونيا ، وأوصاه بمرافقتهم خلال عودتهم حتى جبال الألب الجوليانية (١) • ولكن جستنيان فاتــه أن أقدام اللومبارديين قد عرفت الطريق الى إيطاليــا الخصيبة ، واستوعبوا مسالكها وثغرات الضـــعف الكامنة فيهــا ، ولم يشغلهم عن التطلع الى غزوهم وقتئذ إلا حروبهم مع جيرانهم الجيبداى ، التى استغرقت خمسة عشر عاما •

وفى هــذه الأثنــاء ، كانت العلاقات قد تدهورت بين أودوين ملك اللومبارديين وثوريسند Thorisind ملك الجيبداى • وليس ثمة أسباب نعلل بهــا هذا التدهور ، إلا أنهمــا من البرابرة الذين ألفوا حياة القتــال والصدام ، وهـذا فى حد ذاته كان سببا كافيــا لاراقة الدماء بينهمــا • وفضلا عن هــذا ينبغى ألا ننسى أن فلول الهيرولى التى فرت أمام اللومبارديين ، قد لجأت الى الجيبداى ، وأبرمت معهم حلفــا ضــد اللومبارديين • وأخيرا مــا زال هلدكيس صاحب الحق الشرعى فى التاج اللومباردى يشكل خطرا حقيقيا على أودوين ، لا سيمــا أنه بعد أن هام

(1) Dudden, op. cit., I, p. 86; Lot, op. cit., p. 277; Oman, op. cit., p. 182; Universal Hist. of the Warld, 4, p. 2270; Thompson, The Middle Ages, p. 168; Hoyt & Chodorow, Europe in the Middle Ages, p. 76; Barker, Justinian, pp. 305-310.

على وجهه فى بلاد السلاف والقسطنطينية وبلاط توتيلا ملك القوط الشرقيين ، انتهى به المطاف فى قصر ثوريسند (١) كما رأينا .

وعلى أية حال ، تحت تأثير كل هذه الظروف ، وصلت العداوة بين الشعبين اللومباردى والجيبداى فى حوالى سنة ٥٥٠م الى طريق يتعذر العودة منه ، وبات واضحا أن الحرب وشيكة الوقوع بينهما . وهنا نلاحظ أن الشعبين كانا متكافئين فى القوة الحربية الى حد ما ، وان كان الجيبداى يتفرقون فى الكثرة . ولهذا حرص اللومبارديون على تضييق هذا الفارق بالاعتماد على حلفائهم « الرومان » . أما الجيبدى الذين بقوا — على حد زعمهم — حلفاء للامبراطورية أيضا ، رغم عجزها عن كبح جماحهم فى داكيا ، فقد أصروا على أن تمد اليهم الإمبراطورية يد المساعدة ضد اللومبارديين . وأهم من هذا وذاك ، أن كلا من الشعبين أرسل سفارة من قبله الى القسطنطينية لتأكيد مطالبه ، استقبلهما جستنيان كل على حده (٢) . ومما لا شك فيه أن تصرف الشعبين على هذا النحو ، أملاه خوف كل منهما على مصيره . على أن جستنيان فى الواقع لم يكن مهتما بمصير أى منهما على الإطلاق ، ذلك أنهما فى الحقيقة من الشعوب المتبربرة أعداء الإمبراطورية التقليدية . وبعبارة أخرى لم يكن منصالحه العمل على إزالة الخلاف القائم بينهما فحسب ، بل يهمه بالدرجة الأولى القضاء عليهما أو السعى لإضعاف شوكتهما ، وذلك بمساندة أحدهما ضد الآخر ، جريا على سياسة فرق تسد التى سارت عليها الإمبراطورية تجاه البرابرة . وليس أدل على ذلك من أنه اختار الوقوف الى جانب اللومبارديين ، وربما يكون الدافع الى ذلك أنهم أبعد الشعبين عن حدوده ، وأقل خطورة على مصالحه (٣) .

---

(1) Hodgkin, V, p. 122.

(2) Ibid, p. 124.

(3) Paul., pp. 41-42 n. 6.

ولم يلبث جستنيان أن أنفذ قوة قوامها عشرة آلاف فارس لمؤازرة اللومبارديين • بيد أن ظهور مثل هـذه القوة الضخمة أثارت فى الشعبين مخاوفهما القديمة التقليدية من الإمبراطورية البيزنطية ، ومن ثم أعادوا النظر فيما هما مقبلان عليه • ومما يدل على ذلك أن الجيبداى قدموا عرضا للصلح ،جرت موافقة اللومبارديين عليه دون الرجوع الى حليفهم الإمبراطور • حدث ذلك فى الوقت الذى توغلت قوة جستنيان بعيدا ، ووجدت نفسها فجأة وحيدة وسط خضم واسع من البرابرة ، يجعلها فريسة سهلة التناول ، فانسحبت عائدة الى القسطنطينية (١) •

على أنه قبل أن يجف مداد اتفاقية الصلح التى عقدت بين الشعبين تغير الموقف الى معركة عنيفة دارت بينهما فى سنة ٥٥٤ ، انتهت بانتصار اللومبارديين انتصارا ساحقا ،وسقوط العديد من الجيبداى صرعى • ومما يسترعى الانتباه أن الملك أودوين حرص على إبلاغ حليفه جستنيان بما أحرزه من نصر ، فى ذات الوقت لم ينس أن يعيد على مسامعه الجميل الذى طوقه به ، عندما وضع — أى أودوين — تحت تصرفه جيشا ضخما من محاربيه شارك فى معركة تادينوى الحاسمة ضد القوط الشرقيين فى إيطاليا (٢) •

أما الجيبداى ، فقد اضطرتهم الهزيمة الساحقة التى ذاقوها الى طلب الصلح من اللومبارديين ، والدخول معهم فى حلف هزيل شبيه بالتبعية • وقد وعدهم اللومبارديون بتقوية أواصر هذا الحلف ، شريطة أن يسلموهم هلدكيس الذى مازال يمثل خطرا على عرش أودوين • ولكن ثوريسند رأى أولا أن يشاور قومه فى هذا الشأن ، فأجمعوا كلمتهم على الرفض وفقا للتقاليد السائدة بين الجرمان ، لما رأوا فى تسليمه من عار مشين الموت أفضل منه •ولكى يتخلص ثوريسند من هذا الموقف ، بعث برسالة الى جاره القوى أودوين ، أوضح فيها موافقته على تسليم

---

(1) Hadgkin, V, pp. 125-129.

(2) Ibid, p. 133.

هلدكيس ، مقـابل أن يسلمه ــ أى أودوين ــ بدوره أوستريو جوتس منافسه على العرش (١) ، وكـان الأخير قـد لاذ بالفرار الى مملكة اللومبارديين • وكان من البـدهى أن يرفض أودوين إجابة هـذا المطلب ، لنفس السبب الذى من أجـله رفض ثوريسند ، ونتيجة لهـذا تعثرت المفاوضات بين الملكين (٢) • ولا شك أن مـا حدث يرسم لنـا صـورة رائعة عن طبيعة الملكية الجرمانية ، ومدى السـلطة التى كان يمارسهـا ملوك الجرمان فى إطار التقاليد الموروثة •

وفى وسط هـذه الأحداث ، بلغ ألبوين ابن الملك اللومباردى مرحلة الشباب • وقد وصفته الساجة اللومباردية بطول قامة ، وقوة بنيـة ، وشجاعة بالغة تصـل الى حد التهور ، الأمر الذى جعله محور آمـال قومه (٣) • والجدير بالذكر ، أنه خلال المعركة الأخيرة التى دارت بين قومه والجيبداى ، أظهر بسالة منقطعة النظير ، ألقت ضوءا ساطعا على شخصيته • إذ حدث ــ طبقـا لبولس الشماس ــ أن وقف ألبوين وجها لوجه أمام الأمير ثوريزموند ابن ملك الجيبداى ، فاشتبكا فى مبـارزة حامية ، ولكن ألبوين عاجل خصـمه بضربة من سيفه أردته صريعـا ، الأمر الذى غير مجرى المعركـة ، فانتهت بانتصـار اللومبارديين (٤) • وفى الوليمة التى أقامهـا اللومبارديون احتفالا بانتصارهم ، أراد ألبوين أن يأخذ مكانا على المائدة الملكية ، ولكن التقاليد الجرمانية آنذاك كانت تمنع ابن الملك بالجلوس الى جوار أبيـه على مائدة طعام واحدة ، مهما أوتى هـذا الابن من شجاعة ، إلا إذا تلقى أسلحته من ملك آخر (٥) • وكان أن اختار ألبوين أربعين من رفاقه ، وانطلق بعيدا الى ثوريسند ملك

(1) Ibid, p. 133.
(2) Ibid, pp. 133-134.
(3) Dudden, I, p. 87.
(4) Paul., pp. 41-42; Hodgkin, op. cit., V, p. 134; Dudden, op. cit., I, p. 87.
(5) Paul., pp. 42-43.

الجبيداى ، الذى رجب بضيفه قاتل ابنه طبقا للتقاليد الجرمانية ، وفى الوليمة التى أقامها على شرفه ، أجلسه الى يمينه فى نفس المكان الذى كان يشغله ابنه قبل مصرعه • وهنا حانت نظرة من الملك الى هـذا المكان ، فاعتلت وجهه مســحة من الحزن ، وتنهـد قائلا : « كم هو عزيز على هـذا المكان ! » • وقد أثار حزنه مشاعر الحاضرين من الجبيداى ، بصــورة جعلت ابنــه الأصغر يوجه حديثه الى ضيوف أبيــه قائلا فى سخرية لاذعة : « أنتم تشبهون فى هيئتكم ورائحتكم أفراس سهولنا ذات الأرجل البيضــاء » • والواقع أنه كان يقصــد بذلك توجيه إهانة قاســية الى اللومبارديين بالتلميــح الى الأربطـة الكتــانية البيضــاء ، التى جرت عادتهم على تطويق أرجلهم بهــا • ولكن لومبارديا جريئــا لم يصبر على هـذه الإهانة ، وأجاب عليهــا فى التو بقوله : « عليك بالذهاب الى مكان المعركة التى دارت بيننا ، وسوف تعلم مدى قوة رفسات تلك الأفراس ، عندما ترى عظام أخيك أشلاء مبعثرة على الأرض » • وتلا ذلك أن هب ألبوين ورفاقه واقفين ، وأيديهم على قبضات ســيوفهم ، وكادوا أن يشتبكوا فى عراك مع الجبيداى ، لولا أن الملك ثوريسند ، مدفوعا بتقاليد الضــيافة المقدسة ، سارع بالتدخل وهدأ من ثورة الجانبين ، وأخذ يذكرهم بضرورة الحفاظ على الســلام القائم بينهما ، فانصاع الجميع ، وجلسوا معامرة أخرى • ثم أجرى ثوريسند طقوس التقليد الجرمانى المتبع فى هـذه المناسبة ، فقدم أسلحة ولده المقتول هدية الى ألبوين ، فانطلق بهــا عائدا الى وطنــه (١) • هـذا وقد أجمع اللومبارديون على على اختيــار ألبوين الشجاع ملكا عقب وفاة أبيــه أودوين سنة ٥٦٥ • كذلك شهدت هـذه السنة وفاة ثوريسند الجبيدى ، وخلفــه على العرش كونموند ، الذى كان ــ على مــا يبدو ــ شقيقه (٢) •

---

(1) Paul., pp. 44-45; Gibbon, op. cit., II, p. 98; Dudden, op. cit., I, p. 98; Villari, II, pp. 275-276.

(2) Paul., p. 49; Hodgkin, V, p. 137.

ثم كان أن تدهـور الموقف بين اللومبارديين والجيبداى تدهورا واضحا • ذلك أنه فى السـنوات الأخيرة من حكم جستنيان ، اجتـاح الآفار أوربا ، وهم زوبعة بربرية جديدة جاءت من السهول الآسيوية ، نتيجة الاضطربات التى شهدتها أقاليم آسيا الوسطى من جهـة ، وتحت تأثير ضغط قبائل الأويغور التركية من جهـة أخرى • ولم يتوقف الآثار فى زحفهم ، حتى وصلوا غربا الى منطقة الدانوب الأدنى سـنة ٥٥٨ ، وباتوا يشكلون خطرا داهمـا على الإمبراطورية ، أجبر جستنيان على دفع أموال طائلة سنويا لهم (١) •

والواقع أن ظهور الآفار فى منطقة الدانوب الأدنى ، أضاف إليهـا قوة بربرية جديدة ، لعبت دورا خطيرا فى الصراع الدائر بين اللومبارديين والجيبداى • ذلك أن اللومبارديين رأوا فيهـم حليفـا قويا ، يمكنهـم الاستعانة به فى القضـاء على شعب الجيبداى وتدميره تدميرا شاملا • ويظهر ذلك واضحا فى رسالة بعث بهـا ألبوين الى بايان Baian خان الآفار فى سـنة ٥٦٧ ، يدعوه فيهـا الى التحالف معـه ، وعقد اتفاقية بينهمـا ، الغرض منهـا تسديد ضربة قاصمة الجيبداى ، بقوله : « إذا نجحنا سويا فى القضـاء عليهم وإبادتهم ، سيكون لك كل أرضهم ونصف مـا نصيبه من أسلاب ، أمـا إذا عبرنا معـا جبال الألب الى إيطاليا ، وغزونا أراضـيها ، فكل اقليم بانونيا الذى نسكنه الآن سـيكون من نصيبك » (٢) • وممـا يلفت النظر فى هـذه الاتفاقية الفريدة ، ذلك الشرط الذى أضافه ألبوين ، متضمنا حق اللومبارديين فى استرداد بانونيا ، فى حالة فشلهم فى غزو إيطاليا (٣) ، الأمر الذى يؤكد لنـا أن ألبوين كان

---

(1) Lot, op. cit., pp. 277-278; Diehl & Marcais, Histoire du Moyen Age, III, p. 131; Villari, II, p. 276; Ganshof, Le Moyen Age, pp. 7-9, 49.

(2) Paul., p. 50; Hodgkin, V, pp. 137-138; Villari, op. cit., II, pp. 276-277.

(3) Dudden, I, pp. 88-89.

يخطط للغزو ، ولكنــه قبل أن يقدم عليه حرص على أن يؤمن ظهره بسحق الجيبداى واستئصال شأفتهم (١) •

ومن العجيب ، أن بايان خان الآفار أبدى موافقته على الشروط التى تضمنتها هــذه الاتفاقية ، وشرعت جيوشه وجيوش ألبوين فى تطويق الجيبداى من الشرق والغرب • ومــا أن وصلت الأنباء الى كونموند ملك الجيبداى بأن الآفار قاموا باقتحام جبــال الكربات الشرقية ، فى حين عبر اللومبارديون نهرى الدانوب والثيس للإطبــاق عليــه من الغرب ، استصرخ حليفه الإمبراطور البيزنطى جستين الثــانى (٥٦٥ — ٥٧٨) لنجدته ، ولكن الأخير كان مقيدا بالسياسة البيزنطية المألوفة ، الراميــة الى ترك البرابرة يبيد بعضهم بعضــا ، والوقوف منهم موقف المتفرج السلبى (٢) • ومع أن كونموند فقــد الأمل فى وصول نجدة إمبراطورية ، إلا أنه لم يفقد رباطة جأشه فى هــذا الموقف العصيب (٣) • إذ اجتمع بمحاربيه قائلا لهم : « دعونا نحارب اللومبارديين أولا ، فاذا تغلبنــا عليهم ، أمكننــا طرد الهون — أى الآفار — من أرض أجدادنــا » • وسرعان مــا التحم الشــعبان — اللومباردى والجيبداى — فى قتــال عنيف ، انتهى بانتصــار اللومبارديين انتصارا ساحقا • وممــا يذكر ، أنه أثنــاء القتال وقف ألبوين وكونموند وجهــا لوجه فى مبارزة فردية ، سقط فيهــا كونموند صريعــا • وفى سلوك هجمى لا يمت الى الانسانية بصلة ، قطع ألبوين رأس خصمه بيديه ، وصنع من جمجمته كأسا لشرابه (Scala) أحاطه بالذهب ، ثم قــدم إليه مايئــا بالنبيذ أثناء الاحتفالات التى أقامها بمناسبة انتصــاره ، فاحتساه جذلا ! (٤) •

---

(1) Villari, op. cit., II, p. 277.

(2) Hodgkin, V, p. 139.

(3) Hodgkin, V, p. 140; Dudden, op. cit., I, p. 89; Wallace - Hadrill, Italy and the Lombards, pp. 56-57.

(4) Paul., pp. 50-51; Hodgkin, V, p. 139; Gibbon, II, p. 99; Oman, p. 183.

والحق أن الهزيمة القاسية التى ذاقها الجيبداى قد أودت بهم ، وألقت بهم فى ركن النسيان • أمـا البقية الباقية ممن كتبت لهم النجاة ، فقد وقع البعض منهـا تحت وطأة اللومبارديين ، فى حين آثر البعض الآخر البقـاء فى أرضـه خاضعا للأفار الفظـاع (١) • ومن المفارقات العجيبـة أن روزامنـد Rosamund ابنـة كونموند ، وكانت قـد وقعت أسيرة فى أيدى ألبوين قاتل أبيهـا ، أكرهت على الزواج منـه فى احتفالات أقيمت على عجل • هـذا وقد اختارها لبوين زوجـة لـه ، بعد وفاة زوجته الأولى كلوثأسند ، ابنة الملك لوثر الفرنجى (٢) •

وأخيرا نختتم هـذا الموضوع بالإشـارة الى أن الكـارثة التى أنزلهـا ألبوين بالجيبداى أكسبته شهرة واسعة ، جعلت منـه بطلا من أبطـال الأغانى الملحمية ، ونسجت حول شخصيته وشجاعته قصصـا رائعة ، تناقلها المعاصرون • وعلى عهد الإمبراطور شارلمان (ت ٨١٤) ، كان البافاريون والسكسون وقبائل جرمانية أخرى يرددون الأغانى التى تصف ألبوين بالشجاعة والبطولة (٣) • على أن طموح قاهر الجيبداى لم يقف عند هـذا الحد ، بل تجاوزه الى أبعد من ذلك ، الى ضـفاف نهرى البو والتيبر الخصبة ، حيث إيطاليا الرائعة ، ذلك الحلم الجميل الذى طالما داعب مخيلة الشعوب الجرمانية والمتبربرة •

---

(1) Paul., p. 52; Hodgkin, V, p. 140; Dudden, I, p. 140.

(2) Paul., p. 51; Gregory of Tours, The Hist. of the Franks, II, pp. 149-150.

(3) Paul., p. 52; Gibbon, op. cit., II, p. 99

الفصل الثانى

اللومبارديون فى إيطاليا

- غزو إيطاليا .
- مقتل ألبوين .
- فترة الشغور فى الملكية اللومباردية .
- عودة الملكية اللومباردية .
- التحالف البيزنطى الفرنجى .
- أجيلولف .

بالرغم من أن الإمبراطورية الرومانية فى الجزء الغربى من أوربا ، قد لفظت أنفاسها فى القرن الخامس الميلادى (٤٧٦) على أيدى الجرمان ، ولم يعد لوجودها السياسى القديم بقاء ، إلا أن فكرة إحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة ظلت راسخة فى الأذهان طوال العصور الوسطى • بدليل أن الأباطرة الشرقيين (البيزنطيين) اعتبروا أنفسهم امتدادا للأباطرة الرومان السابقين ، وما حدث فى رأيهم سنة ٤٧٦ أنه لم يعد ثمة سوى إمبراطور واحد للإمبراطورية يحكم فى الجزء الشرقى منها • هذا ولم تدم الإمبراطورية الغربية بعد زوالها بعض الأباطرة العظام الذين وضعوا نصب أعينهم العمل على إحيائها • ومن أولئك الأباطرة جستنيان ، الذى بذل قصارى جهده فى سبيل إعادة الإمبراطورية الى سابق العهد بها قوية موحدة ، ولكن الظروف كانت أقوى (١) • فمن أجل تحقيق هذا الغرض خاض عدة حروب فى الغرب ، حيث استطاعت جيوشه بقيادة بليزاريوس القضاء على الوندال نهائيا فى أفريقية سنة ٥٣٣ ، وبفضل قائده نارسيس انهار القوط الشرقيون فى إيطاليا ، ولم تقم لهم قائمة سنة ٥٥٢ ، ولم يكد جستنيان يفرغ من أمر القوط الشرقيين ، حتى وجه جهوده للقضاء على القوط الغربيين فى أسبانيا ، ولكن جيوشه لم تتمكن من الاستيلاء على أسبانيا كلها ، مكتفية سنة ٥٥٤ باقتطاع بعض المدن الهامة فى الجزء الجنوبى الشرقى منها (٢) •

ومما يذكر أن الانتصارات التى أحرزها جستنيان فى الغرب الأوربى ، ألقت على عاتق الإمبراطورية البيزنطية أعباء ، زادت من جسامتها الضرائب الباهظة التى أنهكتها ، وأقفرت خزانتها من المال • ومع ذلك لم يستطع جستنيان أن يتم العمل الذى بدأه ، وهو توحيد

---

(١) محمود الحويرى : رؤية فى سقوط الامبراطورية الرومانية ، ص ١٧٥ •

(٢) سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ ص ٩٨ — ١٠٣ •

الإمبراطورية الرومانية ، وإرجاع البحر المتوسط بحيرة رومانية كما كان من قبل ، فمازالت أجزاء من سواحله فى أيدى مملكة الفرنجة • ومن سوء حظ الإمبراطورية آنذاك أن تعرضت جبهة الدانوب لأخطار جماعات بربرية جديدة ، مثل الجيبداى والآفار واللومبارديين ، فى الوقت الذى اشتد ضغط الفرس على الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية • ونتيجة لذلك صارت الإمبراطورية عاجزة عن القيام بمشاريع حربية أبعد مما قامت به ، مما جعلها تأخذ موقف المدافع عن أراضيها (١) • على أنه إذا كانت مشاريع جستنيان الحربية قد تعرضت للانتقاد لأنه ضحى بكثير من الأموال والأرواح فى حروبه ضد الجرمان بالغرب الأوربى ، وهم الذين باتوا لا يؤذون الإمبراطورية ، باستثناء الوندال ، وأنه كان أحرى به أن يوجه جهوده الحربية ضد الفرس ، حيث كان يكمن الخطر الحقيقى على الإمبراطورية ، إلا أنه لو فعل ذلك ، لأدت سياسته الى تخليه عن تراث الإمبراطورية وروحها (٢) •

والمهم هنا أن القبائل الجرمانية استغلت تدهور أحوال الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة جستنيان ، فاندفعت الى التحرك من جديد على حدود الدانوب • وفى نطاق هذا التحرك ، رأينا كيف أن اللومبارديين والآفار دمروا مملكة الجيبداى ، ومن ثم استولى الآفار على المناطق التى كان يشغلها الجيبداى ، وصاروا جيران اللومبارديين • والواقع أن تدمير الجيبداى لم يجعل اللومبارديين القوة البارزة فى منطقة الدانوب ، إذ استطاع الآفار بما جبلوا عليه من شراسة ووحشية أن يفرضوا إرادتهم على معظم الأنحاء ، هذا فى الوقت الذى عجزت الإمبراطورية البيزنطية عن حماية حدودها ، وأضعف عن كبح جماح زعيمهم بايان ، الذى كان فاتحا آسيويا من طراز آتيلا • فقد أمست أوربا الوسطى

---

(1) Pirenne, Hist. of Europe, pp. 43-44; Cantor, Mediaeval Hist., p. 145.

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ص ٩٩ •

كلهـا فريسة سهلة فى يده وأيدى خلفـائه السلاف ، وامتدت غاراتـه بعيدا الى أطراف دولة الفرنجة فى الغرب الأوربى (١) .

وعندئذ بات اللومبارديون فى خوف من جيرانهم الآفـار ، ورأوا العيش معهم فى وئام أمرا بعيدا المنال . فعلى الرغم من أنهم حرصوا على التقرب إليهم ، والدخول معهم فى تحالف ، إلا أنهم سرعان مـا اكتشفوا أن تلك السياسة لم تجد نفعـا مع شعب قوى يفوقهم وحشية وضراوة . وإذ تعرض استقلال اللومبارديين وأمنهم لتهديد الآفار ، وبلغ بهـم اليأس مبلغه ، رأوا أن الملاذ الوحيد يكمن فى الرحيل عن بانونيا ، وتركها لقمة سائغة للآفار (٢) . ومن الأسباب التى ألحت أيضا على اللومبارديين بالرحيـل ، مـا شهدته مناطقهم من قحط وجفاف ، ومـا تبع ذلك من نقص الأراضى الصـالحة للزراعة والرعى ، فى الوقت الذى لم يتأت لهم الحصول على الزيادة المألوفة فى الأرض (٣) .

وهكذا تطلبت الظروف أن يرحل اللومبارديون عن بانونيا ، بيـد أن ألبوين لم يجهد فكره فى البحث عن مكان ينفع وطنـا لقومه ، وأمامه إيطاليا القريبة منـه . إذ من المعروف أنه أبدى اهتماما جديا بغزوهـا منـذ فترة طويلة ، ولكن حروبه ضـد الجيبداى لم تمكنـه من وضع اهتمامه موضع التنفيذ ، الى أن ظهر الآفـار بقوتهم ، فلم يكن بد من الإقدام على الرحيل الى إيطاليا . والملاحظ أن التدهور السريع الذى أصـاب إيطاليا ، نتيجة للحروب التى شهدتهـا وانتشـار المجاعات والأوبئة ، قد هيأ لألبوين الجو المناسب لغزوهـا . وهنـا نكرر القول أن السياسة الحربية التى انتهجها جستنيان فى الغرب الأوربى ، بغرض

---

(1) Stphenson, Mediaeval Hist., p. 95.

موس : تكوين أوربا ، ص ٢١٣ .

(2) Lot, Les Invasions Germaniques, p. 278; Pirenne, p. 44.

(3) Lot, Pfister, Ganshof, Les Destinées de l'Empire en Occident, p. 211.

إعادة الإمبراطورية الى سابق مجدها ؛ قد عادت على إيطاليا بأوخم العواقب • ذلك أن تدمير قوة القوط الشرقيين واستئصال شأفتهم ، حرم إيطاليا من القوة القادرة على حمايتها ، ولو حدث أن تركوا وشأنهم ، لما ادهم اللومبارديون شمال إيطاليا (١) ، بعد موته بثلاث سنوات •

ومن الطريف أن بولس الشماس يروى أن القائد العظيم نارسيس قاهر القوط الشرقيين ، هو الذى شجع اللومبارديين على غزو إيطاليا • ذلك أن أهالى إيطاليا قد اتهموه بالجشع واغتصاب الأموال لنفسه ، الى حد أنه كدس من الذهب والفضة والتحف الثمينة ما يفوق أية ثروة خاصة • وقد عبروا عن استيائهم من نارسيس فى رسالة بعثوا بها الى الإمبراطور جستين الثانى (٥٦٥ — ٥٦٨) بقولهم : « كان حكم القوط الشرقيين أفضل لنا من حكم الإغريق (البيزنطيين) ، لأن الخصى نارسيس يفرض نفوذه علينا بقسوة وضغط شديدين ، فى حين لا يعلم مولانا الإمبراطور شيئا عن ذلك ، وعلى هذا إما أن يحررنا مولانا من قبضته ، أو أننا سنخون مدينة روما وأنفسنا مع الوثنيين (بقايا القوط الشرقيين) (٢) » ويستطرد بولس قائلا بأن الإمبراطور انزعج لذلك ، فبادر بخلع نارسيس فى سنة ٥٦٧ ، وعين بدلا منه البريتور (نائب الإمبراطور) لونجينوس Longinus (٥٦٥ — ٥٧٨) ، وهو رجل ضعيف يقل مقدرة عن نارسيس • ويقال إن الإمبراطورة صوفيا بعثت الى نارسيس على سبيل السخرية رسالة تضمنت أنه ينبغى عليه التخلى عن قيادة الجيوش ، ويترك للرجال مهمة حمل السلاح وخوض المعارك ، ويرجع الى مكانه اللائق به — بوصفه خصيا — بين وصيفات القصر ، ليمسك مغزلا بدلا من الدفاع عن الإمبراطورية • فرد عليها نارسيس قائلا : « سوف أغزل لك خيوطا

---

(1) Lot, The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Agle, p. 269, 286; Bark, Origins of the Medieval World, p. 25.

(2) Paul the Deacon, pp. 58-59; Gregorovius, Hist. of the City of Rome in the Middle Ages, I, p. 500.

(قيودا) لا تستطيعين حلهـا بسهولة طوال عمرك » (١) • وكان أن انسحب نارسيس الى نابولى ، وصدره يغلى بالانتقام لكرامته السليبة ، ولما قوبل بـه من عقوق ونكران • ومن هنـاك أوفد رسـلا الى اللومبارديين ، لحثهم على مغادرة حقول بانونيا الجرداء وغزو إيطاليـا الخصيبة • وحتى لا يتردد اللومبارديون فى قبول دعوته ، أرسل إليهم عينات من جميع أصناف الفاكهة الإيطالية ، وفى ذلك إشـارة لمـا تتميز بـه إيطاليا من خيرات (٢) •

وقد أخذ المؤرخ ددن برواية بولس ، وعلق عليهـا بقوله بأن خلع نارسيس من منصبه كان خطأ فادحـا من الإمبراطور ، فى وقت باتت الإمبراطورية أشـد مـا تكون حاجـة الى خدماته لحمـاية حدودهـا الشمالية من الغزو واللومباردى ، وكأن عمى قد أصـابه ممـا جعـله لا يقدر الأمور بحكمة ، ولا يدرك عواقبهـا ، إذ لولا ذلك لمـا وجـد اللومبارديون الطريق ممهدا الى إيطاليا (٣) •

والواقع أن ما رواه بولس الشماس عن خيانة نارسيس للامبراطورية البيزنطية ، وأكده ددن وغيره ، ليس إلا ترديدا للأساطير اللومباردية ، لا يتفق مع الواقع التاريخى بأى حال • ذلك نارسيس قد أصـبح آنذاك فوق الثمانين من عمره ، راقدا على فراش المرض فى قصره بنابولى ، وفى شغل شاغل عن التفكير فى استدعاء اللومبارديين لغزو إيطاليا ، فى الوقت الذى كانوا فى غنى عمـا يعرفهم بخصوبة إيطاليـا وثرواتهـا ، وقد خبروها تماما عندمـا استدعاهم جستنيان من قبل فى حروبه ضـد القوط الشرقيين تحت قيـادة نارسيس سنة ٥٥٢ (٤) • وفى أغلب الظن أن ثمـة قائدا

---

(1) Paul., p. 59; Gregorovius, p. 500; Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire, II, p. 100.

(2) Paul., p. 60.

(3) Dudden, Gregory the Great, I, p. 89.

(4) Oman, Dark Ages, p. 184; Barker, Justinian, p. 301.

آخر كان يحمل اسم نارسيس وقت اعتلاء جستين الثانى عرش الإمبراطورية سنة ٥٦٥ •

وعلى أية حال ، ما إن وافت سنة ٥٦٨ . حتى كان البوين قد تجهز للزحف على إيطاليا ولكنه قبل أن يغادر إقليم بانونيا قرر التنازل عنه — كما أسلفنا القول — لحلفائه الآفار ، شريطة أن يعيدوه إليه إذا اقتضت الضرورة عودته من إيطاليا (١) ولا شك أن اتفاقا من هذا النوع مع شعب غادر عنيف بطبيعته مثل الآفار ، كان عديم الجدوى (٢) • وفى ٢ أبريل سنة ٥٦٨ ، انطلقت جموع اللومبارديين الى إيطاليا بقيادة ألبوين ، رجالا ونساء وأطفالا ، ومعهم عبيدهم وماشيتهم وعرباتهم (٣) • ومن سوء حظ إيطاليا آنذاك ، أن يضم جيش ألبوين عدة عناصر من شعوب بربرية مختلفة الطباع والنزعات ، وميالة بفطرتها الى إحداث الفتن والفوضى ، ولا يتورع زعماؤها عن إطلاق العنان لها بارتكاب الأفعال الهمجية ، وأعمال النهب والسلب • إذ كان هناك عشرون ألف سكسونى تصحبهم زوجاتهم وأطفالهم ، انطلقوا فى صورة هجرة عامة ، وبقايا الجيبداى ، والبلغاريين ، والبافاريين ، والسامارتيين ، والسويفى ، وقبائل أخرى من نوريكوم وبانونيا (٤) •

ومن الملاحظ أن غالبية هذه القبائل كانت مسيحية على المذهب الآريوسى المناهض للمذهب الكاثوليكى ، أما البقية الباقية منها فقد احتفظت بوثنتيها • وثمة اختلاف حول أعداد المحاربين الذين انطلقوا بزعامة ألبوين ، حيث قدرهم المؤرخون بين عشرين ألفا ومائة وعشرين

---

(1) Paul., p. 62.

(2) Oman, op. cit., p. 184.

(3) Paul., p. 62; Gregory of Tours, Hist. of the Franks, I, pp. 179-180.

(4) Paul., p. 80; Hodgkin, Italy and her Invaders, V, p. 156; Dudden, I, p. 89.

ألفا ، بيد أنه إذا كان عدد المحاربين السكسون قد بلغ عشرين ألفا ، فمن المستبعد مطلقا أن تقف جموع المحاربين عند الحد الأدنى في تقدير المؤرخين ولا تتجاوزه ، وفى الغالب الأعم أن ألبوين كان يضم تحت تحت قيادته عددا من المحاربين يتراوح بين ستين ألفا وسبعين ألفا ، وهو عدد ضخم حتى لو وضعنا فى الاعتبار حجم الخسائر المتوقعة خلال الغزو من ناحية ، وضرورة وضع حاميات فى المدن التى ستقع فى يد ألبوين من ناحية أخرى (١) •

على أن ألبوين لم يسلك الطريق الذى سلكه ألاريك ملك القوط سنة ٤١٠ م الى ايطاليا ، إذ اقتحمها من أضعف نقطة بها وهى الجهة الشمالية الشرقية • وكان أن اجتاز جبال الألب الجوليانية عبر ممر بريديل ، ثم واصل زحفه عبر التلال الى أن ظهرت ايطاليا لأمامه • ولما هبط بجموعه سهول البندقية لم يصادف أية مقاومة ، ووجد فى انتظاره على ضفاف نهر بيافى Piave فيلكس أسقف تارفسيوم (تريفيسو) ، الذى توسل اليه ألا يمس كنيسته بأذى ، فأجابه الى طلبه ، وأصدر براءة تتضمن حماية الكنيسة وامتيازاتها (٢) ثم واصل ألبوين تقدمه ، فاستولى على فيشنزا Vicenza وفيرونا ، وبذلك انعزلت منطقة الحدود فى جنوب التيرول عن رافنا • واحتفظت القوات الامبراطورية بمدن بادوا التى تحيط بها المستنقعات ، ومونسليتشى Monselice ، ومانتوا • أما أكويليا فقد فر أهلها وأسقفها — حاملا معه كنوز الكنيسة — طلبا للنجاة ، الى المأوى الطبيعى الذى هيأته لهم مستنقعات جرادو فى دلتا نهر إيزونتسو Isonzo ، تاركين المدينة نهبا لمصيرها المحتوم (٣) •

---

(1) Villari, The Barbarian Invasions of Italy, II, p. 279.

(2) Paul., p. 68.

(3) Hodgkin, V, pp. 158-160; Dudden, op. cit., I, pp. 89-92; Lot, Pfister & Ganshof, p. 211; Gibbon, II, p. 100.

وقبل أن يغادر ألبوين البندقية ، خشى أن تتعقبه قبائل الآفار أو أى قبائل مغامرة أخرى ، فتحرمه من ثمرة انتصاراته • ولهـذا استقر رأيه على تأسيس دوقية فريولى ، حيث عهد بهـا الى ابن أختـه جراسولف Grasulf قائد الفرسان ، واختار له جماعة من المحاربين اللومبارديين انتقاهم بعناية من أولئك الذين تجرى فى عروقهم أنبل الدماء ، وأمره بحراسة التلال الشرقية التى اجتاحها بجموعه دون أية صعوبة تذكر ، بالاضـافة الى صـد أية محاولة يراد بهـا غزو ايطاليا ، والحفـاظ على البندقية (١) وعلى هـذا الأساس ، ضمن ألبوين السيطرة على مركز استراتيجى هام ، يعتبر من الناحية العملية أحد بوابات إيطاليا ، فى الوقت الذى حرص على تغطية انسحابه فى حالة الضرورة • والحق أن ألبوين حالفه التوفيق فى ايطاليا ، ذلك أن الفرنجة فى الغال (فرنسـا) كانوا منهمكين آنذاك فى منازعاتهم وحروبهم الأهلية ، فى حين عجز البيزنطيون ، بسبب النقص فى الرجال والأموال ، عن إبداء مقاومة فعالة من شأنهـا ايقـاف عمليات الغزو (٢) •

واصل ألبوين زحفه على المدن الإيطالية فى سهل البو ، فاجتـاح فى العـام التالى (٥٦٩) ولاية ليجوريا ، ولم يكـد يصل الى مدينة ميلان التى كانت مقرا لبعض أباطرة الرومان فى العهود الماضـية ، حتى لاذ رئيس أساقفتها بالفرار الى جنوة ، تاركا المدينة تفتح أبوابهـا للغـازى فى ٣ سبتمبر من نفس العـام (٣) • ولم تلبث ولاية الألب الكوتية الممتدة من جنوب ليجوريا حتى البحر التيرانى ، أن حذت حذو ميلان (٤) ولم تستعص عليه غير مدينة تيكينوم Ticinum (بافيا) •

---

(1) Paul., pp. 65 - 66; Dudden, op. cit., I, pp. 92-94.

(2) Villari, II, pp. 279-280.

(3) Paul., p. 79; Hodgkin, V, p. 162; Dudden, I, pp. 94-95.

(4) Lot, Les Invasions., p. 278.

والواقع أن بافيا الواقعة فى الزاوية المحصورة بين نهرى تيتشينو والبو ، كانت المدينة الوحيدة فى الشمال الايطالى التى قاومت الغزو اللومباردى ، بسبب حصانتها ومناعة أسوارها ، كذلك يبدو أن حامية بيزنطية ضخمة كانت بداخلها آنذاك (١) وكان أهالى المدينة قد أغلقوا أبوابها فى وجه ألبوين ، فحاصرها ، ولكنها قاومت بصلابة لم يعهدها ألبوين ، وهو المعروف بسرعة الملل ، فثارت ثائرته ، وأقسم أنه سيفتك بأهلها وحاميتها حالما تسقط فى يده • على أنه بعد حصار طويل دام ثلاث سنوات (٥٦٩ — ٥٧٢) توصل فى النهاية الى الاستيلاء على المدينة • إذ انهارت شجاعة الحامية ، وفقد الأهالى القدرة على الصمود ، وانتشرت المجاعات والأوبئة بينهم ، الأمر الذى دفع الجميع بعد أن استبد بهم اليأس الى أن يفتحوا أبواب المدينة للغزاة ، بغض النظر عن المصير الذى ينتظرهم • ومن حسن حظ المدينة أن ألبوين لم يبر بقسمه ، فعفا عن سكانها بحجة أنهم مسيحيون ، وكان أن هرعوا الى القصر الذى يقيم به ألبوين ، معبرين عن فرحتهم وسعادتهم ، فالحياة غالية ولو كانت تحت وطأة بربرى عنيف (٢) • وبسقوط بافيا فقدت الامبراطورية البيزنطية الإقليم الذى عرفت سهوله منذ ذلك الحين الى وقتنا الحاضر بلومبارديا • ويعتبر سقوط هذه المدينة التاريخ الحقيقى لبداية حكم ألبوين فى ايطاليا خاصة بعد أن اختارها عاصمة لمملكته الجديدة ، واتخذ لنفسه لقب « سيد ايطاليا » Lord of Italy (٣) •

ومما يذكر أن ألبوين لم يتوقف عن مواصلة الغزو خلال حصار بافيا • اذ عهد لبعض ضباطه المخلصين باحكام حصارها ومراقبة مداخلها ومخارجها ، وأخذ ينتشر بقواته فى شمال ايطاليا ووسطها ، الى أن فرغ من اخضاع وادى البو كله لسيطرته فى سنة ٥٧٠ ، دون أن يواجه

(1) Dudden, I, p. 95.

(2) Paul., pp. 80-81; Hodgkin, V, pp. 163-164; Oman, op. cit., p. 185.

(3) Hodgkin, op. cit., V, pp. 161-162.

أى مقاومة من الأهالى أو الحاميات البيزنطية • وفى العـام التـالى عبر بجيوشه جبال الابنين ، حيث أمكنه الاستيلاء على توسكانى وأمبريا ، وبعد هذا لم يحرز أى تقدم • وفى نفس العـام أيضـا اندفع نبيلان لومبارديان جنوبا ، وهما فاروالد Farwald وزوتو Zoıto فاستطاع الأول إخضاع ولاية سبوليتو وبذلك قطع خطوط المواصلات بين روما ورافنا ، فى حين استولى الآخر على ولاية بنفنتوم فى جنوب أيطاليا ، ولكنهما استقلا بهاتين الولاتيين ، وجعلا منهمـا دوقيتين قويتين ، صارتا شوكة فى حلق الملوك اللومبارديين فيمـا بعد (١) • كذلك استولى اللومبارديون على بولونا وإيمولا ، أمـا القلعـة المنيعـة التى كانت تحرس ممر فورلو Furlo Pass ، فقد جرى هدمها وتسويتها بالأرض ، خشية أن تقع مرة أخرى فى أيدى البيزنطيين ، ويتحكمون فى خطوط المواصلات بين شمال ايطاليا وجنوبهـا (٢) •

وعلى الرغم من أن القوات الامبراطورية عجزت عن الوقوف فى وجه الغزو اللومباردى ، مكتفية بالبقـاء داخل أسوار المدن المنيعة ، فالواقع أن الامبراطورية البيزنطية لم تفقد نفوذهـا تماما فى ايطاليا ، وبعبارة أخرى ظلت محتفظة ببعض المدن الرئيسية : فى الشمال مدن بادوا ، ومانتوا ، وكريمونا ، وجنوه ، ورافنا ، واقليم بنتابوليس بمدنه الخمسة على الساحل الغربى ، وفى الوسط مدن بيروجيا ، وروما والمنطقة المحيطة بها ، وفى الجنوب نابولى ، وسالرنو ، وبايستوم Paestum ، وكالابريا ، وبروتيوم (٣) •

---

(1) Hodgkin, V, p. 164; Dudden, I, p. 95; Lot, Les Invasions., p. 274; Deanesly, A Hist. of Early Medieval Europe, p. 284.

(2) Hodykin, V, pp. 164-165; Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 211.

(3) Hodgkin, V, pp. 165-166; Dudden, I, pp. 95-96; Lot, Pfister & Ganshof, p. 211; Pirenne, p. 43.

موس : المرجع السابق ، ص ٢١٣ •

ومن العرض السابق ، يتضح لنـا أن معظم شمال ايطاليا قـد عجز عن الصمود فى وجه ألبوين ، فتهاوت مدنه الواحدة بعد الأخرى فى يده ، دون أية مقاومة تذكر من جانب الأهالى أو الحاميات البيزنطية ، باستثناء مدينة بافيا التى صمدت لحصـار طويل ، ثم سقطت فى النهاية كمـا رأينـا • وعلى أية حال ، كان ألبوين أسعد حظا من سابقيه ألاريك ملك القوط الغربيين الذى اقتحم رومـا سـنة ٤١٠ ، وآتيـلا زعيم الهون الذى غزا إيطاليا ووصـل الى أسوار روما سـنة ٤٥٢ ، إذ لم يعترض طريقه قواد عظام على شاكلة ستليكو وأئتيوس ، ممن اعتمدت عليهم الامبراطورية الرومانية فى حماية حدودها ودرء أعدائهـا البرابرة • ولو كان القـائد الفذ بليزاريوس على قيـد الحياة ، أو لو لم يتقاعد نارسيس مريضـا فى ممتلكاته الخاصة ، لتغيرت أحوال ايطاليـا الدفاعية تغييرا جذريا • وعلى هـذا خلت ايطاليا من حماتهـا ، اللهم إلا النائب الامبراطورى لونجينوس الذى بلغ من الضعف حدا جعله ينزوى وسط أخراش رافنا ، دون أن يحرك ساكنا • أضف الى ذلك أن الحروب التى شهدتها ايطاليا فى السنوات الأخيرة ، أو بالأحرى قبيل الغزو اللومباردى قـد جنت عليهـا جناية ضخمة ، إذ خلفت وراءهـا الشقاء والجوع والأوبئة والطواعين ، وسلبت السكان حيويتهم ، حتى صاروا كأشباح هزيلة غارقة فى سبات عميق ، وأصبحت المدن شـبه خاوية ، أمـا الريف فقـد هجره معظم أهله الى نواح يتوافر بهـا الأمن والطمأنينة ، حتى لم يبق به إلا كلاب ضـالة جائعة • وكان أن دهم اللومبارديون ايطاليا ، فزادوها شقاء على شقاء ، وبدت الأمور وكأنمـا قد انتهى كل شىء • والخلاصة أنه خيم على البلاد سكون أبدى رهيب ، فلم يعد ثمـة صوت يجوب فى أزقاتها وطرقاتها ، وسكتت أناشيد الرعاة ، وحلت محلهـا أصوات طبول الغزاة آتية من بعيد ، ناشرة الرعب والفزع بين الأهالى (١)•

---

(1) Dudden, I, p. 94; Wallace - Hadrill, Italy and the Lombards, p. 57.

وأخيرا ينبغى ألا ننسى أن اللومبارديين دخلوا إيطاليـا بوصفهم أعداء علنيين وفاتحين ، عـلى عكس القوط الشرقيين الذين دخلوهـا بزعامة ثيودريك العظيم (٤٨٩ ــ ٥٢٦) بوصفهم أصدقاء ، أى حلفـاء (معاهدين) Foederati للامبراطورية • ولهـذا لم يغب عن بال بيزنطة أن اللومبارديين قد اغتصبوا إيطاليـا ، وظل أباطرتها على مدى قرنين من الزمان يسعون بطرق شتى لاقتلاعهم من أرضهـا ، الأمر الذى ترتب عليه أن عاش اللومبارديون فى قلق وخوف ، وباتوا يكرهون بيزنطة كراهية مقيتـة (١) •

مقتـل ألبـوين •

لم يهنـأ ألبوين بالانتصـارات التى أحرزها بايطاليا فى زمن وجيز ، إذ شاءت الأقدار أن تكتب لـه نهـاية حزينة ، فلم يمت فى معركة ، أو نتيجة لإصـابة قاتلة ، بل مات على أيدى زوجته روزاموند • وقصـة موت ألبوين أو نهـايته الدرامية الأليمة ، عاشت فترة طويلة فى أغانى السكسون الملحمية ، ورددها المغنون البافاريون ، ومازالت ذكراهمـا باقية الى الى وقتنـا الحاضر (٢) ، شاهدة على إحدى صـور الغدر والقسـوة التى حفلت بهـا الملاحم الجرمانية •

وتروى الساجة اللومباردية أن ألبوين فى أحد الأيام الأخيرة من

---

(1) Wallace-Hadrill, op. cit., p. 57.

(2) Dudden, op. cit., I, pp. 95-96.

ويرى جريجورى التورى ان روزاموند كانت تكره البون قاتل ابيها ، وظلت تتحين فرصة للانتقام منه . وكان أن تآمرت مع خادم لها ، وضـع السم لسيده ، مما أدى الى موته . وقد حاولت الملكة الفرار مع خادمها . ولكنهما فشلا فى محاولتهما ، اذ ألقى القبض عليهما وجرى قتلهما . وقـد أخذ طومسون بهذه الرواية ، انظر :

Gregory of Tours, The Hist. of the Franks, II, p. 149; Thompson, The Middle Ages, I, p. 168.

شهر مايو سنة ٥٧٢ ، كان يجلس مع رفاقه من كبار النبــلاء فى قصره بفيرونا ، يشربون ويستمتعون بأطايب الطعام • ودار الحديث بينهم حول الشجاعة التى أبدوهــا خلال غزوهم لإيطاليــا • ولمــا فرغ الرفاق من حديثهم ، وجــاء دور الملك ، أخــذ يحكى لهم كيف قهر كونموند ملك الجيبداى ، وأراداه قتيلا بسيفه ، ثم شكل من جمجمته كأسا لشرابه • وهنــا التفت ألبوين الى ساقيه ، وأمره فى مرح صاخب أن يأتيه بهــذا الكأس ، وبعد أن ملأه بالنبيذ أمر زوجتــه فى سخرية لاذعة أن تشربه كله ، فامتثلت مكرهة ، وحتى لا تبدى ضيقها افتعلت ابتســامة على وجهها ، وإن كانت فى داخلهــا قد أضمرت الانتقام لكرامتها الجريحة بقتل ألبوين ، الذى لم يكفه أنه سحق قومها ، ومثل بأبيها ، وأجبرهــا على الزواج منــه (١) • وبداءة اتصلت الملكة بهلمكيس Helmechis حامل سلاح الملك وأخوه بالرضاعة (أو بالتربية) ، وأخذت تحرضه عــلى الاشتراك معهــا فى التخلص من ألبوين ، وخشــية أن يتراجع وعدتــه بالزواج منهــا وتقديم عرش المملكة اليــه • ولمــا كان العرض مغريا وافق هلمكيس ، ولكنــه أبى يلطخ يده بدم أخيــه (الملك) ، وأشــار عليهــا أن تضم اليهــا بيريديو Peredeo أقوى أبطــال اللومبارديين صاحب القوة الجسمانية الخــارقة ، ليقوم بهــذا العمل • وكان أن وصل بهــا التفكير فى الوسيلة التى تورط بيريديو فى المؤامرة بأن أغرته بجمالها ، وباعت شرفهــا له • وعندئذ خيرته بين أمرين ، إمــا أن يقوم بقتل الملك ، وإمــا أن يقتله الملك بعد أن دنس شرفه ، فاختار بيريديو البقــاء حيا (٢) • ولم تلبث المؤامرة البشــعة أن صارت موضع التنفيذ • إذ كان من عادة ألبوين التوجه الى مخدعه وقت الظهيرة ، لينــال قسطا من الراحة والنوم ، فاستغلت الملكة فرصــة هدوء القصر فى هــذه الآونة

---

(1) Paul the Deacon, pp. 81-82; Hodgkin, op. cit., V, pp. 168-169; Gibbon, II, p. 101; Oman, op. cit., p. 185; Villari, II, p. 282.

(2) Paul., p. 82; Dudden, I, p. 96.

موعدا لتنفيذ المؤامرة ، وأخلت جناح الملك من الحراس والخدم . أمـا سيف زوجهـا الذى اعتاد الحاجب أن يعلقه فوق فراش الملك ، فقـد حرصت روزاموند هـذه المرة على ربطـه باحكام بطريقة تعوق انتزاعه من غمده . ويبـدو أن ألبوين بعد أن استرخى فى فراشه ، أحس بحركة غير عادية فى جناحه ، فقفز من فوق سريره ، وأسرع الى تناول سيفه ؛ ولكنـه لم يستطع أن يخرجه من قرابه : وفى هـذه اللحظـة فاجأه الحاجب القوى بضربات من سيفه أردته قتيلا ، بعد أن دافع عن نفسه بشجاعة (١) . وهكذا انتهت حياة ألبوين كمـا رواهـا بولس الشماس ، فمـات ميتة غادرة . أمـا روزاموند فقد هدأ بالهـا ، بعد أن انتقمت لقومها وأبيها ، وردت الإهانة التى ذلت كبرياءها أمام كبار النبلاء .

ولا شك أن مصرع ألبوين بهـذه الصورة المروعة قـد أثر تأثيرا بالغـا فى قلوب الزعماء والمحاربين اللومبارديين . فحملوا جثمانه باجلال وحزن عميقين ، وقاموا بدفنـه أسفل درجات سلم القصر ، ويروى بولس الشماس أن جيزلبرت دوق فيرونا فى القرن الثامن ارتكب عمـلا أحمق ، عندما فتح القبر ، وأخرج منـه سيف ألبوين وذخائره ، وأخذ يتباهى جذلا بأنه « رأى ألبوين ! » (٢) .

وعلى أية حال ، انهارت الآمال التى بناها المتآمرون . إذ ارتفعت صيحات الغضب عاليـة فى المملكة اللومباردية ، منددة بهـذه الجريمة الشنعاء ، ومطالبة بالثأر من مرتكبيها . وهنـا أحس هلمكيس وروزاموند أن أصابع الاتهـام أخذت تشير اليهمـا ، وخوفا على حياتهما اتصـلا سرا بالنائب الامبراطورى لونجينوس فى رافنا ، يلتمسان اللجوء اليه ، فوافق مرحبا ، ورتب أمر فرارهما على احدى السفن البيزنطية عبر نهر

---

(1) Paul., pp. 82-83; Hodgkin, V, pp. 169-171; Villari, op. cit., II, pp. 282-283.

(2) Paul., p. 83; Dudden, I, p. 97; Oman, op. cit., p. 186.

البو ، حيث استقلاها تحت جنح الظلام حاملين معهمـا الكنوز الذهبية ، كمـا أخذت روزاموند طفلتها ألبسويندا من ألبوين معها (١) •

وفى رافنا عقد روزاموند وهلمكيس قرانهمـا ، ولكن حدث مـا لم يكن متوقعا • وفى هـذا الصدد يشـير بولس الى أن الملكة الفاتنة وكنوزها راقتا فى عينى لونجينوس ، الذى عرض عليهـا ان تتلخص منزوجهـا لتصبح زوجة له وبالتالى تحمل لقب « سيدة رافنا » • ويبدو أن دمـاء الغـدر كانت تجرى فى عروق روزاموند ، بدليل أنهـا انساقت لرغبـة لونجينوس • وكان أن انتهزت فرصة انتهـاء زوجها من حمامه الرومانى • وقدمت اليه السم فى كأس شراب منعش • ولمـا فرغ هلمكيس من احتساء نصفه ، أحس بمـا دبرته زوجته ، وفى التو أمسك بسيفه ، ووجه سنه الى صدرهـا ، ثم أمرها أن تشرب بقيـة الكأس ، والا عاجلها بضربة قاتلة ، وفى كلتا الحالتين كان الموت فى انتظارها ، فشربت الكأس (٢) • وهكذا مات الخائنان معا ، ووصلت المأساة التى بدأت فصولها فى فيرونا الى خاتمتها فى رافنا • أمـا الطفلة البسويندا ، فقد أرسلها لونجينوس الى القسطنطينية ، ومعهـا كنوز أمها وذخائرها •

أمـا ثالث المتآمرين وهو بيريديو الحاجب ، فقـد أشار بولس الشماس الى أنـه أتى الى رافنا فى صحبة هلمكيس وروزاموند • وبعد موتهمـا أرسـله لونجينوس مع الطفـلة ألبسويندا الى القسطنطينية • وهناك أظهر قوته الخارقة بقتل أسد ضـار فى جلبة المصارعين Hippodrome مما جعل الامبراطور البيزنطى يتوجس خيفة من قوته ، فأمر بسـمل عينيه • ولكن « شمشون القرن السادس » عول على الانتقام ، فأخفى سكينين حادين فى طيات ثوبه ، وأبدى رغبتـه فى مقابلة الامبراطور ،

---

(1) Paul., p. 84; Hodgkin, V, pp. 171-172; Gibbon, op. cit., II, pp. 101-102.

(2) Paul., pp. 84-85; Hodfikin, V, p. 172; Dudden, I, p. 97.

متذرعا بأن لديه سرا لا يبوح به لغيره • على أن الامبراطور أفلت من محاولة اغتياله ، إذ عهد لاثنين من مستشاريه المقربين بالوقوف على هذا السر • فلما اقترب بيريديو منهما أخرج فجأة السكينين ، وعاجلهما بطعنتين نافذتين أودت بحياتهما (١) •

ونستخلص من هذا الرواية الأسطورية أن بولس الشماس — على ما يبدو — قد خلط بين المصادر التى استقى منها معلوماته • إذ لو أغفلنا الجانب الأسطورى منها ، لوجدنا — كما أجمعت المصادر المعاصرة — أن ألبوين قد لقى حتفه على أيدى أتباعه بقصره فى فيرونا ، بعلم زوجته وموافقتها ، هذا فى الوقت الذى أغفلت المصادر حقيقة الدور الذى لعبه بيريديو فى التآمر على قتل سيده (٢) • ويرى المؤرخ رنكه Ranke أن رواية بولس تدل على أن نزاعا خطيرا احتدم فى صفوف اللومبارديين ، جعلهم ينقسمون الى حزبين ، أحدهما كان فى جانب البيزنطيين ويعمل لمصلحتهم ، والآخر كان وطنيا لا يؤيد هذا الاتجاه ، وهو الذى أعلن سخطه على مقتل ألبوين ، ونجح فى احباط مشاريع روزاموند وخططها (٣) •

ومهما يكن من أمر ، فقد اجتمع المحاربون اللومبارديون فى عاصمتهم بافيا ، لاختيار خليفة لألبوين ، الذى لم يترك وراءه ولدا ، فوقع اختيارهم على كيف Cleph دوق برجامو ، وهو من أصل نبيل ومن أقوى دوقات المملكة (٤) • ومن الملاحظ أنه أساء التصرف فى شئون الحكم ، إذ عمد الى سفك دماء العديد من نبلاء الرومان ، وقام بنفى بعضهم الى خارج ايطاليا(٥) • وعلى حين أنه استكمل غزو الشمال الايطالى حتى الأطراف الجنوبية

(1) Paul., pp. 85-86; Dudden, I, pp. 181-182; Gibbon; II, p. 102.

(2) Paul., pp.82-83, n. 1.

(3) Villari, II, p. 283.

(4) Paul., p. 86.

(5) Ibid.

لتوسكانى ، بيد أنه لم ينعم بالحكم طويلا ، إذ لقى حتفه على أيدى أحد خدمه فى حوالى منتصف سنة ٥٧٤ ، كان قد أساء إليه وألحق به ظلما(١) .

فترة الشغور (٥٧٤ ـ ٥٨٤) :

عقب مقتل كليف ، اجتمع الزعماء اللومبارديون فى بافيا ، وهم الذين يعرفون فى التاريخ بأسم « الدوقات اللومبارديين » Lombard Dukes لاختيار شخصية من بينهم تتولى العرش ، أو تقوم بالوصاية على القاصر أو ثارى (٢) . وفى هذا الاجتماع تفاقمت حدة الخلاف بين الدوقات ، وانفضوا دون الوصول الى اتفاق . والمهم أنهم لم يعملوا على نبذ خلافاتهم وجمع كلمتهم باختيار ملك طيلة عشر سنوات (٥٧٤ـ٥٨٤) ، وهى فترة عرفت فى تاريخهم بفترة انقطاع الملكية أو « فترة الشغور » .

والمعروف أن هؤلاء الدوقات خلال المراحل الأولى من الغزو ، وضعوا أيديهم على الأقاليم التى انتزعوها من الامبراطورية البيزنطية ، واستقلوا بها عن السلطة المركزية فى بافيا ، وهو وضع شاذ لا نجد له نظيرا فى الممالك الجرمانية الأخرى ، وعلى سبيل المثال مملكة القوط الغربيين فى أسبانيا ، أو مملكة الفرنجة فى الغال (٣) . ويكشف لنا تاريخهم وقتئذ أن نفوذهم قد تراوح بين القوة والضعف ، فمن بين الدوقات الخمسة والثلاثين الذين اقتسموا السيادة على المناطق اللومباردية ، برز عدد ضئيل وهم : والارى دوق برجامو ، وألكيس Alichis دوق بريسيكيا ، وإيون Euin دوق ترنت ، وجيزولف دوق فريولى ، وفروالد دوق سبوليتو ، وزوتو دوق بنفنتوم ، ويأتى زابان فى مقدمتهم جميعا ، بوصفه دوق بافيا عاصمة المملكة اللومباردية (٤) .

---

(1) Hodgkin, V, pp. 181-182; Gibbon, II, p. 102; Oman, op. cit., p. 186.

(2) Paul., p. 86; Hodgkin, V, p. 182; Dudden, I, p. 158.

(3) Hodgkin, V, p. 185.

(4) Paul., pp. 86-87; Hodgkin, V, pp. 185-186; Dudden, I, p. 158.

ولعل فى احتفاظ الدوقات اللومبارديين بالسلطة فى أيديهم ، وبقاء عرش مملكتهم شاغرا طيلة عشر سنوات ، وما نجم عن ذلك من فوضى وبعثرة للجهود ، كان فرصة مواتية فى يد بيزنطة للاطاحة باللومبارديين ، كما فعلت من قبل مع البرابرة الذين تعاقبوا على ايطاليا ، ولكن أحوالها المنهارة آنذاك وقفت حائلا دون ذلك ، الأمر الذى جعل اللومبارديين قادرين على الوقوف ضد القوات الامبراطورية الضعيفة فى ايطاليا من ناحية ، والاحتفاظ بالأقاليم التى صارت فى حوزتهم من ناحية أخرى (١) •

على أن اللومبارديين من جانبهم أضاعوا فرصا ثمينة ، إذ لو أنهم عملوا على طرح منازعاتهم بعيدا ، وحصروا اهتمامهم فى توحيد قواهم وتماسكهم ، لاستطاعوا بقليل من الجهد اتمام غزو شبه الجزيرة كلها • وليس أدل على ذلك من أن فروالد دوق سبوليتو استطاع الاستيلاء فى سنة ٥٧٩ على ميناء كلاسيس الواقع على البحر الأدرياتى على مسافة ثلاثة أميال من روما ، وبعد أن جرده من كنوزه ترك بـه حامية لومباردية ، حدث هـذا فى الوقت الذى لم يتحرك النائب الامبراطورى لونجينوس ، فيما عدا أنه تأهب للدفاع عن رافنا (٢) • ومن جهة أخرى ، عزل الدوقات اللومبارديون أنفسهم داخل دوقياتهم الصغيرة خلال فترة الشغور ، وراحوا يشنون حروبا هزيلة ضد بعضهم البعض من ناحية ، وضد جيرانهم البيزنطيين من ناحية أخرى • وبذلك أضاعوا فرصة تأسيس مملكة موحدة قوية •

وفى وسط الفوضى التى عاشها اللومبارديون ، انغمس دوقاتهم فى القيام بسلسلة من الحملات الفاشلة ضد جيرانهم الفرنجة فى جنوب الغال • ولا يخفى أن هـذه السياسة قد أملاها الطيش والاندفاع ، إذ

---

(1) Lot, Les Invasions., pp. 278-279.

(2) Paul., pp. 111-112; Dudden, I, p. 159.

لم يكن ثمـة داع لإثارة غضب جار قوى كان بوسعه أن يطارد هؤلاء الدوقات فى عقر دارهم جنوبى الألب ، ويستولى على مـا تحت أيديهم من أقاليم ، كان واجبهم آنذاك أن يعملوا على تثبيتها ، ولكن شـاء حظهم السعيد أن الفرنجة كانوا منشغلين بأمورهم الداخلية (١) • وكان الدوقات اللومبارديون فى أعقـاب غزوهم ايطاليا بين سنتى ٥٦٩ و ٥٧١ ، قد اجتازوا جبال الألب ، وأغاروا على بورجنديا التابعة للفرنجة فى المنطقة الواقعـة بين الرون وجبال الألب ، حيث قتلوا العديد من الأهالى بما فيهم القائد أمـاتوس ، ثم رجعوا مثقلين بالغنائم (٢) • ولكنهم عندما عاودوا الاغارة على بورجنديا فى العـام التالى (٥٧٢) لم يكن الأمر سهلا كمـا ظنوا هـذه المرة ، إذ حل القائد العظيم مامولوس Mammolus محل أماتوس • ولمـا التقى بهم بالقرب من مدينة إمبرون Embrun ، أنزل بهم هزيمـة ساحقة ، أسفرت عن سقوط العديد منهم قتلى ، وعودة فلولهم تجـر آذيـال الهـوان (٣) •

ورغم الهزيمة التى لحقت بالدوقات اللومبارديين ، إلا أنه فى بداية فترة الشغور (٥٧٤) خرجت ثلاث جماعات لغزو بورجنديا ، وقد اتخذت الجماعة الأولى بقيادة الدوق آنو Anno طريق إمبرون ، حيث تقدم الى إقليم أفينون ونصب معسكره به ، أمـا الجماعة الثانية بقيـادة زابان دوق بافيا ، فقد وصلت مدينة فالنس ، وألقت الحصار عليهـا ، فى حين بلغت الجماعة الثالثة بقيـادة الدوق رودان جرينوبل ، وفرضت الحصار عليهـا أيضـا • وفى هـذه الأثناء استطاع آنو أن يخضع إقليم آرل والمدن المحيطة به لسيطرته ، ثم توغل بعيدا حتى وصـل ستونى فيلد Stony Field بالقرب من مرسيليا ، وشرع فى حصار مدينـة

(1) Villari, II, pp. 281-282.

(2) Gregory of Tours, I, p. 113, II, p. 149; Paul., p. 96; Lot, Les Invasions., p. 279; Dill, Roman Society in Merovingian Age, p. 221.

(3) Paul., pp. 96-97.

آكس Aix ، بيـد أنه لم يلبث أن انسحب من الحصـار ، بعد أن دفع له سكانهـا اثنتين وعشرين رطلا من الفضـة (١) • ولما وصلت الأخبار الى القائد مامولوس ، انطلق بجيوشـه الى جرينوبل ، فوجد رودان قد بدأ فى الهجوم عليهـا ، وعندئذ التقى معـه فى معركة أنزلت به خسائر فادحة ، جعلتـه يلوذ بالفرار مدحورا الى زابان ، الذى كان كان منهكما فى حصار فالنس • ويبدو أن الدوقات الثلاثة أحسـوا ازاء الهزيمة التى تعرضوا لهـا بصعوبة موقفهم ، إذ فجأة تركوا غنائمهـم وارتدوا الى إمبرون • على أن مـا مولوس استطاع اللحاق بهم ، وهناك اشتبك معهم فى معركة انتهت الى هزيمتهم هزيمة حاسمة ، جعلتهم يعودون بفلولهم الى ايطاليا (٢) •

وكانت النتيجة لهذه الهزائم المتكررة التى أصابت اللومبارديين بالغة الأهمية • إذ أنهـا مدت الحدود البورجندية فوق جبـال الألب ، وباتت مملكة الفرنجة منذئذ فى منأى عن أى تهديد لومباردى (٣) • ومن الواضح أيضـا أن الحملات الفاشلة التى قام اللومبارديون بهـا ضد مملكـة الفرنجة ، أقامت جسرا من العداوة بين الجـانبين ، عملت بيزنطة على استغلاله لصالحها ، إذ أمكنها التحالف مع الفرنجة ضد اللومبارديين(٤) •

عودة الملكيـة اللومباردية :

ولا شك أن وقوع اللومبارديين تحت سيطرة دوقاتهم ، ومـا ترتب عليه من انغماسهم فى تيـار الفوضى والمنازعات ، وبقائهم دون ملك يقود دفتهم ، ويرعى شئونهم ، كل ذلك جعلهم على شفى الانهيـار ، وهدد كيانهم بالفنـاء • وممـا يذكر هنا أن قبائل السكسون التى رافقت ألبوين

---

(1) Gregory of Tours, II, p. 153; Paul., pp. 100-101.

(2) Gregory of Tours, II, pp. 153-154; Paul., p. 101.

(3) Dill, p. 206.

(4) Dudden, I, p. 160.

فى زحفـه على ايطاليا ، قررت الانسحاب نهائيـا من هـذا القطر والعودة الى أوطانها شمالى الألب • ويرجع السبب فى ذلك الى أنها أرادت الاحتفاظ بمؤسساتها ونظمها وتقاليدها ، ولكن اللومبارديين عارضوا هـذا الاتجاه بشـدة ، ومن ثم بدأت فى رحلة العودة بعد أن حصلت على موافقـة مملكة الفرنجة باجتياز أرضها (١) ، وبذلك حرم اللومبارديون من مساندة قوة حربية ضخمة • ويمكننا القول أن الطريق وقتئذ أضحى ممهدا أمام بيزنطة لتعزيز حامياتها المرابطة بايطاليا ، ودفعها للهجوم على الدوقات اللومبارديين وجماعاتهم القبلية ، ولكن بيزنطة لم يكن فى وسعها أن توفر الجند ، بسبب ضعفها وجسامة الأعبـاء الملقاة على كاهلها ، بل وصـل الأمر بالامبراطور جستين الثانى (٥٦٥ — ٥٧٨) الى التخلى عن مشاريع سلفه جستنيان فى الغرب الأوربى ، لانشغاله بجماعات الآفار والسلاف التى اجتاحت أوربا ، وتجدد خطر الفرس على الحدود الشرقية ، وبعبـارة أخرى أولت بيزنطة اهتمامها بالشرق ، فى حين احتل الغرب المرتبة الثانية من مشاريعها (٢) •

وفى وسط هـذه الظروف ، أضحت الأقاليم الامبراطورية بايطاليا فى وضع بالغ الصعوبة ، اذ لم تسلم من غارات اللومبارديين وتهديداتهم المستمرة ، فى حين انقطعت خطوط مواصلاتها مع رافنا الى حد بعيـد • ومع هـذا لم يفقـد السكان الرومان الأمل فى بيزنطة ، وظلوا يترقبون مساندتها • وعند ذلك عزل الامبراطور جستين الثـانى نائبه فى ايطاليـا لونجينوس ، وعين بدلا منـه أحد أقـاربه وهو باديواريوس Baduarius لمواجهـة اللومبارديين ، فخرج على رأس حملة ضخمة رست فى نابولى ، ولكنـه خلال مروره بكمبانيا اصطدم باللومبارديين ، فأوقعوا به هزيمة مات على اثرهـا متأثرا بجراحه فى سنة ٥٧٦ (٣) • ويبـدو أن اليأس لم

---

(1) Paul the Deacon, p. 98.

(2) Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 212.

(3) Villari, II, p. 286.

يستبد بالسكان الرومان ، وقرروا أن يتصـلوا اتصـالا مباشرا بجستين الثانى طلبا للمساعدة ، فبعثوا اليه بسفارة تحمل معها ثلاثة آلاف رطل من الذهب هدية ، بغرض ارسال قوة حربية كفيلة بحماية البابا ومدينـة روما من ضغط الغارات اللومباردية ، ولكن حدث مـا لم يكن فى الحسبان ، اذ أصيب جستين الثـانى بالجنون وأبعد عن العرش ، وخلفـه تيبريوس (٥٧٨ ـ ٥٨٢) • ولـما كان الأخير منهمكا فى حروبه ضـد الفرس ، فقد أوصى أعضـاء السـفارة بتقديم الذهب للدوقات اللومبارديين ، ليكون وسيلة اغراء لاقـاف اعتداءاتهم على الممتلكات الامبراطورية ، أمـا اذا أخفقوا فى استمالة هؤلاء الدوقات ، فعليهم اعطـاء الذهب للفرنجة لحثهم على التدخل فى ايطاليا وكبح جماح اللومبارديين (١) ، وهكذا ظهر عجز البيزنطيين واضحا عن استرداد هيبتهم فى ايطاليا •

على أن الامبراطور موريس (٥٨٢ ـ ٦٠٢) لجأ الى وسيلة عمليـة أكثر نفعـا مما لجأ اليه سلفه ، إذ أعاد تنظيم الادارة الرومانية فى شبه الجزيرة الايطالية ، باقامة نظام الاكسارخية ، وبمقتضاه جمع الإكسارخ(٢) Exarch فى يده السـلطتين العسكرية والمدنيـة ، وتعزيزا لمركزه خلع

---

(1) Ibid, pp. 286-287.

(٢) رغم أن القائد نارسيس كان يجمع فى يده السلطتين العسكرية والمدنية ، الا انه لم يحمل لقب اكسارخ . اذ أطلق هذا اللقب لأول مرة على سماراجدوس ، وبمقتضى السلطة العسكرية المخولة ، صارت الفرق العسكرية فى ايطاليا تحت نفوذه المطلق ، بامكانه اعلان الحرب وعقد اتفاقيات السلام . وقد بلغت سلطاته المدنية مدى واسعا ، اذ صار مسئولا عن الشـئون القانونية والادارية والمالية ، كذلك كان له حق التدخل فى الامور الدينية ، فيما عدا التصديق على انتخاب البابا . هذا وقد أقام الاكسارخات فى رافنا . انظـــر :

Dudden, op. cit., I, pp. 180-181.

عليـــه موريس لقب « باتريكيوس (بطـــريق واكســـارخ ايطاليـــا Patricius et exarchius Italiae) (١) •

والى جانب ذلك ، أحسن موريس استغلال فرصة تدهور العلاقات بين اللومبارديين وجيرانهم الفرنجة لاغرائهم على محـــاربة اللومبارديين ، والحيلولة دون توسعهم على حساب بيزنطة • وبمعنى آخر يمكن القول أن فكرة ضرب اللومبارديين بالفرنجة التى سيطرت على ذهن سلفه تيبريوس(٢)، قد حدت به الى التحالف مع الفرنجة ، كما سنرى بعد قليل •

وعلى أية حال ، بدأ الدوقات اللومبارديون يعون أن انقسامهم على أنفسهم ، وانحدارهم الى مهاوى الفوضى فى غياب السلطة المركزية ، نذيرا بضياعهم ، خاصة أن بيزنطة عدوهم الأول حرصت على توطيد علاقتهـــا بالفرنجة من أجل القضاء عليهم • ولم يقف الأمر عند هـــذا الحـــد ، بل ان أهالى ايطاليا من الرومان باتوا أكثر تلهفها على الاطاحة بهم ، لمـــا قاسوه من غارتهم الناهبة واعتداءاتهم المتكررة • وازاء هذا الوضع رأى اللومبارديون أن يغـــيروا سياستهم غير المتمـــاسكة ، فعقـــد الدوقات اجتماعا لهـــذا الغرض فى ربيع سنة ٥٨٤ ، أجمعوا فيـــه على أن عودة الملكية والالتفـــات حولها ، هى الحل الحاسم الذى لا يتوافر غيره ، وكان أن وقع اختيارهم جميعـــا على أوثارى (٥٨٤ — ٥٩٠) وريث كليف ملكا عليهم (٣) • والملاحظ فى هـــذا الاجتماع ، أن اللومبارديين تخلوا عن مبدئهم الجرمانى القديم القائم على انتخاب الملك كقـــائد أعلى وقت الحرب فقط ، واتفقوا جميعـــا على أن تأخذ الملكية صـــفة الدوام (٦) ولمـــا كان

---

(1) Diehl, Hist - of the Byzantine Empire, pp. 47-48; Diehl & Marcais, Hist. du Moyen Age, III, p. 222; Thompson, The Middle Ages, I, p. 168.

(2) Thompson, op. cit., I, p. 169; Oman, op. cit., p. 192.

(3) Paul., p. 113; Hodgkin, V, p. 231; Dudden, I, p. 160.

(4) Gregory of Tours, I, p. 179.

النظـام الملكى يستلزم دخلا مناسبا يفى بنفقـات البلاط والحاشـية والموظفين ، وهى مظاهر ملوكية لابد منهـا ، فقد وافق الدوقات عـلى التنـازل عن نصف ممتلكاتهم فى دوقياتهم الى أوثارى ، وكانت هـذه الممتلكات قد آلت اليهم من كبـار النبلاء الرومان بطريق الاغتصـاب أو المصـادرة (١) • والى جانب ذلك أطلق الدوقات على أوثارى لقب فلافيوس Flavius ، وهو لقب رومانى الأصـل ، لم يعد قاصرا عليه ، بل استخدمه خلفاؤه من بعـده (٢) • والواقع أن هـذا اللقب يحمـل فى طياته دلالة عميقة ، إذ كان من الألقاب المحببة لنفوس الرومان ، الذى يثير خيالهم بذكرى أمجاد الأسرة الفلافية الشـهيرة فى التاريخ الرومانى ، وقد درج الأباطرة الشرقيون الذين أعقبوا هـذه الأسرة على استخدامه ، ومـا لبث الملوك والحكام الجرمان أن خلعوه على أنفسهم ، وعلى سبيل المثـال أودواكر الذى صـار سيد ايطاليا على إثر سقوط الامبراطوريـة الرومانية فى الغرب سنة ٤٧٦ ، وريكارد الأول ملك القـوط الغربيين فى فى أسبانيا (٥٨٦ — ٦٠١) (٣) • ولا شك أن الدافع الأساسى الذى يكمن وراء هـذا اللقب ، هو اضفاء الشرعية على الوجود اللومباردى بايطاليا(٤) ، بالاضافة الى أن أوثارى استهدف به كسب ود رعاياه الرومان واللمبارديين على حد سواء (٥) • والجدير بالذكر أن أوثارى خلع على نفسـه لقبا آخر وهو « الرجـل المتفوق » ، فضـلا عن لقبـه الأصلى « ملك الشـعب اللومبـاردى » Rex Gentis Longobardarum (٦) • وعلى أية حال ، فقد أنهت عودة الملكية الى اللومبارديين على يد أوثارى سنوات الفوضى

---

(1) Villari, op. cit., II, p. 290.

(2) Paul., pp. 113-114.

(3) Hodgkin, V, p. 234.

(4) Ibid.

(5) Lot, The End of the Ancient World, p. 287.

(6) Ibid, p. 237.

والتشتت ، وانعقدت الآمال عليه فى تحقيق ايطاليا اللومباردية الموحدة ، ولكن الفرص الحاسمة ، كمـا سنرى ـ كانت قد ولت وضاعت •

والحق شخصية الملك الشـاب أوثارى ، بمـا تميزت به من قوة وحيوية ومقدرة ، عادت عليه بشهرة واسعة ألهبت خيال قومه ومشاعرهم ، وجعلت الأساطير تحوم حوله • وقد بدأ حكمه باخمـاد الفتن والاضطرابات التى سادت قومه ، وأوقف الحملات الفاشلة على جارته مملكة الفرنجـة ، وبذل جهدا متواصلا لتوحيد الأقاليم اللومباردية تحت نفـوذه ، وذلك باخضـاع الدوقات الخارجين عليـه ، خاصة دوقى بنفنتو وسبوليتو • ويقـال انه بعد أن فرغ من تلك المهام ، واصل زحفه منتصرا خلال المناطق التى تؤلفهـا هاتان الدوقيتان ، ثم اندفع الى ولاية بروتيوم ، ومنهـا الى مدينة ريجيو Reggio الواقعـة فى أقصى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة الايطـالية ، حيث امتطى صـهوة فرسه ، وانطلق الى غمـار البحر ، ولمس بحربته عمودا برز من بين الأمواج ، وقال : « ليكن هذا حد مملكة اللومبارديين » ، ويروى بولس أن هـذا العمود أطلق عليـه عندئذ « عمود أوثارى » (١) • واذا كان من الثابت أن بروتيوم لم يقـدر لهـا فى يوم من الأيام أن تسقط فى أيدى اللومبارديين ، فالواقع أن هذه الأسطورة ليست الا رمزا للأمل الذى كان يداعب اللومبارديين فى اخضـاع شـبه الجزيرة الايطالية كلهـا لنفوذهم (٢) • ويرى البعض أن هـذه الأسطورة لا أساس لهـا من الصحة ، إذ كان من المستحيل على أوثارى أن يتغيب عن مقره فى شمال ايطاليا ويتوغل بعيدا ، فى الوقت الذى كان الامبراطور البيزنطى يحث الفرنجة على استئناف الحرب ضد اللومبارديين (٣) •

---

(1) Paul., pp. 145-146; Hodgkin, V, pp. 235-236; Dudden, I, pp. 166-167; Gibbon, II, p. 105; Mann, The Lives of the Popes, I, pp. 12-113.

(2) Oman, op. cit., p. 193;

موس : ميلاد العصور الوسطى ، ص ٣٣٥ •

(3) Villari, op. cit., II, p. 291.

وفى هـذه الأثنـاء ، حدث أن فر الدوق الومباردى دركتـولف Droctulf لاجئا الى رافنـا البيزنطية • ويبدو أنه كان قد وقع من قبل أسيرا فى أيدى القوات البيزنطية ، خلال احدى المعـارك التى دارت بينهـا وبين اللومبارديين ، نقـل على اثرهـا الى رافنـا • ومثل العديد من زعماء البرابرة ، بهرته الحضارة البيزنطية رغم تداعيها آنذاك ، فارتبط بالبيزنطيين وحالفهم ضـد قومه • وعلى أية حال ، لم يلبث أن زحف بقواته الى مدينة بريسيلو Brescello (بركسيلوم) ــ وهى مدينة لومباردية صغيرة على نهر البو الأوسط ــ حيث نجح فى الاستيلاء عليهـا • وكان غرضه من ذلك اعاقة خطوط مواصلات اللومبارديين خلال الطريق الايميلى العظيم Aemilian way ، الذى يربط مدن بارمـا وبلاسنتيا ومودينا بعضهـا بالبعض ، فى حين يمكنـه الابحـار بسفنه أعلى وأسفل نهر البـو ، والحفـاظ على طريق مواصـلاته مع البحر الأدرياتى (١) • غير أن أوثارى لم يقف ساكنـا ، إذ تقدم على رأس جيوشه صوب هـذه المدينة ، وضيق عليهـا الخناق الى أن سقطت فى يده ، ثم أمر بهدمهـا وتسويتها بالأرض ، أمـا دركتولف فقد اضطرته الهزيمة للفرار بفلوله الى رافنا (٢) •

وحوالى هـذا الوقت أيضـا ، انشغل أوثارى بمسألة وراثة العرش من بعده • ولمـا كانت أسعد أمانيه أن يخلفـه ولد من صلبه ، فقـد صح عزمه على الزواج (٣) • والحـق أن قصـة زواج أوثارى من الأميرة البافارية ثيوديلندا أمركان من الممكن ألا تشغل الأذهـان بـه ، لولا المكانة الرائعة التى احتلتها فى قلوب رعاياها اللومبارديين من ناحيـة ، ودورها الفعال الذى انعكس على مستقبل أحوالهم السياسية والحضارية من ناحية أخرى •

---

(1) Hodgkin, V, pp. 242-244.

(2) Paul., pp. 118-119.

(3) Villari, II, p. 292.

ووفقـا لمـا أورده بولس الشماس ، أراد أوثارى زوجة لـه ، فأرسل الى تشلدبرت ملك الفرنجة طالبا يد أخته ، فوعده خيرا ، ولكنه مـا لبث أن نكث وعده بعد أن وصلته سفارة من قبل القوط الغربيين فى أسبانيا تطلب بدورهـا يد أخته لمليكهم ريكارد الأول ، فوافق مرحبا ، وقد دفعـه الى ذلك أن القوط الغربيين آنذاك قد صـاروا مثل الفرنجة على المذهب الكاثوليكى ، فى حين ظـل اللومبارديون على آريوسيتهم ، شأنهم فى ذلك شـأن غالبية الشعوب الجرمانية (١) • وعندئذ أرسـل أوثارى سفارة الى جاريبالد دوق بافاريا الذى يدين بالتبعية لملك الفرنجة ، طالبا يد ابنته الجميلة ثيوديلندا ، فأجابه الى طلبـه مرحبـا (٢) ويرى البعض أن السبب الذى من أجله طلب أوثارى يد ثيوديندا كان سياسيا بالدرجة الأولى ، ومن شأنه أن يخدم مصالحه ، إذ كانت العلاقات بينـه وبين مملكة الفرنجة آنذاك قد أخذت طابعا عدائيـا ، الأمر الذى جعله يضع فى اعتباره الافادة من دوقية بافاريا المتاخمة لأراضى تلك المملكة(٣) • وان كـان المؤرخ هودجين يرى أن الدافع القـوى لزواج أوثارى من ثيوديلندا ، يتمثل فى ارتباطها ببيت ليثنجى اللومباردى العريق ، فهى تنحدر من جهـة أبيهـا الى شعب الماركومانى المحارب ، ومن جهة أمهـا الى ملوك اللومبارديين القدماء ، فأمها ابنة الملك واكو ، الذى حكم مدة طويلة فى بانونيـا (٤) •

ومن الطريف أن أوثارى كان يتحرق شوقا لرؤية خطيبته ليحـكم عليها بنفسه • ولهـذا الغرض اختار بعض أتباعه المقربين ، وأوفدهم فى سفارة الى بافاريا برئاسة شيخ طاعن فى السن ، وانضم هو الى عضويتها مخفيا شخصيته تحت اسم مستعار • وعند وصول السـفارة الى بافاريا

---

(1) Paul., p. 136; Gregory of Tours, II. p. 397.
(2) Paul., pp. 137-138.
(3) Villari, II, pp. 292-293.
(4) Hodgkin, V, p. 285.

استقبلها جاريبالد بحفاوة بالغــة ، وفى الحفل الذى أقامه على شرفهــا ، وقف الشيخ العجوز وألقى خطبة كال فيهــا المديح للأميرة ثيوديلندا ، ثم تقدم أوثارى دون أن يكشف النقــاب عن هويته ، وأفصح لجاريبالد أن مليكه قد كلفه بمطالعة وجه الأميرة ، لينقل اليه صورة صــادقة عن أوصافها (١) . فأذعن الدوق لطلبه ، وأمر باحضــار ابنته ، فلمــا وقع بصر أوثارى عليهــا عجب بهــا ، ووجه حديثه للدوق قائلا : « ان ابنتك جديرة حقــا بأن تكون ملكتنا ، ويسرنا أن نتنــاول كأس شراب من يدهــا » . وامتثلت الأميرة طائعة ، ولكن مراعاة منهــا لأصــول الضيافة ناولت أول الأمر كأسا لرئس السـفارة ، ثم ناولت أوثارى من بعده ، وعندما أعاده فارغا لمس أصابعها ، فغلب وجهها حمرة الخجل ، ولما انفردت بمربيتها أخبرتها بمــا حدث ، فردت عليهــا بقولها : « لابد أنــه الملك الذى طلب يدك ، إذ لا يجرؤ أحد على فعــل هــذا الأمر غيره ، وعليك بكتمانه ، لأنه حقــا الرجل الجدير بك ملكا وزوجا » . وأخيرا استأذنت السفارة جاريبالد فى العودة ، وغادرت بافاريا برفقــه بعثة شرف بافارية . ولم يكد أوثارى يصــل حدود إيطاليا ، حتى هب فوق فرسه جذلا ، وقذف فأسه بقوة على ســاق شجرة ، وصــاح قائلا : هكــذا يضرب أوثارى ضربته » ، وعنــدئذ عرفت بعثة الشرف المرافقــة أنــه أوثارى ملك اللومبارديين (٢) .

وعلى أيــة حال ، مــا ان وصلت أنبــاء الخطوبة لتشلدبرت ملك الفرنجة ، وأدرك ماستجره من تحالف بين اللومبارديين والبافاريين ، يشكل خطرا على مملكته ، ثارت ثائرته (٣) . وبادر بانفــاذ جيش ضــد دوقية بافاريا ، نجح فى الاطاحة بجاريبالد ، وعندئذ لاذت ثيوديلندا بالفرار

(1) Paul., p. 139.
(2) Ibid, pp. 139-140.
(3) Villari, II, p. 293.

مع أخيهـا الى ايطاليا • ولما بلغت سهل لوجودى جاردا الواقع بالقرب من فيرونا ، أرسلت الى أوثارى تنبئـه بوصولها ، فأتى من فوره ترافقه حاشية ضخمة ، حيث عقد قرانه عليهـا فى ١٥ مايو سنة ٥٨٩ (١) •

التحالف البيزنطى الفرنجى :

أشرنا فيمـا سبق الى التغيير الذى أحدثه الامبراطور موريس فى ادارة ايطاليا البيزنطية ، بأن جمع السلطتين العسكرية والمدنية فى يـد شخصية واحدة هو الاكسارخ ، واستتبع ذلك بعزل النائب الامبراطورى لونجينوس سـنة ٥٨٥ ، وعين مكـانه سماراجدوس — أول اكسارخ بايطاليا — لما اشتهر به من شجاعة ومهارة فى التنظيم • ولم يكد سماراجدوس يصـل رافنا ، واستكشف فساد الادارة البيزنطية وضعفهـا ، وحاجته لوقت غير قصير لاعادة الأمور لنصابها ، يتهيأ خلاله لمواجهة اللومبارديين ، اقترح على أثارى عقد هدنة بينهما مدتها ثلاث سنوات (٥٨٥ — ٥٨٨) فلم يبخل عليه بذلك (٢) •

بيـد أن اللومبارديين نقضوا الهدنة من جانبهم قبل انتهائهـا بعام واحد • ذلك أن ايوين دوق ترنت انقض فجأة على ولاية استريا البيزنطية ، ولجـأ الى حرقهـا ونهبها ، ثم أعقب ذلك بعقـد هدنة قصيرة الأجل مع الاكسارخ مدتهـا سنة واحـدة ، ورجع مثقلا بالغنائم الى مليكه أوثاوى (٣) • والواقع أن مـا حدث لا يعنى أن الاكسارخ قد غض النظر عمـا قام به الذوق ، إذ فى سنة ٥٨٩ نجح فى استرجاع مينـاء كلاسيس الهـام من فروالد دوق سبوليتو ، بعد أن ظل فى قبضته عشر سنوات (٤) •

---

(1) Paul., p. 140.

(2) Dudden, op. cit., I, p. 161.

(3) Paul., pp. 134-135.

(4) Hodgkin, V, pp. 246-247; Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., pp. 212 - 213.

فى هـذه الأثناء بدأ الامبراطور موريس فى تنفيذ سياسته الرامية الى التحالف مع الفرنجة ، وعقد أواصر الصـداقة معهم ، بقصد تطويق اللومبارديين • وفى هـذا الصدد لم يرفض الفرنجة يد الصـداقة الممدودة اليهم ، خاصة اذا كانت مليئة بالأموال والهدايا • وفى الحين نفسـه لم ينس الفرنجة دينهم القديم مع اللومبارديين ، وبعبـارة أخرى لم ينسوا غاراتهم الناهبـة المتكررة على حدود مملكتهم الجنوبية (١) • ومن ثم تبادل الفريقان ـ بيزنطة والفرنجة ـ السفارات ، ودارت المفاوضات بينهما حول القيام بعمليات حربية مشتركة ضد اللومبارديين (٢) •

وعلى أية حال ، استطاع موريس أن يغرى تشلدبرت الثانى ملك الفرنجة بشن هجوم على اللومبارديين فى مقابل خمسين ألف قطعـة من الذهب (صولدى) • وكان أن عبر الملك الفرنجى جبـال الألب فى سنة ٥٨٤ على رأس جيش ضخم ، وباغت اللومبارديين بهجوم شل حركتهم ، جعلهم يتراجعون الى أسوار مدنهم الحصينة للاحتماء بهـا ، ثم دارت مفاوضات بين الجانبين ، انتهت إلى انسحاب ملك الفرنجة من إيطاليا بعد أن نفحه اللومبارديون مبالغ ضخمة وهدايا ثمينة (٣) • وعندما وصلت الأخبار لموريس بمـا حدث ، طالب تشلدبرت الثانى باعادة الأموال التى أرسلها اليه ، ولكنـه رفض (٤) • وفى العام التالى (٥٨٥) عبرت حملة فرنجية أخرى جبـال الألب ، بيـد أنها سرعان مـا انسحبت من ايطاليا مثل سابقتها ، بعد أن لوح لها اللومبارديون بالمال والهدايا (٥) •

ويبـدو أن موريس لم ييأس من الفرنجة ويصـد وجهه عنهم ، رغم أنهم تقاعسوا عن الوفاء بمـا التزموا به ، بدليل أنه أرسل سفارة من

(1) Dudden, I, pp. 161-162.

(2) Paul., p. 126.

(3) Paul., p. 117; Villari, op. cit., II, p. 288, Thompson, op. cit., I, p. 169, 206; Gregory of Tours, II, p. 122, 174.

(4) Paul., pp. 117-118.

(5) Dudden, I, p. 162.

قبله يطلب انفاذ جيش آخر الى ايطاليا لغزو اللومبارديين • وما لبث تشلدبرت الثانى أن جهز حملة ثالثة فى حوالى سنة ٥٨٧ ، بيد أنها لم تكد تجتاز جبال الألب ، حتى دب النزاع داخل صفوفها • ويعود السبب فى ذلك الى أن قبائل الأليمانى التى انخرطت فى سلك هذه الحملة هددت بالتوقف عن مواصلة الزحف ، ما لم تحصل على حصة معينة من الغنائم المتوقع الحصول عليها ، وما لم تستقل بالأقاليم التى ستنتزعها لصالحها • ولكن الفرنجة رفضوا الانصياع لمطالب قبائل الأليمانى ، فانسحبت الأخيرة من ايطاليا ، الأمر الذى ترتب عليه فشل هذه الحملة فشلا تاما (١) •

وفى أوائل صيف سنة ٥٨٨ أنفذ ملك الفرنجة حملته الرابعة الى ايطاليا ، ولكن أوثارى تمكن من هزيمتها هزيمة ساحقة ، أسفرت عن وقوع العديد من الفرنجة قتلى وأسرى ، فيما عدا قلة ضئيلة استطاعت الفرار بصعوبة • ومن الأسباب التى أدت الى فشل هذه الحملة ، انتشار الفوضى داخل صفوفها ، وتفاقم النزاع بين قوادها ، فى الوقت الذى أحس اللومبارديون أن وجودهم بايطاليا بات مهددا بالفناء ، فحاربوا ببسالة ؛ هذا ويعتبر الانتصار الساحق الذى أحرزه أوثارى على الفرنجة أهم حدث فى عهده (٢) • والجدير بالذكر أن الامبراطور موريس أخذ يصب جام غضبه على الاكسارخ سماراجدوس لتأخره عن تقديم المساعدة الحربية للفرنجة ، فضلا عن السياسة الدينية التى نهجها هذا الاكسارخ بايطاليا ، وكادت أن تهدد الكنيسة بانشقاق حقيقى • ونتيجة لذلك استدعاه الى القسطنطينية ، وعين بدله رومانوس فى سنة ٥٨٩ (٣) •

---

(1) Paul., p. 126; Hodgkin, V, pp. 258-259; Gibbon, II, p. 104.

(2) Hodgkin, op. cit., V, pp. 260; Villari, op. cit., II, p. 292.

(3) Villari, II, p. 292.

ويرى المؤرخ ددن أن سماراجدوس دهمه مرض وبيل سنة ٥٨٩ ، استلزم سفره الى القسطنطينية •

Dudden, I, p. 161.

ونأتى الى آخر الحملات التى وجهها تشلدبرت الثـانى الى ايطاليا اللومباردية وأخطرها على الاطلاق ، ونعنى بهـا الحملة الخامسة سـنة ٥٩٠ • ويبـدو أن الفشـل الذى منيت به الحملات الأربعـة السابقة ، زاد من غضبه ورغبته فى القيـام بعمل حاسم ضـد اللومباردين • ولهذا جهز حملته هـذه المرة بعنـاية فائقة ، كما اتفق مع الاكسـارخ الجديد رومانوس (٥٨٩ ــ ٥٩٦) على القيـام معا بهجوم على بافيـا عاصمة اللومبارديين ، والقـاء القبض على أوثارى (١) • ويبـدو أن رومانوس أراد أن يثبت وجوده فى ايطاليـا قبل أن تصـل الجيوش الفرنجية ، إذ بدأ بهجوم واسع على الأراضى اللومباردية ، أسفر عن استيلائه على مدن مودينا وألتينو ومانتوا (٢) •

وفى تلك الأثنـاء ، أخذت الحملة الفرنجية طريقهـا الى ايطاليا ، وقد جرى تقسيم جيشها الضـخم الى ثلاث مجموعات كبيرة ، الأولى بقيـادة أودوفالد Audovald ، والثانية تحت زعامة أولو Olo ، والثالثـة على رأسـها شدين Chedin (٣) • ورغم ضخامة هـذا الجيش ، الا أنه منـذ بداية تحركه يكشف لنـا الظروف المختلفة التى تحكمت فى توجيهه • إذ كان فى الواقع يفتقر الى التنظيم ، ويعوز قواده قـوة الشخصية والبراعة ، فى الوقت الذى كان ضـباطه قليلى الخبرة والتدريب • وأبلغ دليل على ذلك ، أنـه ما كاد هـذا الجيش ينطلق من شامبنى ، لم يتورع عن ارتكـاب كثير من أعمال العنف والقتل والفوضى والنهب فى ميتز عاصمة مملكـة الفرنجة قبل أن يصـل جبال الألب ، وكأنه قـد جهز للقيام بأعمال عدائية ضـد بلده (٤) • ولم يلبث الجيش الفرنجى أن عبر جبـال الألب الى ايطاليا ، وأخذ ينهب ويخرب المدن الآمنـة الواقعة

---

(1) Dudden, I, p. 162; Oman, p. 192.

(2) Hodgkin, V, p. 271; Dudden, I, p. 162; Thompson, I, p. 169.

(3) Paul., pp. 141-142.

(4) Gregory of Tours, II, p. 430; Dill, Roman Society, pp. 206-208.

فى طريقه ، الى أن توزعت مجموعاته الثلاثة ، فعسـكر أودوفالد أمام أسوار ميلان ، وزحف أولو الى بيلتزونا Bellinzona ، وهبط شدنين وادى الأديج ، حيث هدد فيرونا (١) • وبينمـا كان أولو محاصرا لبيلتزونا أصابه رمح أراده قتيلا ، فانسحب رجاله من الحصـار ، وانضموا الى المجموعتين الأخرتين (٢) •

وكان أن اشتبك الفرنجة بقيادة أو دوفالد مع اللومبارديين فى معركة على الجانب الغربى من بحيرة لوجانو ، انتصر فيهـا الفرنجة ، ولكنهم عندما اقتحموا معسكر اللومبارديين فوجئوا به خاليا الا من مخيمات منصوبة ونار موقدة (٣) • ذلك أن اللومبارديين وجدوا أنفسهم عاجزين عن حشود الفرنجة الضخمة التى تساندها القوات الامبراطورية فى ايطاليـا ، وعندئذ لم يجدوا وسيلة للخلاص سوى اخلاء معسكرهم ، والاحتمـاء بمدنهم المنيعة ، بهدف انهـاك عددهم وتشتيت قواه • فأغلق أو ثارى على نفسه فى بافيـا ، ولجـأ الدوقات اللومبارديون الى تزويد قلاعهم بالمؤن ، والانتظـار داخل أسوارهـا حتى ينجلى الموقف (٤) • ولعـل أهم سبب دفع اللومبارديين الى اتخـاذ هذا الاجراء ، مـا تردد من أنبـاء عن وصول قوات امبراطورية لتعزيز موقف أودوفالد • وكان الاكسارخ رومانوس قد أبلغ أودوفالد أن قواتا امبراطورية فى طريقهـا اليه خلال ثلاثة أيام ، وحال وصولهـا ستعطيه اشـارة باشعال نار من أحد القصـور القائمة فوق قمة تل مجاور (٥) • وإذ كان أودوفالد يعلق آماله على هـذه القوات ، ومضت ستة أيام دون أن تظهر فى الأفق الاشـارة المتفق عليهـا ، فقـد

---

(1) Gregory of Tours, II, p. 340; Hodgkin, V, pp. 267-268; Dudden, I, p. 163.

(2) Paul., p. 142.

(3) Gregory of Tours, I, pp. 430-431; Hodgkin, V, p. 268.

(4) Dudden, I, p. 163.

(5) Paul., pp. 142-143.

دفعه اليأس من وصولها الى أن يحل معسكره ، وينسحب خائبا بقواته الى بلاده (١) •

أمـا جيش شدين ، فقـد نجح فى الاستيلاء على عشر مدن فى وادى الأديج ، واثنتين فى فال سـوجانا Val Sugana ، وواحدة بالقرب من فيرونا (٢) • ولكن فيرونا استعصت عليه ، إذ استطاعت أن تقـاوم الحصـار الذى فرضه شدين عليهـا طوال ثلاثة شهور ، قاسى جنـده خلالها مناخا لم يألفوه ، كمـا أن المجاعات والأوبئـة انتشرت بينهم ، وفتكت الدوسنطاريا بالآلاف منهم ، وازاء تلك المصاعب اضطر شدين الى رفع الحصـار ، وشرع فى الانسحاب من ايطاليا فى أغسطس من نفس العـام (٥٩٠) • وفى أثنـا العودة سقط العديد من الجنـد من شـدة الاعياء والتعب ، واضطر الكثير منهم الى بيع ملابسـه وأسلحته فى سبيل الحصول على الخبز ، فى حين لم يجـد البعض وسيلة تخلصه من آلامه الا بالانتحـار ، واجمالا لم يعـد باقيا من هـذا الجيش الا قلة قليلة ، استطاعت الوصول بمشقة الى الحدود الجبلية ، حيث اختفت عن الأنظار وسـط الثلوج (٣) •

وهكذا فشلت محاولات الفرنجة فى القضـاء على اللومبارديين ، تلك المحاولات التى جرت الوبال على ايطاليا ، فأقفرت سهولهـا ، ونهبت مدنهـا وقراها ، وتلفت محاصيلها ، ووقع كثير من رجالها ونسائها أسرى فى أيدى الفرنجة • وهنـا نلاحظ أن اللومبارديين لم يتأثروا كثيرا بسبب حملات الفرنجة ، وبمعنى آخر لم تلحق بهم خسائر جسيمة ، إذ احتفظ الملك أوثارى بكنوزه سليمة فى بافيا ، وتحصن الدوقات داخل أسوار مدنهم الحصينة ، فى حين وقع الغرم كله على السكان الرومان التعساء ، اذ عاملهم

(1) Gregory of Tours, II, p. 431; Dudden, I, p. 163.

(2) Paul., pp. 143-144.

(3) Gregory of Tours, II, pp. 431-432; Hudgkin, V, pp. 268-269; Dudden, I, pp. 163-164; Dill, Roman Society.. p. 206.

الفرنجة معاملة الأعداء ، مع أنهم أتوا الى ايطاليا بغيــة تخليصهم من اللومبارديين (١) •

ومن الواضح أن التحالف البيزنطى لم يقم على دعائم راسخه منذ بدايته ، إذ كانت تزلزله فى الواقع الشكوك المتبادلة بين الطرفين ، واتهام كل منهمــا للآخر بالعمل لمصلحته (٢) • وينبغى ألا يفوتنا أن مملكة الفرنجة آنذاك كانت تمر بدور انحلال بطىء ، الأمر الذى سهل على أوثارى اسقاط عرى هــذا التحــالف • ومع ذلك ، فقــد لقى بعض الهزائم على أيدى القوات الامبراطورية بقيــادة الاكسارخ رومانوس ، ففضلا عن سقوط مدن مودينا وألتينو ومانتوا فى يده كمــا أسلفنا ، استطاع أيضــا أن يعيــد الى الامبراطورية مدن بارما وريجيو وبياكنزا الهــامة ، وكان بوسعه أن يواصل انتصاراته على اللومبارديين ، ولكن انسحاب الفرنجة من ايطاليا لم يضــع حدا لهــا فحسب ، بل لم ينقض وقت طويل حتى عادت هذه المدن الى حوزة اللومبارديين (٣) ، كمــا سنرى بعد قليل •

واجمالا كان التحالف البيزنطى الفرنجى مقضيا عليه بالفشــل ، بدليل أن أوثارى عمل على قطع جذوره تماما عندما أرسل سفارة من قبله الى ملك الفرنجة يطلب عقــد اتفاقية صلح وسلام معــه قبل نهاية صيف عــام ٥٩٠ ، فوافق ملك الفرنجة ، فى الوقت الذى وصلت الأخبار بوفاة أوثارى فجأة فى عنفوان شبابه فى بافيا فى ٥ سبتمبر من نفس العام (٤) ؛ ولم يكن قد مضى على زواجــه من الأميرة البافارية ثيوديلندا الا ســنة وبضــعة أشهر •

---

(1) Dudden, op. cit., I, p. 164.

(٢) موس : المرجع السابق ، ص ٢١٥ ــ ٢١٦ .

(3) Dudden, I, p. 165.

(4) Gregory of Tours, II, p. 432; Hodgkin, V, p. 275.

أجيـلولف (٥٩٠ ـ ٦١٦) :

مات أوثارى دون أن يترك ولدا يخلفـه على العرش ، وكان من المتحمل أن تظهر فترة شغور أخرى فى المملكة اللومباردية • ولكن الدوقات اللومبارديين كانوا قد أفادوا تماما من التجربة المريرة التى عاشوهـا من قبل • وفى هـذه المرة تنازلوا عن حقهم فى اختيـار ملك جديد ، وتركوه لثيوديلندا • ويرجع السبب فى ذلك الى أنهم كانوا يجلون مكانتها ويكنون لهـا أسمى حب ، لحصافتها وخصالها الحميدة ، ومن ثم استقر رأيهم على أن تظل ملكة عليهم بمنحها الحق فى اختيار زوج لهـا من بين الدوقات جديرا بشغل العرش ، خلفـا لأوثارى • وكان أن وقع اختيارهـا على أجيلولف الثورنجى Agilulf دوق تورين ، لمـا تميز به من قوة وشجاعة (١) • والواقع أن أهم مـا تميزت به ثيوديلندا آنذاك هو حماسها الزائد للكاثوليكية وترسيخها بين قومهـا ، ولذلك يقترن اسمها بانتشار المذهب الكاثوليكى فى تاريخ مملكة اللومبارديين (٢) • ورغم جهودها ومثابرتها فى هـذا الشأن ، ألا أنهـا لم تنجح فى التأثير على زوجهـا السابق أوثارى باعتناقه ، بل بلغ الأمر به أن أصـدر مرسوما فى ربيـع سنة ٥٩٠ ، منع بموجبـه تعميد أبناء اللومبارديين على المذهب الكاثوليكى • كذلك فشلت جهودها الرامية الى اقنـاع زوجهـا الثانى أجيلولف بالعدول عن المذهب الآريوسى ، مع أنهـا صاحبة الفضل الأول فى وصوله الى العرش (٣) •

وعلى أية حال ، لم يكد أجيلولف يتبوأ عرش المملكة اللومباردية ، حتى وجه اهتمامه الى تعزيز روابط السـلام والصداقة بينـه وبين جيرانه الفرنجة • ولهـذا الغرض بعث بسفارة الى البلاط الفرنجى ضمت ايوين دوق ترنت وأجنيلوس أسقفها ، الذى عهـد اليه بصـفة خاصة مهمـة

(1) Paul., p. 149; Hodgkin, V, p. 281; Oman, op. cit., p. 193.

(2) Gregory of Tours, I; p. 180; Dudden, II, p. 3.

(3) Hodgkin, V, pp. 286-287.

التفاوض مع الفرنجة حول اطلاق سراح الأسرى اللومبارديين ، الذين ساقهم شدين معـــه فى أعقاب حملته على ايطاليا سنة ٥٩٠ • وكان أن نجحت السفارة فى مهمتها ، فعقد ايوين اتفاقية صلح مع الملك الفرنجى (١) ، قدر لهـــا أن تدوم قرنا ونصف قرن ، لم يتعكر صفوهـــا الا عندمـــا استنجدت البابوية بالفرنجة لانقاذها من خطر اللومبارديين (٢) ، كمـــا سنرى فى الأحداث التالية •

وفى الوقت الذى فرغ أجيلولف من تسوية أموره مع الفرنجة ، خرج عليه بعض الدوقات الذين رفضوا قبوله ملكـــا عليهم ، بحجة أن أصله الثورنجى غريب عنهم ولا يمت اليهم بصـــلة ، وأنه لولا ثيوديلندا لمـــا ارتقى العرش • ومن أولئك الدقات ميمولف الذى تحصن بموقعه المنيع بجزيرة سانت جوليان فى بحيرة أورتا ، بيـــد أن أجيلولف تمكن من أسره وقتله ، وأيضـــا أولفارى دوق تريفيزو ، حيث زحف عليـــه أجيلولف بجيوشه ، وشدد عليه حصارا انتهى بوقوعه أسيرا فى يده • أمـــا جيدولف دوق برجامو أقوى الدوقات الخارجين عليه ، والذى كان — على ما يبدو — يتطلع الى العرش اللومباردى لما لدوقيته من أهمية ، فضلا عن قرابته من الملك السـابق ، فقـــد سار اليـــه أجيلولف على رأس جيوشه ، وأرغمه على طاعتـــه (٣) •

بعد أن نجح أجيلولف فى اخمـــاد ثورات الدوقات الخارجية عليه ، واطمأن الى جانب الفرنجة ، لم يعد باقيا أمامـــه الا حسم الموقف مع الامبراطورية البيزنطية فى ايطاليا • ولكن حدث مـــا لم يكن فى الحسبان ، إذ ظهرت قوة جديدة على مسرح الأحداث الإيطالية ، لم تتفق أهدافهـــا مع أهداف اللومبارديين ، وقدر لهـــا أن تلعب دورا فعالا فى حلبة الصراع الدائر بين اللومبارديين والبيزنطيين ، انعكست آثاره على مصـــير ايطاليا العصـــور الوسطى •

(1) Paul., p. 151; Dudden, II, p. 6.
(2) Hodgkin, V, pp. 344-345; Dudden, II, p. 6.
(3) Hodgkin, op. cit., V, p. 347.

الفصل الثالث

صراع القوى السياسية فى ايطاليا فى القرن السابع

(اللومبارديون والبابوية والدولة البيزنطية)

- نهوض البـــابوية ٠
- اللومبارديون والبابوية ٠
- خلفـــاء أجيلولف ٠

ومن الملاحظ أنه باعتلاء أجيلولف عرش المملكة اللومباردية فى سنة ٥٩٠ ، كانت الخريطة السياسية لشـبه الجزيرة الايطالية موزعة بين اللومبارديين والبيزنطيين • وقد كانت الممتلكـات البيزنطية على النحـو الآتى (١) :

ـ فى شمال ايطاليـا : استريا ، وجرادو ، والبندقية ، والساحل الليجورى ، وبادوا ، ومانتوا ، ومونسليتشى ، وكريمونا ، وبياكنزا ، وبارمـا ، وريجيو ، ومودينا التى ظلت فى حوزة الامبراطورية حتى سنة ٥٩٠ • بالاضـافة الى رافنا ، وبنتابوليس بقسميها : بنتابوليس الساحلية بمدنهـا الخمسـة ريمينى ، وبيسارو ، وفانو ، وسنجاجليا ، وأنكونا ، وبنتابوليس الداخلية بمدنهـا جيسى Jesi ، وجوبيو ، وكاجلى ، وفوسمبرون Fossombrone ، وأربينو •

ـ فى وسط ايطاليا : بيروجيا ، والدوقية الرومانية Ductatus Romanus الممتـدة من تودى وكيفيتا فيتشيا شمالا الى جاتيـا Gaeta ، وتشـمل هـذه الدوقية من النـاحية الفعليه كل ولايـة لا تيوم Latium تقريبـا •

٣ ـ فى جنوب ايطاليـا : نابولى ، وسـالرنو ، وباييسـتوم ، وأجروبولى ، وكالابريا ، وبروتيوم ، وجزر سردينيا وكورسيكا وصقلية •

من الواضـح أن ادارة تلك الممتلكات المتباعدة كان فوق طـاقة إكسارخ رافنا ، خاصة بعد أن حرمه اللومبارديون حرية الاتصال برا بمعظمهـا (٢) •

أمـا الممتلكات اللومباردية فقد كانت على النحو الآتى (٣) :

---

(1) Dudden, op. cit., I ,p. 167; Mann, The Lives of the Popes, Part I, pp. 13-14.

(2) Oman, Dark Ages, p. 191.

(3) Dudden, I, p. 167.

١ — الجزء الشمالى من ايطاليا ، وقد خضعت كل أراضيه للسيطرة اللومباردية ، فيمـا عدا الأراضى التابعة لبيزنطة ، وفى هـذا الجزء تقع بافيا عاصمة المملكة اللومباردية •

٢ — وفى الوسط دوقية سبوليتو القوية ، التى دأبت على تهديد بنتابوليس فى الشمال ، والأقاليم البيزنطية فى الغرب •

— وفى الجنوب دوقية بنفنتوم •

ومن الواضح أن الممتلكات اللومباردية كانت تقع فى داخل شـبه الجزيرة الايطالية ، فى حين تركزت الممتلكات البيزنطية على السـواحل والأنهـار الملاحية ، باستثناء بيروجيا • ووجه الأهمية هنـا أن البيزنطيين احتفظوا بتفوقهم فى المواصـلات البحرية ، حيث اسـتطاعت أساطيلهم الوصـول الى أية مدينـة امبراطورية على السـاحل دون عقبـات • إذ لو أن اللومبارديين وجهـوا عنايتهم لبنـاء أسـطول قوى ينافس الأسطول البيزنطى ، لحرمت المدن الامبراطورية من أخص مصادر عونها ، وسهل أمر سقوطها فى أيدى اللومبارديين (١) • ولكن اللومبارديين بطبيعتهم كانوا أمة غير بحرية (٢) •

نهوض البـابوية :

وإذا كانت خريطة ايطاليا السياسية فى نهـاية القرن السادس قد توزعت بين قوتين همـا البيزنطيون واللومبارديون ، فانه من الأهميـة بمكان الاشارة الى أن روما التليدة عاصمة أباطرة الرومان فى الأزمنة

---

(1) Dudden, op. cit., I, p. 167.

(2) Oman, op. cit., p. 190.

الخالية ، ومقر الكرسى البابوى صاحب السيادة العليا على الكنيسة فى الغرب الأوربى ، قد بدأت فى الظهور كقوة سياسية ثالثة احتلت مكانا فى خريطة ايطاليا آنذاك •

وبداءة لم تستطع البابوية تحقيق هذه السياسة فى سهولة ويسر ، فالواقع أنها تحملت من أجلها سنوات طويلة من التحدى والمقاومة • وقد نبتت فكرة زعامة روما الحربية على العالم المسيحى فى القرن الخامس فى ذهن البابا إنوسنت الأول (٤٠٢ — ٤١٧) ، وبعده بسنوات قليلة شغل الكرسى البابوى ليو الأول أو العظيم (٤٤٠ — ٤٦١) ، الذى شاءت الظروف أن تضعه كواحد من الأسماء العظيمة فى تاريخ البابوية ، وذلك عندما زحف آتيلا زعيم الهون بجحافله على روما سنة ٤٥١ ، مما جعلها وشيكة السقوط فى يده ، ولكنه انسحب من أمام أسوارها عائدا الى مقر امبراطوريته فى هنغاريا ، بعد أن أقنعه ليو العظيم بأن اقتحامه روما سوف لا يعود عليه بنفع (١) •

ويعتبر البابا ليو العظيم أول من تمسك بمبدأ الزعامة البابوية على سائر جميع الكنائس المسيحية ، ولم تعارضه فى هذا الاتجاه سوى الكنيسة الشرقية • وقد ظهر نفوذه واضحا فى مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ ، عندما انتصر رأيه القائل بأن للمسيح عليه السلام طبيعتين ، فهو إله من طبيعة أبيه ، وبشر من طبيعة أمه • كما تمسك بمبدأ تفوق الكرسى البابوى على جميع أسقفيات الغرب الأوربى • ويتمثل ذلك بوضوح عندما طالب هيلارى الآرلى Hilary of Arles بتفوق كنيسة الغال على ما عداها ، ورفض الاعتراف بشرعية الكرسى البابوى فى روما ، عندئذ أعفاه ليو من منصبه ، ووقف الامبراطور فالنتينان الثالث (٤٢٥ — ٤٥٥) الى جانب ليو ، فى مرسوم شهير أصدره

---

(1) Workman, The Papacy and Temporal Powers, p. 2489.

محمود الحويرى : رؤية فى سقوط الامبراطورية الرومانية ، ص ١١١ •

سنة ٤٤٥ أعلن بموجبه إنكار دعوى هيلارى ؛ ولم يؤيد البابا فى زعامته الدينية فحسب ، بل أصر على وجوب الاحتكام اليه فى حالة نشوب أى خلاف فى كنيسة الغال (١) .

ولا شك أن أحوال الجزء الغربى من الامبراطورية ساعدت على علو مكانة البابوية ، خاصة أنها غدت القوة الوحيدة الباقية فى هذا الجزء ، وسط عواصف الغزوات البربرية التى داهمته ، واقامت ممالك لها على أنقاضه . ومما يذكر أن الجرمان دأبوا على احترام الكنيسة الغربية الكاثوليكية ، ولم يتعرضوا لها بالأذى . ويدل على ذلك أنه عندما استقر ثيودريك ملك القوط الشرقيين بقومه — وهم على المذهب الآريوسى — فى ايطاليا فى القرن الخامس ، عامل رعاياه الرومان الكاثوليك معاملة طيبة مفعمة بالتسامح ، فلم يفرق بينهم وبين قومه فى الامتيازات ، كما أنه لم يتدخل فى شئون البابا أو طريقة انتخابه ، ويمكن القول أن البابوات حصلوا من ملوك القوط الشرقيين على نوع من الاعتراف ، بوصفهم ممثلين شرعيين لسكان ايطاليا الرومان الكاثوليك (٢) . ولكن المزايا التى تمتع البابوات بها خلال حكم القوط الشرقيين ما لبثوا أن حرموا منها على عهد جستنيان ، إذ بعد أن أطاح بالقوط الشرقيين أحكم قبضته على الكنيسة الغربية وفرض نفوذه على البابوات ، بوصفه الوريث الشرعى للامبراطورية الرومانية . والى جانب ذلك عامل البابوات معاملة أوتوقراطية ، فحاكمهم حسب مشيئته ، وزج بالبعض منهم فى غياهب السجون . والخلاصة أنه طالما كان النفوذ الامبراطورى قويا فى ايطاليا ، بقيت سلطة البابا محدودة الى حد كبير (٣) .

---

(1) Workman, op. cit., pp. 2484 - 2485.

(2) Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 214; Hoyt & Chodorow, Europe in the Middle Ages, p. 43.

(3) Oman, op. cit. p. 199.

ولكن أوضاع البابوية سرعان مـا تغيرت فى أعقاب المرحلة الأولى من الغزو اللومباردى ، الذى مزق ايطاليـا الى قوتين سياستين كمـا أسلفنا • ذلك أن نواب الامبراطور البيزنطى فى ايطاليا أدركوا أن روما العريقة لم تعد مقرا مناسبا لهم ، على النقيض من رافنـا التى تميزت بمناعتها وسط الأحراش ، الى جانب قربهـا من الحدود اللومباردية • ومنـذ ذلك الوقت أغلق النائب الامبراطورى — أو الاكسارخ — على نفسه فى رافنـا ، فى حين فوض سلطاته المدنية والعسكرية فى الأقاليم المبعثرة الخاضعة لنفوذه الى موظفين ، كان دوقـا روما ونابولى أعلاهم قدرا • وممـا لا شك فيه أن اتخـاذ رافنا قاعدة للنفوذ الامبراطورى ، ترك آثارا بعيـدة المدى على مسـتقبل الأحوال السياسية فى ايطاليا ، يأتى فى مقدمتهـا أن دوق روما بوصـفه علمانيا أقل شأنا من البابا صاحب السـلطة الدينية العليـا ، جعل الأخير يصول ويجول فى روما دون منافس (١) • ومن حسن حظ البابوية آنذاك أن الأباطرة البيزنطيين قد انشغلوا عن ايطاليـا بحروبهم فى الجبهـة الشرقية ، وألقوا على عاتق الاكسارخات مهمـة التصـدى للومبارديين ، دون أن يعملوا على تزويدهم بالامدادات الكافية من الجند أو الأموال • هـذا فى الوقت الذى تعذر على الاكسارخات الاتصال بروما الا بصعوبة بالغـة : فالطريق البرى المؤدى اليهـا دأب دوق سبوليتو على قطعـة باستمرار ، فى حين كان الطريق البحرى شاقا وطويلا • ونخرج من هذا كله الى أن رومـا تركت وحيدة دون مدافع ، عليها أن تحل مشاكلها بنفسها فى حدود مواردهـا وامكاناتها المتـاحة ، دون انتظـار الأية مساعدة سواء من الامبراطور أو الاكسارخ • وقد عبر البابا جريجورى العظيم عن ذلك فى كتاباته قائلا أن روما ظلت تعيش فى خطر داهم فرضه اللومبارديون عليهـا فترة بلغت سبعا وعشرين عاما (٥٧٢ — ٥٩٩) ، اضطرت خلالها للنهوض بأعبائها • وفى وسط هـذه الظروف ، بدأ البابوات يمارسون

---

(1) Oman, op. cit., p. 198.

سلطتهم العلمانية (الزمنية) على روما وضواحيها ، وأنزلوا الحكام المدنيين الى مرتبة ثانوية ضئيلة الأهمية (١) • وبمعنى آخر اتسع نفوذ البابوية ، وبات من المؤكد أنها أصبحت احدى القوى السياسية الحاكمة فى ايطاليا ، الى جانب البيزنطيين واللومبارديين •

وشاء حسن طالع البابوية فى أواخر القرن السادس أن يقود دفتها شخصية عظيمة لعبت دورا بارزا فى تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ونقصد بهذه الشخصية البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) ، الذى قدر له أن يقف فى مفترق الطرق بين حضارتين : حضارة رومانية عظيمة أمست فى طور السبات أو الاحتضار ، وحضارة جديدة آخذة فى النمو قامت على أكتاف العالم البربرى النشيط • وبمعنى آخر ، كان جريجورى حلقة وصل بين التقاليد الرومانية فى العصور القديمة ، وبين التقاليد الرومانية الجرمانية فى العصور الوسطى •

ولد جريجورى العظيم حوالى سنة ٥٤٠ ، فى أسرة من أعرق الأسر الرومانية النبيلة الثرية ، التى أنجبت أحد البابوات ، وكثيرا من أعضاء السناتو ، وأصحاب مناصب عليا فى الكنيسة ودوائر الحكومة (٢) • وقد شهد فى نعومة أظفاره روما العريقة وهى تخضع لحصار تلو حصار ، وقاسى مع سكانها المجاعات والأوبئة ، وكان جريجورى فى السادسة من عمره عندما زحف توتيلا ملك القوط الشرقيين على روما سنة ٥٤٦ وتركها نهبا لبرابرته الأفظاظ ستة أسابيع كاملة (٣) • ولا نعرف عن فترة صباه إلا القليل ، من بينه أنه تلقى تعليمه على الطريقة الكلاسيكية التى لخصها مارتيانوس كابيلا فى مقولته عن الفنون الحرة السبعة ، التى تنقسم الى مجموعتين : المجموعة الثلاثية وتشمل

---

(1) Ibid, pp. 199-200.

(2) Hodgkin, V, p. 287; Oman, op. cit., p. 132.

(٣) اسحق عبيد : الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ص ١٨٠ — ١٨١ •

النحو والبلاغة والجدل ، والمجموعة الرباعية وتشمل الموسيقى والحساب والهندسة والفلك ، فدرس الفنون الثلاثة الأولى ، أما بقية هذه الفنون ، فقد كان على غرار معاصريه لا يعرف عنها إلا القليل ، أو بالأحرى لا يعرف عنها شيئا (١) .

وبينما كان جريجورى يخطو نحو الرجولة ، شاهد القوط الشرقيين رهم يتساقطون تحت ضربات جستنيان ، وفى سنة ٥٦٨ رأى جموع اللومبارديين وهى تنثال فجأة فى شمالى ايطالى (٢) ، حيث كان يشغل وقتئذ أول وظيفة مدنية له فى روما . وفى سنة ٥٧٣ أسند اليه منصب البرايتورية (والى المدينة) Praefectus Urbi ، وهى أعلى وظيفة مدنية فى روما ، إذ كان صاحبها مسئولا عن السلطة القضائية العليا فى نطاق مائة ميل من المدينة ، فضلا عن تزويد المدينة بكميات القمح اللازمة لها ، والعناية بقنوات المياه ، والموظفين ، والشرطة ، والشئون المالية (٣) .

ومع أنه تسنم أعلى المناصب المدنية فى روما ، فقد كان فى الواقع مأخوذا بنزعة دينية قوية منذ صغره ، جعلته يعزف عن هذه المناصب ، ويتخذ قرار خطيراً فى حياته ، ذلك أنه فى سنة ٥٧٥ وكان قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ترك منصبه ، ووزع ثروته بين الفقراء ، وباع ضياعه الواسعة باستثناء قصر واحد فى تل كويليان حوله الى دير أهداه للقديس أندروز ، حيث التحق به راهبا على النظام البندكتى ، وفى هذا الدير مكث ثلاث سنوات (٥٧٥ ــ ٥٧٨) ، يستمتع خلالها

(1) Deanesly, A Hist. of the Medieval Church, p. 17.

(2) Stephenson, Medieval Europe, p. 132.

(3) Hodgkin, V, p. 288; Deanesly, p. 17; Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 214.

بالهدوء والعزلة والسكينة والتأمل الروحى (١) •

ويرجع السبب فى خروج جريجورى من عزلته الديرية فى عام ٥٧٨ الى أن البابا بيلاجيوس الثانى (٥٧٨ — ٥٩٠) قام بتعيينه شماسا ، وفى ربيع العام التالى (٥٧٩) أرسله مبعوثا بابويا (قاصدا رسوليا) لدى بلاط القسطنطينية ، لحث الامبراطورموريس على إنقاذ ايطاليا من عمليات النهب الواسعة التى دأب اللومبارديون على ارتكابها ، وكذلك دعمها بقوات عسكرية ومعونات مالية ، ولكنه لم يحقق إلا نجاحا ضئيلا فى مهمته • ومما يذكر أن جريجورى ابان اقامته بالقسطنطينية لم يهجر أسلوب الرهبنة وتقاليدها ، مما جعل كثيراً من أهالى هذه المدينة يقبلون على الحياة الديرية (٢) • ومهما يكن من أمر ، فقد عاد الى روما بعد حوالى ست سنوات تسبقه شهرة واسعة ، ولم يلبث أن التحق بدير القديس أندروز سنة ٥٨٦ ، وفى هذه المرة لم يدخله كراهب عادى ، بل مقدما (رئيسا) اشتهرت قاعدته بالصرامة والتقشف • وليس من شك أن السنوات القليلة التى قضاها بالقسطنطينية كانت كافية بالقدر الذى يجعله يقف على ضعف الامبراطور موريس ، وعجزه عن علاج الموقف المتدهور فى ايطاليا (٣) •

وكان أن توفى البابا بيلاجيوس الثانى فى ٨ فبراير سنة ٥٩٠ ، من جراء الطاعون الذى اجتاح ايطاليا فى هذا العام • وعندئذ اشتدت رغبة الأهالى ورجال الدين فى أن يخلفه جريجورى على الكرسى البابوى ، وقد عبروا عن ذلك باندفاعهم الى بوابة دير القديس اندروز الأمر الذى ترتب عليه أن انتخب جريجورى بابا فى سبتمبر من نفس

---

(1) Hodgkin, V, pp. 288-289; Deanesly, p. 18; Wallace - Hadrill, Italy and the Lombards, p. 60, in The Barbarian Invasions, ed. by Katherine Fisher.

(2) Deanesly, op. cit., p. 18.

(3) Hodgkin, V, pp. 292 - 298; Oman, op. cit., pp. 200-201.

العام (٥٩٠) ، وجرت مراسيم تكريسه دون تصديق من الامبراطور (١) ، بسبب الغارات اللومباردية التى تسببت فى قطع خطوط المواصلات ، وحالت دون وصول التصديق إلا فى وقت لاحق (٢) .

وبارتقاء جريجورى منصب البابوية ، تغير شأن الكنيسة الغربية تغيراً شاملا ، إذ أكد نفوذه على جميع أساقفة الغرب الأوربى ، ووجه عنايته لتلبية أية استغاثة تأتيه من الشرق البيزنطى ، وحارب الفرق الهرطقية مثل الدوناتيين Donatists بشمال أفريقية ، وحرم الاتجار بالمناصب الكنسية (السيمونية أو السمعانية) التى كادت أن تحطم حياة الكنيسة الغربية كلها ، فى ذات الوقت انصبت صرامته الدينية على العلمانيين ، الذين كانوا يديرون أملاك الكنيسة ، فأعلن أنه لا يحق لأى علمانى أن يدير جزءا منها (٣) .

ولعل أهم عمل قام به جريجورى هو نشر المسيحية بين الوثنيين ، رتحويل عقيدة الكثير من الشعوب الجرمانية الآريوسية الى الكاثوليكية ، وأكثر ما يظهر ذلك فى القوط الغربيين فى أسبانيا على عهد ملكهم ريكارد (٤) الأول (٥٨٦ — ٦٠١) ، وفى بعثة القديس أوغسطين الصغير مقدم دير سانت أندروز ، التى أرسلها الى شعوب الأنجلو ساكسون المقيمة فى كنت بانجلترا ، حيث استطاعت أن تحولهم من الوثنية الى المسيحية (٥) . أما فى ايطاليا ، فهو صاحب الفضل المشهود فى

---

(1) Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., pp. 19-20; Wallace - Hadrill, p. 61; Deanesly, op. cit., p. 19.

(1) Oman, p. 201.

(3) Deanesly, p. 201.

(4) Oman, p. 202; Wallace - Hadrill, p. 62; Oitone, Outlines of Med. Europe, p. 124.

(5) Paul the Deacon, pp. 129-131.

تدعيم جـذور المذهب الكاثوليكى بين اللومبارديين ، من خـلال تأثيره على ملكتهم ثيوديلند! •

ومع أن جريجورى لم يكن دارسا متعمقا ، إلا أنه فى الواقع كان صاحب الفضل الأول فى تبسيط العقيدة المسيحية لشعوب أوربا العصور الوسطى على مدى ألف عام • وان كانت لغته التى استخدمهـا وهى لغة الفولجـاتا سكريبتـا Vulgata Scripta ، قـد رأى فيهـا النقـاد دليلا على الضعف الذى أصـاب الحياة الأدبية فى غرب أوربا ، صحيح أنه لا يطـاول ــ من الناحية الفكرية ــ كمبريان أو أمبروز أو أوغسطين ، ولكنــه كان يبزهم وهو يعظ فوق المنبر (١) ، بالاضـافة الى أن مؤلفاته تجاوزت سير القديسين ، الى الشروح والتفسيرات الدينية ، وخير دليل على ذلك ما جاء فى كتابه قاعدة راعى الكنيسـة Liber Regulae Pastoralis الذى تتـاول فيه وظيفة رجل الدين وسلوكه الأخلاقى فى حياته الكنيسة ، ولهـذا السبب اختار الملك ألفرد الكبير (٨٧١ ــ ٨٩٩) هـذا الكتاب لترجمته إلى اللغـة الانجليزية (٢) • ولا شك أن جريجورى بثقافتـه الرومانية يمثل ذكريات عصر زائل ، بينمـا هو بصرامته الدينية وأفكاره البسيطة ، قد عجل ببنـاء المثاليات الروحية والحيـاة الفكرية للأزمنة القادمة فى غرب أوربا • وهـو أول قادة الكنيسة فى أوربا العصـور الوسطى ، تسلم ــ كما يقول عن نفسـه ــ قيادة « سفينة الكنيسـة العطبـة التى تسربت إليهـا الأمواج من جميع الجوانب ، وصـارت أخشابها المتآكلة تصر وتئن وسـط الأعاصير » (٣) ، فجعلها صالحـة للإبحـار •

---

(١) اسحق عبيد : المرجع السابق ، ص ١٨٢ •

(2) Wallace - Hadrill, p. 60; Hulme, The Middle Ages, p. 100; Hollister, Medieval Europe, p. 47.

(3) Hulme, op. cit., p. 100.

وصفوة القول ، أنه لم يكن ثمـة رجل لائق لشغل منصب البابوية آنذاك من ناحية المولد والثقافة والمقدرة ، أكثر من جريجورى . إذ يكفى أنه خلال الأربعـة العشر عاما التى قضاها فى منصـبه ، كان لنبالة أفكاره المقترنة بحكمته العملية النادرة ، أعظم الأثر فى انتقال فكرة السمو البابوى من حيز النظرية الى صرح الواقع ، حتى يمكن القول أن البابوية آنذاك قد أضحت قوة عالمية (١) .

اللومبارديون والبابوية :

رأينـا أن اللومبارديين لم يأتوا الى ايطاليا محالفين للامبراطورية البيزنطية ، ولكنهم دخلوهـا بوصفهم أعداء فاتحين ، هدفهم الاستقرار على حساب الأهالى التعسـاء ، ثم رأينا مدى الخراب الذى أصاب مدن ايطاليا وقراها على أيديهم ، حتى أن الكنائس لم تفلت من عبثهم . إذ هدموا تسعين أسقفية ، وصادروا أموال الكنائس وممتلكاتها ، وضايقوا البابوات حنا الثالث (٥٦١ — ٥٧٤) ، وبندكت الأول (٥٧٥ — ٥٧٩) ، وبيلاجيوس الثـانى (٥٧٩ — ٥٩٠) ، وقد دأب الأخير على ارسـال استغاثات عاجلة الى القسطنطينية ومملكة الفرنجة لانقـاذ البابوية من خطر التوسع اللومباردى الذى يهـدد أملاكها فى وسط ايطاليا ، ولكن دون جدوى (٢) . ذلك أنه فى سنة ٥٨١ استنجد — لأول مرة — بالفرنجة لحمايته من اللومبارديين بوصفهم أعداء الكاثوليكية ، فى ذات الوقت بعث برسالة الى أسقف أوكسير Auxere ، جاء بها أن اللومبارديين يجدون لذة فى سفك دماء الأبرياء ، واهانة مخالفيهم فى العقيدة ، وطلب أن يبـذل جهوده لمنع ملوك الفرنجة الكاثوليك من التحالف مع أعـداء الكنيسة (٣) . وفى ٤ أكتوبر سنة ٥٨٤ كتب أيضا الى مندوبه جريجورى —

---

(1) Stephenson, op. cit., p. 133.

(2) Dudden, op. cit., I, pp. 158-159; Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 214.

(3) Hodgkin, V, pp. 229-240; Villari, op. cit., II, p. 287.

وهو الذى خلفه فى منصب البابوية — فى البلاط البيزنطى رسالة مشابهة ؛ طلب فيهـا أن يعطى الامبراطور موريس صـورة عن المتـاعب التى يعانيها رعاياه الآمنين على أيدى اللومبارديين ، ويحثـه على انفـاذ قوة لدفع أذاهم عن روما ، التى خلت من قوة كافية للدفاع عنها (١) •

وهـكذا يتضح لنـا أن وضع الكنيسة الغربية كان محفوفا بالأخطار والمصاعب ، عندما ارتقى جريجورى الأول منصب البابوية • ففى خارج أسوار رومـا كانت السيوف اللومبادية تفتك بالرقاب ؛ وفى داخلهـا اشتعلت ثورات الجند وفتنهم • وهنـا نلاحظ أنه كان بوسع جريجورى امتصاص ثورات الجند بتوزيع أموال الكنيسـة عليهم ، ولكنـه وقف عاجزا عن التصـدى لخطر اللومبارديين ، خاصـة دوقى سـبوليتو وبنفنتوم • فالأول وهو أخطر جار لرومـا وقتذاك ، قد دأب على قطع طريق المواصلات بين روما ورافنا ، ونعنى بذلك طريق فلامينيا Via Flaminia الذى يمـر من خلال دوقيته ، أمـا الآخر وهو الذى تقع دوقيتـه فى الجنوب ،فقد كان مصـدر تهديد مستمر لنابولى ، فى الوقت الذى أحكم قبضته على طريق المواصلات بين روما وبرنديزى (٢) •

وعلى أية حـال ، شهدت سـنة ٥٩١ موت زوتو دوق بنفنتوم ، وفاروالد دوق سبوليتو ، وقـد خلف زوتو الدوق أريكيس Arichis فى حين خلف فاروالد الدوق أريولف Ariulf • وفى هـذا العـام أيضا نزل جفاف شديد بأرض ايطاليـا ، أعقبته مجاعة شديدة الوطأة على الأهالى (٣) ، فى الوقت الذى ظل الطاعون يفتك بهم • والحـق أن جريجورى لم يدخر وسعا فى إنقـاذ روما من المجاعة ، إذ أمر أسقف صقلية بشراء كميـات ضخمة من القمح ، جرى نقلهـا الى روما • وعلى الرغم من ذلك ، لم يتورع اللومبارديون عن القيـام بشـن

(1) Hodgkin, V, pp. 240-241; Villari, II, p. 288.

(2) Dudden, II, pp. 6-7; Deanesly, op. cit., p. 20.

(3) Paul., p. 151.

غارات على الأراضى الرومانية ، فنهبوا أديرة بروتى وطردوا رهبانهـا ، كمـا اقتحموا بعض جزر ساحل كمبانيا ، ممـا أدى الى فرار أعداد ضخمة من سكانها (١) • وليت الأمر إقتصر على ذلك ، إذ فى سبتمبر من نفس العام (٥٩١) وردت الأنبـاء الى جريجورى ، متضمنة أن أريولف دوق سبوليتو بصـدد تجهيز حملة ضخمة يداهم بهـا روما أورافنا • والواقع أن جريجورى لم تفـارقه يقظته وتنبّذ ، إذ فضـلا عن أنه تأهب للدفاع عن روما ، حشد قوات على الحدود لرصد تحركات أريولف ، وأمرهـا بالإغارة على ضواحى سبوليتو ، حال ظهور أول بادرة تؤكد صحة هـذه التحركات ، ومن ثم يضطر أريولف للرجوع عن غرضـه لحمـاية دوقيته • ولكن أريولف حول نظره عن القيـام بحملته ، الأمر الذى هيأ لجريجورى أن يقضى فصل الشتاء فى هدوء وسلام (٢) •

والى جانب هـذا ، بدأ القلق يسـاور جريجورى على حـدوده الشمالية ، التى كانت خطوطها الدفاعية عاجزة عن صـد أى هجوم يقع عليهـا من قبل دوقية توسكانيا اللومباردية • ولمـا كانت مدينة نيبى البيزنطية Nepi الواقعة على بعد ثلاثين ميلا شمالى رومـا ، تعـد أضعف نقطة فى هـذه الحدود ، وتشكل خطرا على رومـا (٣) ، وتحت ضغط الحاجة الى حمايتها ، أقدم جريجورى على اتخاذ خطوة جريئة تتصف بالجرأة والشجاعة ، إذ عين حاكمـا عسكريا عليهـا من قبله • ولا يخفى أن عجز بيزنطة عن إرسال نجدات الى ايطاليـا ، هو العامل الفاصل فى اتخـاذ هـذه الخطوة ، الأمر الذى جعله يتحمل مسئولية الدفاع ن رومـا ، وقد مكنته موارده المالية الضخمة ، ونفوذه العظيم ، ونشاطه الزائد ، من تحمل هـذه المسئولية وتأمينها (٤) •

---

(1) Dudden, II, pp. 8-9.
(2) Ibid, pp. 9-10.
(3) Ibid, pp. 10-11; Deanesly, op. cit., p. 22.
(4) Dudden, II, p. 11.

ومما يشهد بحرصه البالغ على دفع أى خطر خارجى عن روما ، ما حدث فى صيف العام التالى (٥٩٢) • إذ تجددت مخاوفه من قبل دوقية سبوليتو ، ومن ثم كتب الى قواته المرابطة على الحدود بما يجول فى خاطره ، وزودها بتعليماته السابقة المتضمنة ضرب مؤخرة جيش أريولف (١) • وكان الأخير قد خرج على رأس حملة استطاعت الاستيلاء على مدن سوترى ، وبومارزو ، وتودى ، وأميليا ، وكانتيانو ، وأورتا ، وبيروجيا التى تعتبر مفتاح الطريق بين روما ورافنا ، ثم ظهر فجأة أمام أسوار روما فى يوليو سنة ٥٩٢ (٢) • وفى الوقت نفسه ، وبالاتفاق مع أريولف ، أغار أريكيس دوق بنفنتوم على كمبانيا ، ثم انطلق بقواته صوب مدينة نابلى ، التى كانت تموج بالفوضى آنذاك ، وليس بها حاكم أو قائد يحميها ، وخشية أن تقع فى أيدى أريكيس ، لم يتردد جريجورى فى تعيين قائد عسكرى من قبله يدعى قنسطنطيوس للدفاع عنها ، وأمر الحامية بطاعته (٣) •

ومن الواضح أن ما قام به جريجورى بتعيين قائد عسكرى لمدينة نابولى ومن قبلها مدينة نيبى ، كان عملا بالغ الجرأة ، يعتبر فى الواقع تعديا على حقوق بيزنطة ، ومن العجيب أن هذا العمل لم يلق أية معارضة من قبل الاكسارخ بوصفه صاحب السلطتين العسكرية والمدنية فى ايطاليا • وعلى أية حال ، لم يكتف جريجورى بما قام به فى هذا الصدد ، فقد دفعه تدهور أحوال بيزنطة وعجزها عن أحكام قبضتها على ايطاليا ، الى التفكير فى عقد صلح مع أريولف دوق سبوليتو ، ويمكننا أن نستشف ذلك من مضمون الرسالة التى بعث بها البابا الى رئيس أساقفة رافنا سنة ٥٩٢ ، اذ جاء بها أن الاكسارخ رومانوس بقواته الضعيفة لا ينوى الدخول فى حرب مع اللومبارديين ، كما أن قناعته ـ

---

(1) Ibid, pp. 11-12.

(2) Ibid, p. 16.

(3) Ibid, pp. 12-13; Mann, The Lives of Popes, I, p. 104.

أى جريجورى — باليأس من وصـول نجدات من القسطنطينية لدفع أذاهم ، قد رسخت فى ذهنه تماما • ولا مراء أن تفكير جريجورى فى الصلح كان نابعـا من حرصه الشديد على تأمين سلامة مدينة رومـا ، ولهذا عقد اتفاقية سلام بينـه وبين أريولف فى يوليو سنة ٥٩٢ طبقـا للوضع الراهن Statu quo (١) • وكانت نتيجة هـذه الاتفاقية أن أحدثت أثرا سيئا فى القسطنطينية ورافنا ، حتى أن الامبراطور موريس دمغهـا بالحماقة والطيش ، فى حين رأى الاكسارخ ضرورة القيـام بعمل يعجل بابطالها ، فانطلق بقواتـه ، ولم يلبث أن استعاد المدن التى انتزعهـا أريولف الواحدة بعـد الأخرى (٢) ، الأمر الذى أدى الى فتح طريق المواصلات بين رافنا وروما من ناحية ، وفصـل الممتلكات اللومباردية الجنوبية عن شمالها من ناحية أخرى (٣) •

وفى هـذه الأثنـاء كان الملك أجيلولف مشغولا باخضـاع بعض الدوقات الخارجين عليه ، فلمـا علم بمـا حدث من الاكسارخ وفقدان بيروجيا الحصينة بصـفة خاصة ، ثارت ثائرته وصمم على الانتقام ، وعلى الفور خرج من بافيا (٥٩٣) على رأس جيش كثيف زحف بـه جنوبا تجـاه روما ، وفى الطريق إليهـا استرد مدينة بيروجيا ، ولم يلبث أن وصل رومـا وفرض الحصار عليها ، فى حين كان البابا منهمكا فى القـاء عظاته عن النبى حزقيال ، فبادر بقطعهـا وتأهب للدفاع عن المدينة (٤) • ومن أعلى أسوارها شاهد الأسرى من الأهالى الرومان ، وهم يسـاقون كالكلاب ، وفى أعنـاقهم القيود ، ليباعوا عبيـدا فى اقليم الغـال (٥) •

---

(1) Dudden, II, pp. 13-16.

(2) Ibid, pp. 16-17.

(3) Mann, op. cit., I, p. 105.

(4) Dudden, II, pp. 17-21; Deanesly, op. cit., p. 22; Mann, op. cit., I, p. 105.

(5) Dudden, II, pp. 21-22.

ومن الملاحظ أن الحصـــار الذى فرضه أجيلولف على روما لم يستمر طويلا • ذلك أن أن البابا وقائد قواته الذى تمكن من دخول رومـــا قبل أن يصلها أجيلولف بوقت قصـــير ، كانا على درجة من اليقظة والحرص وفرت لهمـــا الصمود خلف أسوار المدينة ، ومن ثم ضاعت على أجيلولف فرصة مداهمتها • وإذ كان أجيلولف غير راغب فى البقـــاء طويلا تحت أسوار رومـــا ، خشية أن تتفشى الحمى بين قواته من جهـــة ، ولاحتمال أن يستغل الاكسارخ فرصة غيابه عن أراضيه ويقوم بالاغارة عليهـــا من جهة أخرى ، فقد أسرع الى فض الحصـــار وانسحب عائدا الى بافيا فى أواخر صيف سنة ٥٩٣ ، مكتفيا بمـــا أحرزه من انتصـــارات على الاكسارخ والغنائم التى حصل عليهـــا (١) • والى جانب ذلك ، يبـــدو أن البابا أجرى مفاوضات مع أجيلولف ، ترتب عليهـــا أن حصل الأخير على مبلغ ضخم من المـــال ثمنا لانسحابه • ويرى البعض أنه على الرغم من أن جريجورى جهز المدينة لمقاومة الحصار الذى فرضه أجيلولف عليها ، فقد أحس بثاقب نظره أن المدينة بأسوارها الضعيفة وحاجتها للرجال والمؤن ليست فى مأمن من السقوط ، ولذلك عمل على انقاذها بجهوده الخاصة ، وكما قابل البابا ليو العظيم آتيلا من قبل وأقنعه بالعدول عن اقتحام روما ، كذلك فعل جريجورى نفس الشىء ، إذ تقابل مع الملك البربرى على درجات كنيسة القديس بطرس ، واستطاعت حكمته أن تتغلب على أطمـــاع أجيلولف ، فانسحب من الحصـــار وعاد بقواته شمالا فى سنة ٥٩٤ (٢) •

وإزاء الخطر الذى تعرضت له رومـــا ، سيطرت عـــلى جريجورى فكرة إنهاء الحرب بين اللومبارديين والامبراطورية البيزنطية ، والتوسط بينهمـــا فى عقد اتفاقية سلام شامل • وتنفيذا لهـــذه الغاية ، اعتمد البابا أساسا على صداقته للملكة الكاثوليكية ثيوديلندا ذات النفوذ الواسع على

---

(1) Ibid, p. 22.

(2) Mann, op. cit., I, pp. 106-107.

شعبهـا فى التأير على زوجهـا أجيلولف ، وبذل جهودهـا فى إرساء دعائم الســلام • وممـا يذكر ، أنه خلال المفاوضات التى جرت بين البابا والاكسارخ رومانوس حول عقد اتفاقية السلام مع اللومبارديين ، رفض الأخير شروطها على الاطلاق (١) •

ولمـا تيقن البـابا من أن رومانوس يقف حجر عثرة فى طريق السلام ، بدأ يفكر جديا فى عقد اتفاقية ســلام منفردة من جانبــه مع اللومبارديين • وفى ضوء هـذا التفكير حاول أن يدفع رومانوس مرة أخيرة للانضمام الى هـذه الاتفاقية ، وذلك بالتلميح له أن بوسعه عقدها دون الرجوع الى بيزنطة ، ويبدو ذلك واضحا من رسالة بعث بهـا جريجورى الى صديق له فى رافنـا فى مايو سنة ٥٩٥ ، حثه فيهـا على مضاعفة جهوده مع رومانوس واقناعه بمصافحة يد السلام الممدودة له ، خاصة أن أجيلولف أظهر ميله الى الســلام ، أمـا اذا تمسك رومانوس بعنـاده وصلفه ، فليس أمامه — أى جريجورى — الا عقد الصــلح مع أجيلولف نفســه ، وليس مع دوق تابع مثل أريولف (٢) • وقد أثارت هـذه الرسالة سخط الامبراطور موريس ، فبعث فى يونيو من نفس العام برسالة عنيفة اللهجة الى جريجورى اتهمه فيها بالخيانة والحماقة ، ممـا جعل البابا يرد عليه ردا صارما لم يألفــه الامبراطور من أحد رعاياه من قبل • والجدير بالذكر أنه رغم الموقف الجامد الذى وقفــه موريس من مفاوضات السلام ، فقــد ظل جريجورى على علاقته الودية معــه ، وعلى النقيض من ذلك كان موقفه من رومانوس ، إذ اعتبره سبب المتاعب التى يعانيها من جهــة ، والعقبة الكأداء فى طريقه من جهــة أخــرى (٣) • —

---

(1) Dudden, op. cit., II, pp. 23-24.

(2) Dudden, II, p. 25; Mann, op. cit., I, pp. 108-109.

(3) Dudden, II, pp. 25-26; Stephenson, op. cit., p. 133.

والحقيقة أن الخلاف بين روما ورافنا قد أضحى على مر الأيــام أمرا لا يطاق • ويتبدى هذا الخلاف أن كلا من البابا جريجورى والاكسارخ رومانوس أخذ يكيل التهم للآخر بعرقلة خططه ومشاريعه • ومن الثابت أن ثمـــة أخطاء وقع فيهـــا الاثنان ساهمت فى ايجاد هــذا الخلاف ، من ذلك أن جريجورى كان يتدخل فى أمور رومانوس . فى الوقت الذى لم يقدر الأخير بوصفه ممثل الامبراطورية البيزنطية فى ايطاليا خطط جريجورى حق قدرها ، وبدلا من أن يتم التنسيق بينهما للعمل ضـــد اللومبارديين ، راح كل منهمـــا يقلل من شأن الآخر ، ممـــا جعل الوفاق بينهمـــا مستحيلا (١) • وكان أن مات رومانوس فى نهاية عام ٥٩٦ (أو بداية ٥٩٧) ، ولم يكد البابا يخفى غبطته بموت غريمه وتعيين كالنقوس Callinicus مكانه ، وعلى النقيض من سلفه اتخذ موقفا وديا ازاء البابا ، ساعد على اقالة مفاوضات السلام من عثرتها (٢) •

وأخيرا ، انتهت مفاوضات السلام المتعثرة بالنجاح فى خريف سنة ٥٩٨ • ذلك أن المندوب البابوى فى بافيا أبلغ جريجورى أن الملك أجيلولف والاكسارخ كالنقوس قد وافقـــا على شروط السلام المقترحة ، على أن الاتفاقية لم تصبح سارية المفعول الا فى العـــام التالى (٥٩٩) ، نظرا لأن دوقى سبوليتو وبنفنتوم القويين — أريكيس وأريولف — قد ماطلا بعض الوقت فى التعـــاون مع مليكهمـــا • ومهمـــا يكن من أمر ، فقـــد وقعت اتفاقية السلام بين الأطراف الثلاثة البيزنطيين والبابا جريجورى واللومبارديين ، بعد سبع سنوات • ولا شك أن جريجورى كان أول من تهلل فرحا لهـــا ، بعد أن أرى جهوده المغذية طيلة هــذه السنوات متوجة بالنجاح • وقد عبر عن فرحته فى رسالة شكر بعث بهـــا الى أجيلولف

---

(1) Dudden, II, p. 32.

(2) Dudden, II, pp. 32-33; Mann, op. cit., I, p. 110.

[illegible] ثيودليندا صاحبة اليد الطولى فى حث زوجها على توقيع اتفاقية السلام (١).

وينبغى الاشارة هنا الى ان موريس وأجيلولف قد اختارا وقتا مناسبا لتوقيع الاتفاقية المذكورة بينهما ، إذ قبل أن تبرم معاهدة على مقاطعات الدانوب ودلماشيا ، فلم تتوقف غاراتهم على ولايات الدانوب الجنوبية ، وحاصروا بلغراد مرتين ، وتوغلوا بعيدا حتى وصلوا تيسالونيكا ، [illegible] من ذلك تحرك الآفار من بانونيا صوب الغرب الأوربى ، فأغاروا على تورنجيا ، واشتركوا فى حروب ضد مملكة الفرنجة التى كان الخطر يهددها آنذاك ، ونتيجة لتلك الأخطار التى تعرضت لها الامبراطورية البيزنطية ، لم يكن أمام موريس الا توقيع اتفاقية الصلح مع اللومبارديين ، حيث ناب الاكسارخ كالنقوس عنه فى توقيعها (٢) ، وعلى الجانب الآخر ، كان اجيلولف أشد حاجة الى السلام مع جيرانه فى ايطاليا ، وقد أعطاه السلام فرصة حاسمة ، جعلته يتفرغ لاخضاع الدوقات الخارجين عليه لطاعته . وينبغى ألا يفوتنا أن البابا جريجورى الذى قام بدور حماقة السلام بين البيزنطيين واللومبارديين ، قد ربح الكثير من وراء اتفاقية السلام ، ذلك أن الطرق صارت آمنة ، واستطاعت رسله أن تتحرك خلالها فى أمن ويسر أنى اتجهت ، ناقلة تعاليم الكنيسة وأوامره (٣) .

واذا كانت اتفاقية السلام قد حددت مسار العلاقات بين قوى ايطاليا السياسية الثلاثة البيزنطيين واللومبارديين والبابوية ، فقد أملتها فى الواقع سياسة الأوضاع القائمة فى ايطاليا . وبمعنى آخر جاءت هذه الاتفاقية لأول مرة بعد مضى ثلاثين عاما على الغزو

---

(1) Dudden, II, pp. 36-37; Mann, I, pp. 110-111.

(2) Lot Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 213; Hodgkin, V, p. 422.

(3) Hodgkin, V. pp. 423-424.

اللومباردى . بمثابة اعتراف صريح من الامبراطورية والبابوية بوجود الكيان اللومباردى فى ايطاليا . شأنه فى ذلك شأن مملكة الفرنجة فى الغال ، ومملكة القوط الغربيين فى أسبانيا .

على أن السلام الذى سعى اليه جريجورى الأول طويلا ، وبذل جهدا مضنيا فى سبيل الوصول اليه ؛ ما لبث أن نقضه الاكسارخ كالنقوس دون أن تتوفر لديه أسبا بلذلك . إذ فى ربيع سنة ٦٠١ تحين الأخير فرصة خروج دوتيتى ترنت وغريبولى القويتين على أجيلولف ، وانقض على مدنية بارما . وكان من بين الأسرى الذين ساقهم معه رافنا ابنة الملك زوجها . وهنا خطر على باله أن يستخدم ابنة أجيلولف كوسيلة يضغط بها على أبيها لتعديل شروط اتفاقية السلام لصالح البيزنطيين (١) . ولكن الآمال التى بناها على فعلته الغادرة لم تتحقق . إذ جن جنون أجيلولف خشية أن يصيب ابنته اذى . وبادر بعقد تحالف دائم مع خان الآفار ، تلاه بالزحف على رأس جيشه على الممتلكات البيزنطية ، فاستولى على بادوا المنيعة ودمرها ، كما دمر استريا الواقعة الى الجنوب من بادوا ؛ وأخيرا أوقع الهزيمة بالاكسارخ تحت أسوار رافنا ، الأمر الذى جعل ايطاليا تحت رحمته . وفى يوليو سنة ٦٠٣ انطلق أجيلولف بجيوشه من ميلان ، وقد انضمت اليه أعداد ضخمة من السلاف أرسلها اليه حليفه خان الآفار ، وألقى الحصار على كريمونا حتى سقطت فى يده وسواها بالأرض ، وفى ١٣ سبتمبر استولى على مانتوا بفتح ثغرات فى أسوارها . (٢) . ولا جدال أن الانتصارات التى أحرزها أجيلولف على القوات الامبراطورية بين سنتى ٦٠١ و ٦٠٣ قد وسعت من حدود مملكته ، وأضافت اليها رصيدا جديدا

---

(1) Paul the Deacon, p. 165; Oman, op. cit., p. 194; Hodgkin, V, pp. 428 - 329; Dudden, II p. 39.

(2) Paul., pp. 167-171; Hodgkin, V, pp. 429-423; Dudden, I. p. 111; Mann, op. cit., I, p. 111.

من الأراضى . ونتيجة لذلك لم يعد باقيـــا فى شمال رافنا مدينة امبراطورية هامة . إذ صـــار واى البوكلة فى أيدى اللومبارديين ، وانقطعت الطرق البرية المؤدية الى البندقية .

وفى وسط المصـــاعب التى أحاطت بالبيزنطيين فى إيطاليا ، ســـقط موريس من عرشه سنة ٦٠٢ ، وخلفه فوقاس Phocas ، كما جرى استدعاء الاكســـارخ كالنقوس الى القسطنطينية ، وحـــل محله للمرة الثانية أقدر الذين تولوا هـــذا المنصب ، وهو سماراجدوس . صحيح أنه كان رجلا عنيدا ، ولكنـــه لم يخل من حصافة سياسة وبعد نظر ، بدليل أنه بعد أن درس الموقف البيزنطى فى ايطاليا ، أدرك أن قوته الحربية أعجز من مواجهة اللومبارديين (١). ولذلك أعاد الى أجيلولف ابنته ، وعقد معه هدنة فى سبتمبر سنة ٦٠٣ مدتها ثمانية عشر شهرا (٢) .

وهكـــذا كانت الأيام الأخيرة من حياة جريجورى العظيم يرفرف السـلام عليهـــا . ومع أنه صـــار آنذاء على غراش المرض عاجزا عن التحرك ، ولا يستطيع الكلام إلا بصعوبة ، فقد أملى رسالته الأخيرة التى بعث بهـــا الى ثيوديلندا يزجى فيها الشكر على جهودها من أجل السلام ، ويحثهـــا على مواصلة هـــذه الجهود مع زوجها ، إذ كان يأمل قبل موته أن تستمر علاقات المودة بين الأهالى الرومان واللومبارديين (٣) ، خاصة أن أدالوالد Adalwald طفل أجيلولف الوحيد قد جرى تعميـــده على المذهب الكاثوليكى فى كنيسة القديس يوحنـــا المعمدان فى مونزا (٤) . والجدير بالذكر هنـــا أن أجيلولف ظل على مذهبـــه الآريوسى ، فى الوقت الذى عامل رعاياه الرومان الكاثوليك بتسامح ، الأمر الذى جعل العداوة

---

(1) Hodgkin, V, p. 433; Dudden, II, pp. 39-4; Mann, op. cit., I, pp. 111 - 112.

(2) Paul the Deacon, p. 171.

(3) Dudden, II, p. 40; Mann, op. cit., I, p. 112.

(4) Paul., p. 170.

التقليدية بين اللومبارديين والرومان ، والتى زاد الخلاف المذهبى من مرارتهـا ، تبدأ تدريجيا فى الذوبان (١) •

وأخيرا توفى جريجورى فى روما فى ١٢ مارس سنة ٦١٤ ، تاركـا لخلفائه نفوذا روحيا واسعا ، وسلطة زمنية لم يصـل اليهـا أسلافه • والحق أنه رغم السنوات الصعبة التى شهدتها بابويته ، كان السـلام حلمه الكبير ، ومن أجله دأب على حث أصدقائه وأعدائه جميعا على السير فى طريقه • والملاحظ أنه خلال سعيه للسـلام ، لم يقدم تنازلات من جانبه ، ولم يحد عن إخلاصه لبيزنطة رغم الجحود التى قابلت به جهوده المخلصـة • وصفوة القول أنه صاحب الفضل فى الحفاظ على روما وسط عواصف الفوضى ، فلم يفرط فيهـا للبرابرة ، وظلت فى نظره سـيدة العالم ، ولا يخامرنا الشك فى أن مصيرها خلال سنوات بابويته ، اعتمـد عليـه وحده (٢) •

بقى أن نشير الى أن اللومبارديين تعرضوا فى عهـد أجيلولف لتهديد خارجى واجه دولتهم من جانب السلاف والآفار على الحدود الشمالية الشرقية • إذ أثار السلاف المتاعب لإيطاليا وأجبروا دوقية فريولى عـلى دفع الجزية لهم • أمـا الآفار فقد كانوا أشد خطرا على اللومبارديين من السلاف ، فرغم الاتفاقيات المتكررة التى عقدها أجيلولف معهم ، اندفع خانهم الى شمال إيطاليا فى سنة ٦١٠ ، وذبح جيزولف دوق فريلى فى معركة دارت بينهمـا ، ثم اجتاح البندقية ورجع بالعديد من الأسرى ، ومن حسن حظ أجيلولف أن غزوات الآفار وغاراتهم على الحـدود اللومباردية لم تسـتمر ، إذ انصرفوا عنهـا الى شبه جزيرة البلقان • وعلى الصـعيد الداخلى ، شهدت مملكة اللومبارديين على عهد أجيلولف مرحلة استقرار ، الداخلى بعد أن قضى على شوكة الدوقات الثائرين • واليه يرجع الفضـل

---

(1) Dudden, II, pp. 40-42.

(2) Ibid, II. p. 42.

فى ازدياد رقعة أراضيه على حساب البيزنطيين ، إذ لم يعد باقيا فى أيديهم إلا رافنا والجزائر المحيطة بها ، والبندقية وأبوليا ، وكالابريا ، ونابولى ، وصقلية ، وروما وضواحيها ، وجنوه بما فى ذلك المنطقة الواقعة خلف ساحلها (١) . وقد كانت الفرصة مواتية له لغزو بقية إيطاليا ، ولكنه لم يفعل . ويعزو البعض سبب ذلك الى أنه قارب سن الشيخوخة آنذاك ، وشوق هذا آثر أن يمنح قومه فرصة للهدوء والسلام (٢) . ومهما يكن من أمر ، فان عهد أجيلولف بالنسبة للومبارديين يمثل دور النضج ، إذ فى نهايته بلغوا شأوا بعيدا فى الحضارة ، وصاروا على المذهب الكاثوليكى ، وأخذوا بعد استقرارهم فى وطنهم الجديد يهتمون ببناء الكنائس والقصور ، بدلا من السعى الى تدميرها (٣) .

خلفاء أجيلولف :

مات أجيلولف وخلفه على العرش إبنه الوحيد أد الوالد (٦١٦ — ٦٢٦ —) تحت وصاية أمه الملكة ثيوديلندا (٤) ذات السمعة الطيبة بين قومها ، وفى عهده قامت ثورة فى كمبانيا ، ولقى الاكسارخ حنا (٦١١ — ٦١٦) مصرعه خلال ثورة قام جنده بها من جراء تأخر رواتبهم . على أن الأمر الذى يثير الانتباه أن الاكسارخ إليوثريوس Eleutherius (٦١٦ — ٦١٩) إنتهز فرصة الحصار الذى فرضه الآفار على القسطنطينية ، وأعلن نفسه امبراطورا فى ايطاليا سنة ٦١٩ ، على أساس فصل ايطاليا عن الامبراطورية البيزنطية ، وإقامة إمبراطورية غربية جديدة . ثم كان أن زحف على روما بقصد تتويجه واتخاذها عاصمة له ، ولكنه لقى حتفه على أيدى جنده قبل أن يصلها . ولا شك أن هذه المحاولة رغم

---

(1) Lot, Les Invasions, p. 280; Hoyt & Chodorow, p. 77.

(2) Oman, op. cit., pp. 194-195.

(3) Ibid, p. 195.

(4) Paul., p. 190.

انتهائها بالفشل ، فقد دلت بصورة قاطعة على ضعف النفوذ البيزنطى بايطاليا (١) . والواقع أن الامبراطورية البيزنطية كانت تمر بفترة من أحلك فترات تاريخها فى أوائل القرن السابع ، حتى صارت على وشك الانهيار . إذ فى خلال السنوات العشرة الأولى من حكم الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١) حقق الفرس انتصارات ضخمة فى الجبهة الشرقية . ففى سنة ٦١٢ استولوا على أنطاكية وأفامية وقيصرية ؛ وفى عام ٦١٤ استولوا على دمشق ، وفى العام التالى (٦١٥) احتلوا بيت المقدس . وحملوا معهم الصليب المقدس والمقتنيات والذخائر المسيحية ، واستولوا على مصر فى عام ٦١٧ ، كما تقدموا فى آسيا الصغرى حتى خلقدونية هذا فى الوقت الذى ظهر الآفار — كما أسلفنا — أمام القسطنطينية سنة ٦١٩ (٢) .

وعلى أية حال ، عندما بلغ الملك أدالوالد سن الرشد أصيب بالجنون ، فأقصاه اللومبارديون عن العرش واختاروا مكانه أريوالد دوق تورين (٦٢٦ — ٦٣٦) زوج أخت سلفه جندبرجا ابنة أجيلولف وثيوديلندا ، ولا نعرف عن هذا الملك أى معلومات (٣) ، باستثناء أنه كان على المذهب الآريوسى بخلاف سلفه (٤) .

وعقب وفاة أريوالد ، خلفه على العرش روثارى Rothari (٦٣٦ — ٦٥٢) ، الذى تزوج من جندبرجا أرملة سلفه . وقد استهل الملك حكمه بقتل الكثير من النبلاء المعارضين له ، كما أنه تصرف بقسوة مع زوجته

---

(1) Paul. p. 176: Diehl & Marcais, Hist du Moyen Age, III, p. 151: Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 219.

(2) Diehl, Hist. of Byzantine Empire, pp. 40-41; Villari, II, p. 331.

(3) Paul., pp. 191-192.

(4) Oman, op. cit., p. 196.

الى حد أنه سجنها بقصره فى بافيا خمس سنوات ، ولا نعرف الأسباب التى دفعته الى ذلك ، وإذ كان روثارى آريوسيا ، على حين كانت زوجته كاثوليكية ، فمن المحتمل أن الخلافات المذهبية — أو أى دوافع أخرى — جعلت الوفاق بينهما مستحيلا • وأخيرا أطلق سراحها بفضل كلوفيس الثانى ملك الفرنجة ، حيث كرست بقية حياتها للعبادة وأعمال الخير (١) •

ومما يجدر ذكره أن روثارى سار على سياسة أجيلولف التوسعية ، فخاض حروبا مريرة ضد البيزنطيين فى ايطاليا استغرقت معظم عهده • فاستولى على منطقة ليجوريا الممتدة من نيس الى لونا (لونى) بما فيها عاصمتها جنوه سنة ٦٤١ ، كما استولى على مدينة أودرزو على ساحل البندقية ، على أن أعظم انتصار حققه كان فى سكولتينا بالقرب من مودينا ، حيث ألحق بالاكسارخ اسحق هزيمة حاسمة راح ضحيتها ثمانية آلاف جندى ، إرتد على إثرها بفلوله الى رافنا (٢) • وهنا ينبغى الاشارة الى أن هرقل امبراطور الدولة البيزنطية كان فى شغل شاغل بمتاعبه الجسيمة على الجبهة الشرقية ، ونعنى بذلك موجة الفتوح العربية الواسعة بغية نشر الدين الاسلامى ، الأمر الذى دفع هذا الامبراطور الى سحب القوات التى خلفها أسلافه فى ايطاليا ، تاركا بذلك الاكسارخ فى رافنا لا حول له لا قوة ، عاجزا عن اقرار الأمور •

والحق أن أهمية روثارى لا ترجع الى الانتصارات الحربية التى حققها فحسب ، بل فى المقام الأول الى أنه شكل القانون اللومباردى • ففى سنة ٦٤٣ أصدر مجموعة القوانين العرفية الخاصة باللومبارديين التى لم يسبق تدوينها من قبل بمقتضى مرسوم Edictum Rothari ووافق عليها مجلس الشعب اللومباردى Witan • وهى فى الواقع ليست إلا مجموعة بدائية تتناول أحوال شعب جرمانى يعيش على الفطرة

---

(1) Villari, II, pp. 337-338.

(2) Paul., pp. 199-200.

فى أعماق الغابات الجرمانية ، أكثر منهـا صورة لشعب مستقر فى قلب ايطاليا • ورغم أن الجزء الأكبر منهـا يتعلق بالفدية والتزامات الأتبـاع نحو سادتهم ، وتنظيم حقوق الوراثة ، والبعد عن العنف المسلح ، وترتيب المبارزات الشرعية ، دون أن تحوى شيئا من حياة المدن والكنيسة ، فان أهمية هـذه المجموعة عظيمة من حيث دلالتها التاريخية ، علاوة أنهـا أول قانون مدون للومبارديين (١) •

وتجدر الملاحظة هنـا أن المملكة اللومباردية فى نهـاية عصر روثارى قد بلغت أقصى اتساع لهـا على وجـه التقريب ، واستقرت خريطتهـا السياسية فى شكلها النهائى • ويرجع السـبب فى ذلك الى أنهـا ضيعت طاقتها وجهدها فى منازعات وحروب أهلية طيلة وجودها ، ممـا جعلها عاجزة عن مـد حدودها على حساب البيزنطيين الى أبعد ممـا وصلت إليـه (٢) •

ومهمـا يكن من أمر ، فقـد مات روثارى وخلفه ابنـه رودوالد Rodoald (٦٥٢ — ٦٥٣) ، الذى كان على النقيض من أبيـه أرعن فاسقا منحلا ، لقى نهاية عنيفة بعد بضـعة أشهر من حكمه ، إثر طعنة خنجر من زوج غاضب لوث رودوالد شرفه (٣) • ثم تولى الحكم من بعده أريبرت الأول Aripert I دوق أستى (٦٥٣ — ٦٦٢) ، وهـو ابن جندوالد شقيق ثيوديلندا التى عرفت بتقواها ، ومازال اسمها يشـغل الأسماع بسيرتها العطرة • وكان جندوالد قد عبر جبال الألب مع أختـه من بافاريا قبل ذلك بمـا يزيد عن نصف قرن (٤) ، وباتخاذه ايطاليـا وطناله ، صـار فى نظر اللومبارديين لومبارديا • وممـا يسترعى الانتباه

---

(1) Oman, op. cit., pp. 196-197.

(2) Oman, p. 272.

(3) Paul., p. 202.

(٤) انظر ص ٦٩ — ٧٠

أن أريبرت الأول لم يشن حربا على جيرانه البيزنطيين خلال سنوات حكمه ، ولا نستبعد ذلك من رجل عرف بتقيته واخلاصه للكنيسة الكاثوليكية، واقترن اسمه ببناء العديد من الكنائس ، والمضاية باقتلاع بقايا الآريوسية من مملكته (١) • وفى عهده أيضا ظهرت بصمات الحضارتين اليونانية واللاتينية واضحة على المجتمع اللومباردى ، ويتمثل ذلك فى حركة إحياء الدراسات التعليمية فى مدينة ميلان (٢) •

والجدير بالذكر أن أريبرت قبل موته أوصى أن يخلفه على العرش ولداه جودبرت Godeb ،، وبركتارت Perctarit ، وهو أمر لم يحدث من قبل فى مملكة اللومبارديين (٣) • صحيح أن عادة تقسيم المملكة بين أبناء الملك المتوفى من الحقائق الأساسية فى تقاليد الشعوب الجرمانية ، وعلى وجه الخصوص الفرنجة ، ولكنها بالنسبة للومبارديين كانت أمرا غريبا عليهم لم يألفوه • وعلى أية حال استقر جودبرت فى بافيا ، فى حين استقر بركتارت فى ميلان (٤) • ولا شك أنه كان من الصعب أن يستمر هذا الوضع بين الأخوين ، إذ بعد مضى سنة واحدة على وفاة أبيهما اندلعت الحرب الأهلية بينهما • ويهمنا هنا أن جودبرت حرص على اكتساب جريموالد Grimwald دوق بنفنتوم القوى الى جانبه ، فأرسل اليه جاريبالد دوق تورين يدعوه الى التحالف معه ضد أخيه ، ووعده فى نظير ذلك بتزويجه من أخته • ولكن جاريبالد بدلا من أن يقوم بمهمته على الوجه المطلوب ، وأخذ يسهل له الأمر بالتقليل من شأن الأخوين ، وما آل اليه حالهما من ضعف شديد • فوافق جريموالد ، وبادر بالخروج من دوقيته على رأس قوة الى بافيا ، حيث تغلب على جودبرت ، وقام

---

(1) Oman, op. cit., pp. 272-273; Deanesly, A Hist. of Early Med. Europe, p. 251.

(2) Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 219; Deanesly, p. 251.

(3) Oman, p. 205.

(4) Paul., p. 205.

بقتله منتزعا العرش لنفسه (١) • وعندما سمع بركتارت بمـا حدث ، لاذ بالفرار الى الآفار فى سكثيا بمنطقة الدانوب . ولـكنه فى زحمة الهروب السريع لم يستطع أن يأخذ معـه زوجتـه وابنه كونبرت (Cuninepert) Cunibert ، فقبض عليهمـا جريموالد وأرسلهمـا سجينين الى بنفنتوم (٢) • ولم يلبث جريموالد أن تزوج من أخت جودبرت ، ونادى بنفسه ملكا على اللومبارديين فى بافيا سنة ٦٦٢م • حدث ذلك فى الوقت الذى عهد لابنـه روموالد بحكم دوقيته بنفنتوم نيـابة عنه (٣) •

وخلال تلك الفترة ، كان الامبراطور البيزنطى قنسطانز الثـانى (٦٤١ ــ ٦٦٨) قد أحرز انتصـارا على السلاف ، وعقد هدنة مع المسلمين سنة ٦٥٨ ــ ٦٥٩ ، ثم خرج بأسطوله من القسطنطينية (٤) . دون أن يوضح وجهته أو غرضه • ويرى البعض أنه أبحر بأسطوله ليتفقد أهم مراكز ممتلكاته الأوربية (٥) • فى حين يرى البعض الآخر أنه استهدف نقل مقر امبراطوريته الى صـقلية ، التى يسهل الدفاع عنهـا ضـد المسلمين (٦) • أمايولس الشماس ، فقـد أشار الى أنه خرج من عاصمته بغية كبح جماح اللومبارديين ، فرسا بأسطوله أولا فى ثيسالونيكا ، ثم توجه الى أثينـا حيث ظل بهـا فترة طويلة ، ومنهـا أبحر الى تارانتو على الساحل الايطالى سنة ٦٦٣ ، ومن ثم انطلق مسرعا الى بنفنتوم ، وفى طريقه اليهـا جمع بعض المعلومات عنهـا ، وسقطت فى يده بعض المدن دون شروط ، وأخيرا ظهر أمام بنفنتوم وفرض الحصـار عليها (٧) •

---

(1) Ibid. pp. 205-206.

(2) Ibid. p. 206.

(3) Ibid. p. 209; Villari, op. cit., II, p. 348.

(4) Diehl & Marcais, III, p. 239; Lot., Les Destinées., p. 219.

(5) Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine State, p. 122.

(6) Villari, II, pp. 350-351.

(7) Paul., pp. 217-219; Ostrogorsky, op. cit., pp. 122-123; Villari, II, p. 351.

على أنه قبل أن يصل الامبراطور الى أسوار بنفنتوم أدرك صعوبة موقفه ، فبادر بارسال معلمه وأستاذه سيزوالد Seswald الى أبيه فى بافيا لإبلاغه بالخطر الذى يتهدده • وهنا لم يعبأ جريموالد بأمور مملكته ، وغادرها مسرعا على رأس جيشه لانقاذ دوقيته ، وفى أثناء سيره أخذ العديد من جنده ينفضون من حوله ، بعد أن راجت الشائعات عن عدم عودته الى بافيا مرة أخرى ، ولكنه لم يكترث لذلك ، وأرسل سيزوالد ليخبر ابنه أنه فى الطريق لنجدته ، وينصحه بالثبات فى وجه الامبراطور • وشاء سوء الحظ أن يقع سيزوالد فى قبضته قنسطانز ، وتحت سلاح التهديد طلب اليه أن يخبر روموالد أنه ليس بوسع أبيه نجدته ، ولكن سيزوالد رفض ، فقتله قنسطانز وأمر بالقاء رأسه من آلة منجنيق الى داخل أسوار بنفنتوم ، حيث استقبلها روموالد بالقبلات والدموع (١) • على أن الامبراطور بقواته القليلة ونقص موارده المالية ، سرعان ما استبان له صعوبة البقاء طويلا تحت أسوار بنفنتوم ، ولذلك اضطر الى الانسحاب والعودة الى نابولى (٢) •

وفى ٥ يوليو سنة ٦٦٣ اتجه قنسطانز لزيارة روما ، وهى أول زيارة يقوم بها امبراطور منذ سقوط الامبراطورية فى الغرب سنة ٤٧٦ ، وقد استقبله البابا فيتاليان (٦٥٧—٦٧٢) على رأس رجال كنيسته ، على بعد ستة أميال من أسوار المدينة ، قدم له فروض الطاعة والولاء (٣) • وبعد أن مكث الامبراطور بروما اثنى عشر يوما ، قرر أن يغادرها فى ١٧ يوليو ٦٦٣ الى نابولى ومنها الى صقلية (٤) ، بيد أنه قبل أن يغادر ايطاليا عمل على تقوية نفوذ رئيس أساقفة رافنا باستقلاله عن البابوية ،

---

(1) Paul., pp. 219-220.
(2) Ostrogorsky, p. 123.
(3) Ibid.
(4) Paul., p. 224.

كمـــا ترك وراءه فى جنوب ايطاليا القوات التى صاحبته خلال حملته (١) • ومـمـــا يذكر أنه بعد مضى بضع سنوات واجه الامبراطور مؤامرة خطيرة فى سيراكيوز قضت عليه مخنوقا فى حمامه فى ١٥ سبتمبر ســـنة ٦٦٨ ، وخلفه على العرش ابنه قنسطنطين الثالث (٦٦٨ — ٦٨٥) (٢) • ويهمنا من هـــذا أن روموالد استغل فرصة وفاة قنسطانز الثانى ، وقيـــام ثورة فى جزيرة صقلية أثارت المتاعب للامبراطورية ، وخرج على رأس قواته للقضاء على القوات التى خلفها قنسطانز وراءه ، فعجزت عن الصمود أمامه وولت هاربة ، هـــذا فى الوقت الذى نجح فى الاستيلاء على مدن ترنت وبرنديزى وكالابريا البيزنطية(٣) •

ولم يكد الملك جريموالد يفرغ من متاعبه مع البيزنطيين ، حتى عول على الرجوع الى بافيا لاحكام سيطرته على المملكة ، فضـــلا عن مكافأة الذين وقفوا الى جانبه خلال نزاعه مع الامبراطور البيزنطى ، والانتقام من الذين تخلوا عنه • ومن أولئك الذين كافأهم على موقفهم المخلص منـــه ترانساموند دوق كابوا ، فزوجـــه من ابنتـــه ، وأسند اليه دوقيـــه سبوليتو (٤) • وكان أن وجه جريموالد انتبـــاهه النيل من لوبوس Lupus دوق فريولى ، وهو أحد الذين انتهزوا فرصـــة خروجه من بافيا لانقـــاذ بنفنتوم من الحصـــار البيزنطى ، ورسخ فى ظنه أنه لن يعود الى عاصمته مـــرة أخرى ، فخرج عليه ، ممـــا جعل جريموالد لا يغتفر له فعلتـــه ، فزحف عليه بجيوشه ، وألقى به هزيمة فادحة انتهت بمصرعه • وبعد أن فرغ من أمر لوبوس ، ســـار جريموالد بجيوشـــه الى مدينة فوريبموبولى البيزنطية الواقعة على بعد عشرين ميلا الى الجنوب من رافنـــا ، وكان

---

(1) Diehl & Marcais, III, op. cit., p. 239; Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., pp. 219-220.

(2) Villari, op. cit., II, p. 352.

(3) Oman, p. 274; Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 221.

(4) Paul the Deacon, pp. 226-227.

سكان هـــذه المدينة قد ألحقوا بجيشـــه أضرارا وهو فى طريقـــه الى بنفنتوم . فضـــلا عن أنهم ضايقوا رسله فى ذهابهم الى بنفنتوم وعودتهم منها . وهنا استغل جريموالد فرصة حلول عيد الفصح ، وانشغال الأهالى بالاحتفالات فداهمها وأطلق العنـــان لجنده لنهبهـــا وسلبها (١) • والواقع أن استيلاءه على هـــذه المدينة يعتبر المكسب الاقليمى الوحيـــد الذى حصل عليه من البيزنطيين •

أمـــا عدوه اللدود بركتارت الذى فر الى الآفار لائذا بهم كمـــا أسلفنا ، فقد حاول جريموالد أن يغرى الآفار على تسليمه • ولكن محاولته باءت بالفشل • وهنا نلاحظ أن بركتارت أقدم على القيام بخطوة جريئة ، إذ أرسل تابعه المخلص أنولف Unulf لبافيـــا لابلاغ جريموالد برغبته فى العودة الى ايطاليا بمحض ارادته لسأمه وضيقه من العيش وســـط الآفار الوثنيين من ناحية ، ولثقته الزائدة فى صـــدق عقيدة جريموالد التى تحول دون الغدر به بعد عودته من ناحية أخرى • وكان أن رجع بركتارت الى ايطاليا ، واستقبله جريموالد فى قصره بترحاب • بيد أن الشكوك لم تلبث أن راودت جريموالد عندمـــا عرف أن كثيرا من زعمـــاء اللومبارديين أخذوا يتقربون اليه يلتفون حوله ، فثارت ثائرته وصمم على التخلص من بركتارت بقتله • وإذ علم بركتارت بمـــا يدور حوله دبر خطة للهرب بمساعدة تابعه أنولف ، انتهت بنجاحه فى عبور جبـــال الألب الى مملكة الفرنجـــة (٢) •

وفى هـــذه الأثنـــاء أرسل ملك الفرنجة كلوثار الثالث جيشا اقتحم ايطاليا من ناحية جبال الألب الغربية غير أن جريموالد استخدم الحيلة فى صـــد الفرنجة ، إذ تظاهر بالفرار أمامهم ، تاركا معسكره فى ريفولى غنيمة لهم • وفعلا انطلت الحيلة على الفرنجة ، فدخلوا المعسكر الخالى وأخلدوا

---

(1) Ibid, pp. 229-233.

(2) Ibid, pp. 209-210.

الى الراحة ، ومن ثم باغتوم جريموالد . وأحدث في صفوفهم مذبحة مروعة لم ينج منهـا إلا القليل (١) • ثم كان أن عقدت اتفاقية سلام بين الفرنجه واللومبارديين في عام ٦٧١ (٢) •

ومهمـا يكن من أمر ، فقد توفي جريموالد في نفس العام الذي ابرم فيه اتفاقية السلام مع الفرنجة • ومع أنه استخدم طريق الغدر والعنف في سبيل الوصـول الى العرش ، فالواقع أن الانتصـارات الحربيـة التي أحرزها رفعت من شأنه في نظر قومه ، ونسجت قصصا عديدة حول قوته وشجاعته • وليس من شك أنه كان محاربا قديرا ، ولكنـه في نفس الوقت كان يفتقر الى الحنكة والحصـافة السياسية المطلوبة في رجـل الدولة ، بدليل أنه لم يغتنم فرصـة انسحاب الامبراطور قنسطانز الثاني من أمام أسوار دوقيته ثم وفاته بصقلية ، حيث كان بوسعه اخضـاع الجنوب الايطالي لسيادته ، ولكنـه بدلا من ذلك أسرع بالعودة الى بافيا ، وأضاع وقته وجهده في عمليات انتقامية ثانوية وحروب غير حاسمة ، كان في غنى عنهـا (٣) • وممـا يذكر أخيرا أنه اعتنق مذهب الكنيسة الغربية — على مـا يبدو — في سنة ٦٦٨ ، وأضاف عدة فصـول جديدة لمجموعة قوانين روثاري (٤) •

وبعد وفاة جريموالد احتفظ أكبر أبنـائه روموالد بدوقية بنفنتوم ، في حين بقي ابنـه جاريبالد تحت وصـاية أمه ابنة الملك أريبرت في بافيا • والجدير بالذكر أن اللومبارديين لم يختاروا أحد الأخوين ملكـا عليهم ، واستدعوا بركتارت لهـذا الغرض (٥) • وكان بركتارت — كمـا أسلفنا — قد فر لاجئا الى مملكة الفرنجة ، ثم عزم على مغادرتها الى

(1) Ibid, pp. 216-217.

(2) Ibid, p. 235; Villari, II, p. 358.

(3) Villari, II, p. 353.

(4) Paul., p. 236.

(5) Oman, p. 274.

انجلترا ، ولكنــه رجع عن قصــده عندما وصلته أنبــاء موت جريموالد ، ومــا تبع ذلك من استدعائه لتولى العرش • وعلى أية حالة دخل بركتارت ايطاليا ، حيث استقبله الشعب اللومباردى وقادته وزعماؤه بالطــاعة والولاء ، وتوجوه ملكا عليهم فى بافيا (١) •

وفى هــذه المرة حكم بركتارت (٦٧١ — ٦٨٨) سبعة عشر عامــا قضاها فى سلام وهدوء ، فكمــا أسلفنا كان غير ميال بطبيعته للحرب ، بسبب تدينه وحماسه الشــديد للكاثوليكية ، وقــد عرف بعدالته وبره بالفقراء ، وهو الذى شيد دير سانت أجاثا الشهير St. Agatha وكنيســة العذراء الكبيرة خارج أســوار بافيا (٢) • ولا شك أن ملكــا من هــذا الطراز ، ممن وصفهم مؤرخو الكنيسة بمظاهر المجد والشرف ، لا يدخل فى عداد صناع التاريخ (٣) • إذ من المعروف أنه خلال عهــده الطويل لم يرفع السلاح إلا مرة واحدة ،عندمــا خرج عليــه ألاكيس (ألاهيس) دوق ترنت ، فبعد أن تغلب عليه واعتزم قتله ، سرعان مــا تراجع عن عزمه بعد أن استعطفه الدوق ، وقدم اعتذارا لمــا بدر منــه (٤) ، الأمر الذى كلف مملكة اللومبارديين المغزير من الدماء فى عهد خلفه •

وقد خلف بركتارت بعد وفاته ابنــه كونبرت (٦٨٨ — ٧٠٠) • ومع أنه كان شجاعا كريمــا محبوبا من شعبه ، إلا أنه جمع الى جانب لتلك الصفات الحميدة صفات أخرى تناقضها تماما ، وهى التهاون والاستخفاف والانكباب على شرب الخمر ، ممــا شجع ألاكيس على الخروج عليه ، حيث نجح فى انتزاع أقاليم المملكة من يده ، فيمــا عدا قلعة وحيــدة حصينة فى بحيرة كومو احتمى بهــا كونبرت ، لم يستطع ألاكيس الاستيلاء

---

(1) Paul the Deacon, pp. 236-237.

(2) Ibid, pp. 237-238.

(3) Oman, p. 275.

(4) Paul., pp. 239-240.

عليهـــا • على أنه لم تنقض بضعة أشهر على الاطاحة بكونبرت ، حتى ضـــاق اللومبارديون ذرعا — وخاصة رجال الدين — بألاكيس بســبب طغيانه واستبداده وكراهيته الشديدة للكنيسة ، ونتيجة لذلك أخذت المدن اللومباردية تنفض عنه تباعا ، واستغل كونبرت الفرصة لصــالحه ، فخرج من قلعته المنيعة ، ولم يلبث اللومبارديون أن التفوا حوله ، وحدث اللقاء الحاسم بينـــه وبين ألاكيس فى كورناتى الواقعة على نهر أدا على بعد حوالى عشرة أميال الى الجنوب الغربى من برجامو ، وفى هــذا اللقاء منى ألاكيس بهزيمة ساحقة أسفرت عن سقوطه صريعـــا ، ومن ثم عاد كونبرت الى عرشه (١) • والواقع أن ثورة ألاكيس لم تكن الوحيدة التى واجهت كونبرت ، إذ انشغل أيضا بالقضاء على ثورات أخرى قام بهـــا بعض الدوقات الأقوياء • ونذكر منهم على سبيل المثـــال أنسفرت Ansfrit الذى خرج من قلعته فى راجوجنا الواقعة على بعد حوالى ثلاثين ميـــلا الى الغرب من كيفيدالى ، بهدف انتزاع العرش من كونبرت ، ولكنـــه رجع خائبا ، إذ استطاع كونبرت أن يقبض عليه فى فيرونا ، ويعاقبـــه بسمل عينيه (٢) •

وغنى عن البيـــان أن أعمال الملوك اللومبارديين إبان الربع الأخير من القرن السابع كانت بعيدة تماما عن الأهمية ، فكما رأينا شتتت بركتارت جهوده فى بنـــاء الكنائس ، وشغل كونبرت معظم وقتـــه فى اخماد الثائرين من دوقاته • وأخيرا نصـــل الى القول أن أيطاليا فى القرن السابع أضحت موزعة بين ثلاث قوى وهى : الدولة البيزنطية واللومبارديون والبابوية(٣)•

---

(1) Ibid, pp. 241-249; Villari, op. cit., II, p. 354.

(2) Paul., p. 252.

(٣) ذكر المؤرخ كانتور أن المسلمين فتحوا صقلية فى القـــرن الســـابع الميلادى ، وبالتالى صارت شبه الجزيرة الايطالية فى نهاية هذا القرن مقسمة =

وإذا ألقينا نظرة فاحصة على خريطتها السياسية فى نهـاية هـذا القرن ، استبان لنـا مـا كانت عليه من فوضى سياسية ، قدر لهـا أن تظل قائمة حتى القرن التاسع عشر • وتتمثل أملاك الدولة البيزنطية فى الشـمال الشرقى من استريا حيث تريست وجرادو ، فى حين لاذ سكان البندقيـة بوسط البحيرات الضحلة فى هرقلة ومالاماكو ، أمـا فريولى فى داخـل استريا فكانت تابعة للومبارديين ، وفى جنوب البو : رافنا وبولونيا ، وفى جنوب ايطاليا بنتابوليس بمدنهـا ، وفى أقصى الجنوب الايطالى ظلت مدينتابروتيوم وأبوليو فى أيدى البيزنطيين ، وكذلك دوقية نابولى • وقد تألفت دوقية روما من بقايا كمبانيا الرومانية، وسابينا ، وجنوب توسكانيا(١) • أمـا بقية شبه الجزيرة الايطالية ، ونقصـد بذلك داخلها ، فقد بقى فى أيدى اللومبارديين • وهنـا نكرر القول أن السـلطة الفعليـة للملك اللومباردى كانت قاصرة على سهل البو فقط ، إذ أن دوقيـات بنفنتوم وسالرنو فى الجنوب ، وسبوليتوفى الوسط ، وفريولى فى الشمال الشرقى ، كانت جميعا مستقلة من الناحية العملية (٢) •

=

بين أربع قوى وهى : البيزنطيون ، والبابوية ، واللومبارديون ، والمسلمون . وقد أخذت الترجمة العربية بذلك . والحقيقة ان المسلمين فتحوا صقلية فى القـرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، وبالتحديد فى سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) ، أما قبل ذلك فقد كانت غاراتهم تتوالى عليها ، باعتبار انهـا احدى مراكز الخطـر البيزنطى الذى دأب على تهـديد دولتهم الفتيـة . انظـر :

Cantor, Medieval History, p. 145 (1929).

والترجمة العربية ، كانتور : تاريخ العصور الوسطى ، حـ ١ ص ٢٧٣ .

(1) Lot, The End., pp. 287-288.

(2) Ibid, p. 288.

الفصل الرابع

« اللومبارديون فى إيطاليا فى القرن الثامن »

- ليوتبراند .
- التحالف بين البابوية والفرنجة .
- سقوط المملكة اللومباردية .
- محاولة إحياء المملكة اللومباردية .

توفى الملك كونبرت فى نهـاية القرن السـابع ، وخلفه ابنه الصغير ليوتبرت Liutpert (٧٠٠ — ٧٠١) ، تحت وصاية مربية آنسبراند Ansprand . بيـد أنه بعد مضى ثمانية شهور غرقت المملكة اللومباردية فى لجة الفوضى ، واندلعت حرب أهلية جديدة أثارها أقرب النـاس الى الملك — وهم أبنـاء عمومته — طمعا فى العرش ، وكان أبرزهم راجنبرت وابنـه أريبرت . وقد استطاع راجنبرت أن يهزم الوصى آنسبراند فى نوفارا ، بيـد أنه لم يهنـأ بانتصاره طويلا ، إذ مات فى أعقابه مباشرة ، ولم يلبث ابنه أريبرت أن نهج نفس السياسة ، فالتقى مع آنسبراند فى موقعة أمام بافيا ، أسـفرت عن هزيمـة الوصى وفراره الى جزيرة كوماتشينا ، ووقوع الملك الصبى أسيرا ، وفى الحين نفسه استطاع أريبرت أن يستولى على العاصمة ، حيث رفعه أتباعه ملكـا تحت اسم أريبرت الثانى (٧٠١ — ٧١١) . وكان أول مـا قام به الملك الجديد من أعمـال أن انتقم من الذين وقفوا الى جانب آنسبراند ، وعلى وجه الخصوص روثاريت دوق برجامو ، إذ أرسل اليه جيشا ضخما حاصره فى مدينته ، الى أن وقع فى يده ، وأمر بقتله (١) . على أن أريبرت الثانى لم يهـدأ بالا بقتل دوق برجامو ، إذ تخلص من الملك الشرعى الصـغير الواقع تحت رحمته بقتله ، واستتبع جرمه الشنيع بارسال جيش ضخم الى جزيرة كوماتشينا للقضاء على الوصى آنسبراند ، ولكن الأخير استطاع أن يلوذ بالفرار الى دوقية بافاريا ، وعندئذ صب أريبرت الثانى جام غضبه على زوجة آنسبراند وأسرته، فأنزل بهم أشد أنواع الأذى والاضطهاد ، فيما عدا أصغر أطفاله ليوتبراند Liutprand ، الذى تركه وشأنه لأنه لا يشـكل أى خطر عليه (٢) . والجدير بالذكر أن هـذا الطفل الذى نجا من بطش أريبرت الثانى قدر له أن يصبح فيما بعد أعظم ملوك اللومبارد قاطبة .

وقد حكم أريبرت الثانى فترة تزيد على عشر سنوات ، انشـغل

---

(1) Paul the Deacon, pp. 264-265.

(2) Ibid, p. 265; Villari, The Barbarian Invasions, II, p. 355.

خلالها بصد السلاف عن البندقية ، فضـــلا عن محاولة فرض سيطرته على دوقيتى سبوليتو وبنفنتوم القويتين • أمـــا بالنسبة الى موقفـــه من الامبراطورية البيزنطية والبابوية ، فقد فضـــل العيش معهمـــا بسلام ، وبذلك وطد علاقته بالبابوية ، وفضـــلا عن أنه نفحها هبـــات سخية : فقد أعاد الى البابا يوحنا السادس (٧٠١ — ٧٠٥) أحد الأقاليم الواقعة فى منطقـــة الألب الكوتية والذى كان أســـلافه قد انتزعوه منـــه من قبـــل (١) •

ولم يكد أريبرت الثانى يفرغ من متاعبـــه ، ويثبت عرشه وسط عواصف الفوضى والقلاقل التى اجتاحت مملكة اللومبارديين فى السنوات الأخيرة ، وعلى حين بدت له الأمور مستقرة ، هبط الوصى آنسبراند على ايطاليا بجيش ضخم من البافاريين فى سنة ٧١١ • وفى أثنـــاء زحفه على بافيا ، انضمت اليه آلاف عديدة من اللومبارديين الذين يضمرون الحب والولاء لبيت بركتارت ، ويؤثرونه على حكم أريبرت الذى لم يكن فى نظرهم غير مغتصب للعرش وسفاك للدمـــاء (٢) • وسرعان مـــا خاض آنسبرت معركة مع أريبرت أريقت فيهـــا دماء الكثيرين من الجانبين ، ومع أنهـــا لم تكن حاسمة ، فقـــد أجبرت أريبرت على الارتداد الى داخل أسوار المدينة ، ممـــا عاد عليه بأوخم العواقب • إذ فترت همة جيشـــه ، وأخذ أنصـــاره يتخلون عنه تباعا • وكان أن وجد أريبرت نفســـه وحيدا ، فسقط فى يده ، ومن ثم قرر أن يحمل كنوزه ويهرب بها الى مملكة الفرنجة بغيـــة الحصول على مساعدتها بالمـــال ، ولكنـــه عندما حاول عبور نهر تشينو سباحة ، وسحبه التيار بعيدا عن الشاطىء ، أعجزه ثقل الكنز الذى كان يحمله فوق ظهره عن مواصلة السباحة ، فمـــات غريقا ، تاركا العرش خاليا لمنافسه آنسبراند • غير أن الأخير لم يهنـــأ بالعرش إلا ثلاثة شهور

---

(1) Ibid, pp. 265-272; Oman, Dark Ages, p. 280.

(2) Oman, op. cit., p. 280.

مات على إثرهـا فى ١٣ يونيو سنة ٧١٢ ، بعد أن أوصى أن يخلفـه ابنه ليوتبراند (١) ٠

والحق أن ليوتبراند (٧١٢ ـ ٧٤٤) يعد أعظم الملوك اللومبارديين على الاطلاق ٠ فبارتقائه عرش المملكـة انتهى عصر من عصور الفوضى والاضطرابات التى شهدتها هـذه المملكة ٠ ويتمثل ذلك بوضح فى أنه جعل السلطة الملكية على دوقات الشمال حقيقة ملموسة ، وفرض طاعته على دوقات الجنوب ، ومن ثم مد نفوذه على جميع أنحاء المملكة ٠ ولكنه جريا على سياسة أسلافه أجيلولف وروثارى وجريموالد ، عقد العزم على إخضـاع ايطاليا كلهـا لنفوذه ، وفى سبيل الوصول الى هـذا الهدف ، وضع نصب عينيه ضرورة تقليم أظافر البابوية من جهـة ، والتوسع على حساب ممتلكات البيزنطيين فى إيطاليا من جهة أخرى (٢) ٠

على أنه بعد أربعة عشر عاما على حكم ليوتبراند ، ظهرت مشـكلة دينية كبرى القسطنطينية ، استمر أثرهـا قائما طوال عدة قرون فى تاريخ غرب أوربا ، فضـلا عن شرقها ٠ وتتمثل هـذه المشكلة فى الخلاف الذى ظهر حول مسألة عبـادة الصور والأيقونات فى الدولة البيزنطية ، إذ ظهر رأى ينادى بتحريم عبادتهـا وتقديسها ، فى حين رأى المؤيدون لهـا أن تقديسها أمر طبيعى يفرضـه احترام صاحب الصورة ٠ وبانتشار عبادة الأيقونات فى القرن الثامن ، تطلب الأمر من الامبراطور ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ ـ ٧٤١) علاجا سريعا لهـذه المشكلة ، وذلك بازالة جميع الأيقونات التى تمثل المسيح عليه السلام والقديسين ٠ على أنـه قبل أن يتخذ هـذه الخطوة قدر خطورتها وتردد طويلا ٠ وأخيرا وجد الفرصة مناسبة فى سنة ٧٢٦ ، وذلك عند قيام ثورة بركانية عند ثيرا

---

(1) Paul., pp. 277-278; Oman, pp. 280-281; Villari, op. cit., II, p. 355.

(2) Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées de l'Empire en Occident, p. 244; Lot, The End of the Ancient World, p. 290.

Thera ، فسرهـا ليو بأنها علامة غضب من الرب على الدولة ، فأصدر مرسوما فى السنة نفسها ينص على منع عبادة الصـور والتماثيل ؛ وأخذ جنوده يرفعون الأيقونات الى أماكن عليا كى تكون بعيدة عن متناول الأيدى ، ولكنهم عندما حاولوا خلع الصـورة الكبيرة للمسيح التى كانت معلقة عند مدخل القصر الامبراطورى حرض الرهبان الجماهير ، فثاروا ضد الامبراطور ، بيد أنه أخضع ثورتهم فى سهولة (١) •

وعندمـا انتقلت أخبار هـذه الحوادث الى خارج القسطنطينية ، نشبت القلاقل والاضطرابات ، فقامت ثورة فى اليونان فى العـام التالى (٧٢٧) استلزمت تدخـل الجيش الامبراطورى لاخمادها ، أمـا فى ايطاليا ، فقـد كانت المعارضة أشـد وأقوى ، إذ وقف البابا جريجورى الثانى (٧١٥ ـ ٧٣١) ، ومن بعده جريجورى الثالث (٧٣١ ـ ٧٤١) موقفـا عنيدا صلبا من سياسة ليو الثـالث اللاأيقونية • والحـق أن البابوية كانت ناقمة على سياسة ليو الثالث المالية وتدخله فى شئونها ؛ فالضرائب التى فرضها ليواصل الحرب مع المسلمين لم تسد نفقـات الجيش الامبراطورى ، ولهـذا كان فرض ضرائب جديدة أمرا لا مفر منـه ، وحوالى سنة ٧٢٥ فرض ليو ضرائب على ممتلكات الكنيسة أثقلت كاهلها بالأعباء ، والى جانب هـذا كانت البابوية غير مستعدة لأن تقبل مرسوم ليو الخاص بتحريم عبـادة الأيقونات (٢) • وقد رد البـابا جريجورى الثالث على هـذا المرسوم بإصدار قرار بانزال اللعنـة على كل من ناصر أعداء هـذه العبادة (٣) • وتطور الأمر الى حد أن ثارت

---

(1) Diehl, Hist. of the Byzantine Empire, p. 58;

ـ رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٤٢ •

ـ سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ص ١١٦ ـ ١١٧ •

ـ عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨٨ •

(2) Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., pp. 224-225;

ـ عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٨٨ ـ ٨٩ •

(3) Lot, Pfister & Ganshof, p. 225; Diehl & Marcais, Hist. du Moyen Age, III, p. 265.

البندقية ورافنا وبنتا بوليس وروما ، ووقفت جميعا الى جانب البابا ، فى حين ساندت صقلية وجنوب ايطاليا الامبراطور اللاأيقونى (١) • وعلى أية حال ، انفجرت غالبية أقاليم ايطاليا فى ثورة عارمة واسعة النطاق بسبب سياسة ليو اللاأيقونية ، فقد ذبح إكزيلاراتوس دوق نابولى عندما حاول أن يطبق مرسوم ليو فى دوقيته ، كما طرد العديد من الحكام فى الأقاليم البيزنطية ، واختار الأهالى حكاما جددا أيقونيين بدلا منهم ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، إذ شرعت بعض المدن الأيقونية فى اختيار امبراطور آخر فى ايطاليا ، لولا أن البابا جريجورى الثانى منعها من ذلك ، وعلى الجملة يمكن القول ان الأقاليم البيزنطية الأيقونية قد انفصلت تماما عن القسطنطينية (٢)•

ومن الطبيعى أن يستغل ليتوتبراند النزاع الدائر بين البابوية والامبراطورية حول مشكلة عبادة الصور لصالحه ، وراح يمنى النفس بأن الطريق بات ممهدا أمامه لتوحيد ايطاليا كلها فى قبضته • ومن ثم عبر بجموعه الضخمة نهر البو ، ولم يلبث أن هاجم الممتلكات البيزنطية ، فاستولى سنة ٧٢٨ على بولونا ، ومعظم مدن ايميليا ، وأوزيمو ، وريمينى ، ومدن البنتابوليس ، وكلاسيس ميناء رافنا البحرى ، ثم زحف على رافنا واقتحمها حتى سقطت فى يده ، غير أن الاكسارخ أوتيخيوس Eutychius تمكن من الفرار الى البندقية التى تكفل بحيراتها الضحلة ملاذا أمينا ، ثم واصل زحفه ، وتوغل بعيدا فى الدوقية الرومانية حتى وصل نارنى ، مما أثار مخاوف البابا (٣) ، وجعل موقفه محفوفا بالأخطار • وقد حدث ذلك عندما كان البابا جريجورى الثانى منهمكا فى اعداد رسائل عنيفة اللهجة الى الامبراطور ليو الثالث ، قال فى احداها : « ليس بوسعى الا أن استخدم معك أسلوبا خشنا يليق بعقلك الفظ ، إذ لو حدث أن توجهت الى مدرسة

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ص ١١٨ •

(2) Oman, op. cit., pp. 281-282.

(3) Barry, The Papal Monarchy, p. 71.

لتعليم الصبية ، وظهرت أمامهم كمحطم للصور والأيقونات ، فان الصغار منهم سيقذفون بألواحهم فوق رأسك ، لأنه حتى الأطفال يمكنهم أن يلقنوك درسا قاسيا ، مـا دمت ترفض الإصغاء صوت الحكمة » • ولم يكتف البابا بذلك ، بل هدده بالاعتزال والاستعانة باللومبارديين إذا أرسـل جيشا ضده (٧٢٩) • والحق أن هـذا التهديد كان أبعد مـا يكون عن تفكير البابا وقتذاك ، إذ لم يكن ثمـة مـا يخشاه أكثر من وقوعه هـو ومدينته روما تحت سيطرة اللومبارديين • وبعبـارة أخرى من الأفضـل أن يتعامل مع اكسارخ ضعيف فى رافنا وامبراطور بعيـد عنـه فى القسطنطينية ، بدلا من الانحدار الى منزلة أحد رعايا الملك اللومباردى(١) •

وعلى أية حال : استطاع جريجورى الثـانى بدهائه ودبلوماسيته البارعة أن يقنع ليوتبراند بالانسحاب من أمام أسوار رومـا ، فى وقت كانت الظروف فيه مهيأة تماما لسقوطهـا • والواقع أنه كان سهلا على البابا أن يثنى ليوتبراند عن عزمه ، لمـا يعرفه عنـه من تقوى وتدين وشدة حماس للكاثوليكية ، بدليل أنه سلم مدنية سوترى التى استولى عليهـا من قبل للبابا ، وهى أصلا تابعة للامبراطورية البيزنطية (٢) •

وعلى الرغم من أن ليوتبراند أظهر احترامه للبابوية وغمرها بكرمه ، فان جريجورى الثانى لم يقدر له هـذا الصنيع ، إذ راح يخطط بذكاء لاحباط مشاريع ليوتبراند التوسعية • ومن ذلك أنه انتهز فرصة خروج ليوتبراند من رافنا عائدا الى عاصمته ، وبعث الى البنادقة يطلب تخليص رافنا من اللومبارديين ، ومـا لبث أن ظهر أسطول بندقى ضخم أمام رافنا ، وجهت قواته هجومـا خاطفا على المدينة ، وبمساعدة أنصـار الامبراطورية داخل أسوارهـا ، انتهى الأمر باستردادها وعودة الاكسارخ

---

(1) Oman, pp. 282-283.

(2) Gregorovius, Hist. of the City of Rome in the Middle Ages, II, pp. 237-239.

أوتيخيوس (١) • وفى تلك الأثنـاء ثار دوقا سبوليتو وبنفنتوم على مليكهما ليوتبراند ، عقدا تحالفا ضده مع البابا فى سنة ٧٢٩ (٢) •

وعندما علم ليوتبراند بما حدث من الدوقين ثارت ثائرته ، وصمم على إخضاعهما •ومن أجل ذلك عقـد تحالفا « غير عادى » مع الاكسارخ أوتيخيوس (٣) ، اتفقا بموجبه على التنسيق فيما بينهما ، بحيث لا يعرقل أحدهما خطط الآخر • وتبعا لذلك سار أو تيخيوس بجيوشه صوب روما لفرض طاعته على البابوية ، فى حين زحف ليوتبراند بجيوشه ضد الدوقين الخارجين عليه ، ولم يكد يقترب من أراضيهما حتى أعلنا طاعتهما وولاءهما • ولما كان ليوتبراند فى قرارة نفسه لا يرغب فى تعزيز قوة الاكسارخ على حساب البابوية ، فقد تحرك بجيوشه تجاه روما حيث كان الاكسارخ يحاصرها حينئذ ، وعسكر بجيوشه فى ساحة نيرون خارج المدينة (٤) • ولاجدال فى أن الفرصة كانت متاحة فى يد ليوتبراند للاستيلاء على روما هـذا العام (٧٢٩) ،خاصة أن العلاقات بين بيزنطة والبابوية قد ساءت الى أبعد حد ، موقف الأخيرة من الحركة اللاأيقنية ، فى الوقت الذى عدمت فيه أنصارا أو حلفاء آخرين • وازاء الخطر الحقيقى الذى هدد البابوية حينئذ ، اتخـذ جريجورى الثـانى خطوة جريئة ، إذ لم يتردد فى دخول معسكر ليوتبراند ، مكررا الدور نفسه الذى قام به ليو العظيم عندما قابل آتيلا زعيم الهون بجحافله أمام أسوار روما ، فألقى خطبة رائعة جعلت ليوتبراند يركع جاثيا أمامه ، وما لبث البابا أن أخذه مجردا من ساحته الى قبر القديس بطرس ، حيث ألقى الملك التقى عباءته الملكية وسيفه وتاجه بعيدا ، وانتهى الأمر

(1) Gregorovius, II, p. 239; Lot, Pfister & Ganshof, p. 225; Lot, The End., p. 300; Universal Hist. of the World, Vol. 4, p. 2359.

(2) Oman, p. 283.

(3) Mann, The Lives of the Popes, I, p. 169.

(4) Oman, pp. 283-284.

بعقد الصلح مع البابوية • ونتيجة لذلك انسحب ليوتبراند عائدا الى بافيا خلال الطريق الفلامينى الشـهير ، تاركا وراءه الى الأبد تاج ايطاليـا الموحدة (١) • وفى هـذه الأثناء انتهز جريجورى الثـانى فرصة السلام القائم بينـه وبين ليوتبراند ، فدعا أساقفة ايطاليا الى حضور مجمع دينى فى روما فى سنة ٧٣٠ — أنزل فيه اللعنة على كل من حارب عبـادة الصور والأيقونات (٢) •

وقد رد الامبراطور ليو الثالث على قرار اللعنة الذى أنزله البابا باللأيقونيين بمرسوم أصدره فى سنة ٧٣١ ، حرم البابوية بموجبه من أملاكها فى صقلية وجنوب ايطاليا ، كمـا سلخ الكراسى الأسقفية فى هذه المناطق عن نفـوذ البابا الدينى والقضـائى ، وضـمها الى بطريرك القسطنطينية (٣) • وفى العـام التالى (٧٣٢) أرسـل ليو أسطولا ضخما لاحياء النفوذ البيزنطى فى ايطاليا ، فضـلا عن القـاء القبض على البابا جريجورى الثالث (٧٣١ — ٧٤١) ، الذى خلف جريجورى الثانى ، وعرف أيضـا بعداوته الشديدة للأيقونية ، ولكن كان من سوء طالع الامبراطور أن هبت عاصفة هوجاء فى البحر الأدرياتى حطمت أسطوله ، بحيث أن بقاياه التى وصلت رافنا كانت عديمة التأثير (٤) • وتعد هـذه المحاولة آخر محاولة جادة قام بهـا الأباطرة البيزنطيين لاستعادة نفوذهم السليب فى ايطاليا الوسطى ، واضطروا بعدها الى ترك البابوات وشأنهم ، فى حين

---

(1) Gregorovius, II, pp. 240-242; Barry, The Papal Monarchy, p. 72; Workman, The Papacy and Temporal Power, p. 86.

(2) Oman, p. 284.

(3) Diehl, p. 59; Diehl & Marcais, III, pp. 266-267;

— سعيد عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٣٩ .

— موس : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

(4) Oman, op. cit., pp. 284-285; Diehl & Marcais, op. cit., III, p. 267.

انزوى الاكسارخ فى قلعته برافنا ، ولم يعد له شأن يذكر (١) •

وفى تلك الأثنـاء ارتبط ليوتبراند بصلات المودة والصداقة مع شارل مارتل رئيس البلاط والحـاكم الفعلى فى مملكة الفرنجة •ومما يؤكد متانة هذه الصلات أن شارل مارتل بعث بابنـه ببين عنـد بلوغه مرحلة الرجولة الى ليوتبراند ، ليقلده سيف الفروسية ويقص شعره طبقا لعادة جرمانية ، فشمله برعايته ، وأعاده الى وطنه محملا بالهدايا • أضف الى هـذا أنه عندما غزا المسلمون فى الأندلس اقليم بروفانس فى سـنة ٧٣٧ ، وأغاروا على آكس Aix وآرل ، طلب شارل مارتل مساعدة اللومبارديين ، فاستجاب ليوتبراند على الفور ، وعبر بجيوشه جبـال الألب ، حيث شارك فى إبعاد المسلمين عن تلك الأماكن (٢) •

على أن السلام الذى عم ايطاليا بفضـل اتفاقية الصـلح التى عقدها ليوتبراند مع البابوية ، لم يقدر له البقـاء طويلا • ذلك أنه فى سنته ٧٣٨ ثار ترانسموند دوق سبوليتو على مليكه ليوتبراند مرة أخرى • وعلى الرغم من أن ليوتبراند لم يتعب كثيرا فى اخماد هـذه الثورة ، فقد استطاع الدوق أن يفر الى رومـا للاحتماء بالبابا جريجورى الثالث (٣)• وعندئذ طالب ليوتبراند البابا بتسليمه تابعه الدوق ، بيـد أنه رفض ، ممـا جعل ليوتبراند يغير سياسته الودية تجـاه البابوية ، ويقف منهـا موقفا حازما ، ومن ثم زحف بجيوشه صوب روما ، وفى طريقه اليهـا استولى على أورتى ، وبومازو ، ومدينتين فى جنوب توسكانيا ، وأخيرا وصل رومـا وفرض عليها الحصار (٤) • ومن المؤكد أن جريجورى الثالث

---

(1) Oman, p. 285.

ـــ سعيد عاشور : المرجع السابق ، حـ ١ ، ص ١٥٤ •

(2) Paul the Deacon, pp. 296-297.

(3) Ibid, p. 299.

(4) Oman, op. cit., p. 285.

فى هـذا الموقف العصيب طرح بعيدا فكرة الاستنجاد بالامبراطور ليو الثالث بسبب النزاع الدائر بينمهـا حول عبادة الأيقونات • ولهـذا عز قراره على أن يستصرخ شارل مارتل رئيس البلاط وصاحب النفوذ الفعلى فى مملكة الفرنجة فى سنة ٧٣٩ ، كمـا أرسل اليـه مفاتيح قبر القديس بطرس ، وخلع عليه لقب بطريق الرومان (حامى الرومان) Patricius (١) ، Romanorum وهو من الألقاب التى كان منحها من حق الامبراطور البيزنطى وحده ، وليس من حق البابا أن يخلعه على آخرين (٢) •

والواقع أن مـا فعله جريجورى الثالث يعد أول سابقة من نوعهـا فى تاريخ البابوية خلال العصور الوسطى ، إذ لم يحدث من قبل أن استعان أحد البابوات بقوة من خارج ايطاليا عدا الامبراطورية البيزنطية وريثة الامبراطورية الرومانية القديمة • وقد استاء ليوتبراند من هـذا المسلك ، ولا سيما أن البابا وقف الى جانب دوق سبوليتو فى ثورته ، وآواه عندما فر اليه • كمـا اتهم ليوتبراند بأنه زحف على رومـا لتدنيس مقدساتها

---

(١) فى عهد الامبراطور قنسطنطين العظيم (٣٣٦ — ٣٣٧) كان لقب حامى الرومان أعلى رتبة بعد الامبراطور والقنصـل • وقد منحه البـلاط الامبراطورى احكام ولايات الامبراطورية من الدرجة الأولى ، فى حين منح لبرابرة بهدف اشباع غرورهم واسترضائهم ، ومن بين أولئك الذين خلع عليهـم هذا اللقب أودواكر ، وثيودوريك ، وسيجسموند البرجندى ، وكلوفيس • وفى أوقات لاحقة منح لأمراء مسامين وبلغاريين • وقد جرى العرف فى القرنين السادس والسابع على ربط هذا اللقب بنواب الامبراطور (الاكسارخات) • ولاشك أن قيام البابوية بخلع هذا اللقب على احدى الشخصيات امـر لا يستند الى حق شرعى ، اذ هو من حق الامبراطور البيزنطى وحـده ، بيد أن البابوية استهدفت من وراء ذلك تأييدها وطاعتها والدفاع عنها ضد اعدائها اللومبارديين • أنظـر :

Bryce, The Holy Roman Empire, pp. 40-41.

(2) Oman, pp. 285-286; Barry, p. 72.

وانتزاع حقوق الكنيسة ، وهي مزاعم كاذبة يفندها أن ليوتبراند كان السند والمعين للبابوية ، إذ أنقذها من دمار محقق كاد اكسارخ رافنـا يلحقه بهـا قبل ذلك بثماني سنوات • والحق لأن البابا كان يكره الجنس اللومباردي كراهة مقيتة ، لا تقل عن كراهته لمناهضي عبادة الأيقونات في في القسطنطينية ، حتى أنه سماهم هراطقة • ومن الواضح أن تسخصية ليوتبراند التقيـة المحبة للسلام إذا قورنت بمعاصريه ملوك الفرنجـة لا تعدم أي وجه للمقارنة أو الموازنة ؛ ولهـذا يدهش المرء عندما يقف على النعوت الظالمة التي أطلقها جريجوري وخلفاؤه على اللومبارديين ، من أنهم « جنس نتن ، كذابون ، فسقه غير أتقياء ، نهابون ، سفاكون للدماء » (١) • ومن العجيب أن كل هـذا السخط والسباب يرجع الى أن ليوتبراند أراد معاقبة البابا لايوائه أحد الخارجين عليه !

ومما يجدر ذكره أن شارل مارتل رفض التدخل في ايطاليا من أجل دوافع لا تتفق في حقيقتها مع مزاعم البابا • إذ لم يشأ أن يدخل في نزاع مع حليفه القديم ليوتبراند الذي قدم له العون في حروبه ضد مسلمي الأندلس ، في حين لازال منشغلا بغاراتهم المستمرة على الأقاليم الجنوبية من مملكته (٢) • بالاضافة الى أنه كان يعمل على حماية حدوده الشمالية من الفريزيين والسكسون والبافريين والأليمـاني وغيرهم (٢) • وأخيرا كان شارل مارتل على علاقة سيئة بكنيسة الفرنجة بسبب استيلائه على أراضيها (٣) • ولهذا كله لم يستجب لنداء البابا ، وإن كان قد استقبل سفارته بحفاوة وقبل لقب البطريق ، ثم أعادها محملة بهدايا قيمة ، ويرفقتها

---

(1) Oman, pp. 286-287.

(2) Oman, p. 287.

(٣) ديفز : أوربا في العصور الوسطى ، ص ٤٧ — ٤٨ •
— موس : ميلاد العصور الوسطى ، ص ٣١٨ •

(4) Lot, Pfister & Ganshof, p. 226.

سفارة من قبله كلفهـا بمهمة التوفيق بين البابا والملك اللومباردى ، دون أن تتدخل لصالح أحدهما على حساب الآخر (١) •

وعلى أية حال ، توفى شارل مارتل عاهل الفرنجة ، والامبراطور ليو الثالث الأيسورى ، والبابا جريجورى الثالث فى عام واحد هـو ٧٤١ ، وقد خلف الأخير البابا زكريا (٧٤١ — ٧٥٢) • وهنا نلاحظ أن البـابا الجديد ، بعد ن أوصدت مملكة الفرنجة أبوابهـا دون مساعدته ، وحرصا على مصالحه ، اضطر الى أن يسلك مسلكا طيبا تجاه ليوتبراند على النقيض من سلفه • وتبعـا لذلك دخل الاثنان فى مفاوضات ، وعد ليوتبراند البابا بموجبها بتسليمه المدن الأربعة التى استولى عليهـا ، مقابل أن يتخلى البابا عن الوقوف الى جانب ترانسموند دوق سبوليتو مستقبلا (٢) • ومع ذلك فانه كان من الصعب التكهن بمـا يجول فى خاطر البابا ، ومن المحتمل أنه جنح الى الهدوء وقتئذ ، ترقبا لفرصـة أخرى تتيح له التآمر ضـد اللومبارديين •

وكان أن رجع ليوتبراند عن روما الى توسكانى ، ولكنـه تأخر فى تسليم المدن الأربعة • وعندئذ لم يجد البابا زكريا مفرا من مغادرة رومـا فى ربيع سنة ٧٤٢ للاجتماع بليوتبراند وحثه على الوفاء بما تعهد به • ولما وصلت الأنبـاء الى ليوتبراند بذلك ، استقبله بنفسـه فى ترنى Terni باقليم سبوليتو • وهنـا استطاع البابا ببراعته وفصاحته البلاغية أن يستحوذ على عقل ليوتبراند ، فسلم المدن الأربعة ليس لصاحبها الشرعى الامبراطور البيزنطى ، بل للبابوية ، كمـا تنازل له عن مدن أخرى وهى نارنى وأوزيمو وأنكونا ونومانا وفال ماجنا Valle Magna (٣) • وأخيرا ختم الملك اللومباردى أريحتيه مع البابا بالتصـديق على معاهدة

---

(1) Oman, p. 287.

(2) Gregorovius, op. cit., II. p. 258.

(3) Ibid, II, pp. 259-261.

سلام بينهمـــا مدتها عشرون سنة ، كمـــا أطلق سراح الأسرى الرومان • ولا حاجة بنـــا الى القول ان البابا حقق مكاسب فاقت توقعاته ، وجعلته يدخل روما مزهوا ، حيث حيته الجماهير وسط صيحات الفرح (١) •

هـــذا وقد دفعت الظروف الملحة فى الاكسارخية البابا زكريا للقيام برحلة ثانية الى بافيا فى يونيو من نفس العـــام (٧٤٢) • وذلك أن اتفاقية الصلح التى عقدهـــا مع ليوتبراند لم تشمل الاكسارخية ، ولذا أخـــذ ليوتبراند يوجه أعماله الحربية نحو رافنا ، فأغار عليهـــا ، كمـــا استولى على ايميليـــا والبنتابوليس • والواقـــع أن الاكســـارخ لم يجد أفضل من زكريا ليقوم بدور الوســـاطة بينه وبين ليوتبراند ، وفى الوقت نفســـه طلب يوحنا رئيس أساقفـــة رافنـــا الى البابا أن يتدخل بنفوذه لإنقـــاذ بقية المدن الأخرى من التهديد اللومباردى • ومن أجل هـــذا الغرض اجتمع البابا بالملك اللومباردى ، وقد حالفـــه التوفيق حتى أن ليتبراند وافق على أعادة المدن التى استولى عليها للاكسارخية (٢) •

ومهمـــا يكن من أمر ، فقد توفى ليوتبراند فى سنة ٧٤٤ بعد حـــكم طويل دام حوالى أثنتين وثلاثين سنة ، كان خلاله صاحب الفضـــل فى توحيد مملكة اللومبارديين ، وتثبيت دعائمها • فقد اســـتطاع أن ينتزع الجزء الأكبر من ممتلكات الاكسارخية ويضمها الى مملكته ، ونجح فى تأمين حـــدوده ودفع خطر جيرانهـــا البافاريين والسلاف ، كمـــا أنزل دوقيتى بنفنتوم وسبوليتو الى مرتبة من التبعية لم تعهدهمـــا من قبل • والحق أن جميع المعاصرين شهدوا له بالمقدرة وأثنوا على سلوكه الطيب ، باستثناء البابوية التى دمغته بتهم هو برىء منهـــا فى الواقع • كذلك أجمعت المصادر على أنه كان أعظم ملوك عصره ، إذ جعل ايطاليا فى مأمن من أية أخطار خارجية ، بدليل أنهـــا بعد وفاته أضحت هدفا لأطماع جارتها

---

(1) Ibid, II, p. 261.

(2) Ibid.

مملكة الفرنجة (١) • ولكن . على الرغم من كونه اداريا قديرا ، ومشرعا عظيما . ومحاربا شجاعا ، على حد سواء . فالأمر الذى يدعو الى الدهشة أن هذه الشخصية العظيمة ، كانت على غرار شخصية ثيودريك ملك القوط الشرقيين لا تقرأ ولا تكتب •

التحالف بين البابوية والفرنجة :

ثم خلف ليوتبراند ابن أخيه هلدبراند ، الذى لم يحتفظ بالعرش إلا ثمانية شهور ، إذ خلعه اللومبارديون لضعفه ، واختاروا محله راتشيس Ratchis دوق فريولى (٧٤٤ — ٧٤٩) أقوى شخصية فى شمال المملكة (٢) • والجدير بالذكر أنه حافظ على معاهدة السلام المبرمة بين سلفه ليوتبراند والبابوية حتى سنة ٧٤٩، حيث تعرض — لأسباب لا نعلما — لمتاعب فى هذه السنة ، جعلته يهاجم البنتابوليس ويفرض الجسار على بيروجيا التابعة للبيزنطيين • وعندئذ خرج البابا زكرا من روما ومعه أتباعه لزيارة راتشيس فى معسكره لمحاولة اقناعه بالكف عن أعماله الحربية ، والحفاظ على السلام فى ايطاليا • وقد حالف البابا توفيق كبير . اذا انصاع راتشيس لمطالبه ، وأوقف هجومه على المدن البيزنطية • غير أن نبلاءه وأعوانه عدوا ما حدث منه بمثابة خضوع للبابوية لا يمكن السكوت عليه ، وبادروا بعقد اجتماع فى ميلان فى يونيو سنة ٧٤٩ ، اتفقوا بموجبه على خلع راتشيس ، واختاروا بدلا منه أخاه الأصغر أستولف Aistulf وهو شخصية تميزت بعنادها وصلابتها ، أما الملك المخلوع فقد اختار أن يرتدى مسوح الرهبان فى دير مونت كاسينو (٣) •

---

(1) Oman, op. cit., p. 287.

(2) Gregorovius, op. cit., II, p. 262.

(3) Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 226.

والجدير بالذكر أن آستولف على النقيض تماما من سلفيه هلدبراند الضعيف ورانشيس الورع . اظهر تمسكا شديدا بسياسة ليوتبراند الرامية الى وقوع ايطاليا كلهـا فى حوزة اللومبارديين ، ووفقا لهـذه السياسة آضحى استولف يشكل خطرا على الممتلكات البيزنطية والبابوية جميعا(١) • والحق أن تطور الأوضاع فى ايطاليا آنذا كان ينبىء بتوحيدها تحت راية مملكه ترجع فى آصولها الى اولئك الجرمان الذين « ترومنوا » Romanized فى عاداتهم وتقاليدهم على غرار مملكة القوط الشرقين التي أزالها الامبراطور جستنيان من الوجود ، وكان أستولف بسبيل تحقيق هـذه المملكة ، لولا أن البابوية لم تقف حجر عثرة فى طريقه فحسب ، بل قلبت سياستـه رأسا على عقب (٢) •

ولا شك أن البابوية منـذ أوائل القرن الثامن لو اختارت أن تقيم سياستها على مبدأ التحالف مع اللومبارديين لتغير مجرى تاريخ ايطاليا ، وقد كان لديهـا ما يسوغ ذلك لو شاءت • ذلك أن اللومبارديين أظهروا قابلية واضحة للحضـارة والاستقرار ، بعد آن نبذوا الآريوسية ، ودونوا قوانينهم . ومضوا قدما فى فنون الحياة خاصة على عهـد ملكهم القدير ليوتبراند • كمـا أنهم دلوا على أنهم السند والمعين دائمـا فى صد أية أخطار تأتى من ناحية الدولة البيزنطية ، ولكن البابوية بذكائها ومهارتها فى معالجة الشئون السياسية ، رأت أنهم ليسوا أهلا للاعتمـاد عليهم ، ولا سيما أن عاصمتهم بافيا على مقربة من روما ، وأنه اذا قدر للملوك اللومبارديين أن ينفردوا بالنفوذ المطلق فى ايطاليـا ، فسوف تصـبح البابوية مجرد أسقفية لومباردية (٣) •

---

(1) Ibid., Lot, The End of the Ancient World, p. 290.

موس : ميلاد العصور الوسطى ، ص ٣١٨ .

(2) Lot, pp. 290-291: 306-308.

(٣) غشر : أوربا العصور الوسطى : ص ٨٢ — ٨٣ ،

— ابراهيم العدوى : المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى ، ص ٩٥ .

وعلى أية حال ، لم يكد أستولف يتبوأ عرش المملكة اللومباردية ، حتى بدأ ينفــذ مشاريعه التوسعية بغرض السيطرة على ايطاليا كلهـا كمـا أسـلفنا ؛ فاستولى عـلى كوماكيو Comacchio وفيرارا • وفى يوليو سنة ٧٥١ سقطت رافنا أمام هجماته . وبذلك فقدت الدولة البيزنطية نهائيا أملاكها فى شمال ايطاليا (١) . وضاع على البابوية كل أمل فى الاعتماد على قوات تلك الدولة فى ايطاليا • وفى العـام التالى (٧٥٢) حشـد أستولف كل طاقته وموارده ، واندفع الى رومـا بغية اخضاعها . ولكن الأمر لم يكن كمـا تصور أستولف ، ذلك أن البابويه ليست صـيدا سهلا يأمل أن يقع فى شباكه بسهولة كمـا سنرى بعد قليل •

وفى تلك الأثنـاء مات البابا زكريا ، وخلفه البابا ستيفن الثـانى (٧٥٢ — ٧٥٧) • وقد حاول البابا أن يخيف أستولف . فهدده بانزال قرار اللعنة عليه والاستنجاد بامبراطور الدولة البيزنطية ؛ ولكن هـذا التهديد لم يفلح فى تحويل أستولف العنيد عن قصده (٢) • وينبغى الاشارة هنا الى أن البابا رغم أنه لم يقطع صلته تماما بالدولة البيزنطية ، فإنه فى الوقت ذاته كان يدرك أنه ليس بوسعه الاعتماد عليهـا ، بغض النظر عن رأيه فى أباطرتها بوصفهم لا أيقونيين هراطقـة • ويرى بعض الباحثين أن البابوية فى معالجة أمورها السياسية كانت تتجاهل الاختلافات الدينيـة بينهـا وبين الدولة البيزنطية وتحافظ على الارتباط بهـا ، مادامت لاتجد قوة أخرى تعتمد عليها فى مقاومة الضغط اللومباردى (٣) • وعلى أية حال ، اندفع البابا يائسا الى طلب العون من قنسطنين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥)

---

(1) Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine State, p. 170; Lot, The End., p. 290; Orton, Outlines of Med. Europe, p. 132.

(٢) اسحق عبيد : الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ص ٢٠١ — ٢٠٢ •

(3) Ostrogosrky, p. 170; Hollister, Medieval Europe, p. 71; Diehl, Hist. of the Byzantine Empire, p. 61.

امبراطور الدولة البيزنطية . ولكن بسبب انشغاله بالنضـال اللاأيقونى من جهـة وبمحاربة البلغـار والمسلمين من جهـة أخرى (١) ، اكتفى الامبراطور بايفاد بعثة دبلوماسية من قبله الى أستولف وصلت رومـا أولا ، ثم غادرتها فى ١٤ أكتوبر سنة ٧٥٣ بمرافقة البابا الى بافيا ، لاجراء مفاوضات مع أستولف حول اعادة الاكسارخية ، بيد أن الأخير تجاهل مطالب البابا . وعامل السفارة البيزنطيه معاملة غير كريمة (٢) .

وبعد أن أخفق البابا ستيفن الثانى « الثالث » فى مفاوضاته مع أستولف . غادر بافيا فى ١٥ نوفمبر من العـام نفسه ، وفى هـذه المرة لم يعد الى مقر كرسيه فى رومـا ، بل اتجه شمالا ، وعبر جبال الألب الى مملكة الفرنجة حاملا معـه مصير ايطاليا التى قدر لهـا منذئذ ألا تدور فى فلك الدولة البيزنطية ، ولا تتوحد تحت سيطرة اللومبارديين ، لتخضع بعد ذلك ولقرون عديدة لسادة جدد أتوا من وراء الألب (٣) .

وممـا يستحق الذكر أن الظروف التى كانت تمر بهـا مملكة الفرنجة آنذاك قد أثرت تأثيرا عميقا فى مستقبل البابوية واللومبارديين جميعا . ففى القرن الثامن صـار رؤساء البلاط فى مملكة الفرنجـة الميروفنجيين أصحاب السلطة الواقعية de facto ، فى حين أضحى ملوكها المتأخرون ظلالا باهتة ، بعد أن خرجت السلطة من أيديهم وتقلصت أملاكهم ، ومع ذلك يحملون اللقب الملكى ، ووفقـا للتراث الفرنجى لم يكن هناك من سبيل يمكن رئيس البلاط ببين القصير — ثانى أبنـاء شارل مارتل — من انتزاع اللقب لنفسه (٤) . وصحيح أن الوقت قد حان للاطاحة بالملكية

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، حـ ١ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(2) Lot, The End., p. 40; Lot, Les Invasions Germaniques, p. 288; Diehl & Marcais, III, p. 276; Mann, The Lives of Popes, I, Part II, pp. 293?294.

(3) Lot, The End., p. 309.

(٤) كانتور : تاريخ العصور الوسطى ، حـ ١ ص ٣٧٤ .

الفرنجية الميروفنيجية ، غير أن قطع الصلة بأمجاد هذه الملكية وتراثها القديم ، ربما صدم شعور سكان المملكة (١) • وفى هذا الصدد نلاحظ أن الغالبية العظمى من المعاصرين كانت لا تزال مشبعة بالأفكار الوثنية حول شخصية الملوك الدينية ، حتى بالنسبة الى أولئك الذين تحولوا الى المسيحية ، فضلا عن أنهم أضفوا على الدولة الميروفنجية . حتى فى أحلك أيامها سحر الشرعية الغامضة (٢) ولهذا كان ببين القصير بحاجة أكيدة الى تأييد الكنيسة والسلطة البابوية على وجه الخصوص ؛ كى ينتزع العرش الفرنجى لنفسه . وكان أن اتضح أمامه الطريق الى يجب أن يتبعه بفضل أعمال صديقه المبشر الانجليزى بونيفاس (ت ٧٥٤) . وازدياد نفوذ الكنيسة الغربية فى المجتمع الفرنجى ؛ والنظرة الجديدة المفعمة بالاحترام التى نظر بها رجال الكنيسة الفرنجية الى البابوية(٣)• وفى هذه الأثناء كان هدف ببين القصير وبونيفاس إعلاء شأن البابوية فى غرب أوربا ، وتقوية البعثات التبشيرية المسيحية الى ألمانيا . وإصلاح الكنيسة فى مملكة الفرنجة اصلاحا شاملا (٤) • وهنا كافأت البابوية ببين القصير على موقفه منها ، وذلك عندما سأل ببين البابا ستيفن اذا كان يصح له شرعيا أن يقوم بخلع الملك الميروفنجى ويتخذ التاج لنفسه أولا ، فأفتاه بأن له الحق فى خلع الملك الميروفنجى الضعيف من سلالة كلوفيس ، ولم يلبث أن استغل ببين هذه الفتوى ، فبادر بعقد مجمع فى سواسون سنة ٧٥٢ ، توجه فيه بونيفاس ملكا بحضور ممثلين عن البابا ، أما آخر ملوك البيت الميروفنجى ، فقد حلق شعره ، وأودع أحد

---

(1) Bryce, The Holy Roman Empire, p. 39.

(2) Hulme The Midd'e Ages, p. 255.

(٣) كانتور : المرجع السابق ، جـ ١ ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .

(4) Bark, Origins of the Med. World, p. 79;

فشر : المرجع السابق ، ص ٨٣ — ٨٤ .

الأديرة (١) وهكذا صارت البابوية صاحبة الفضل فى تثبيت ببين فى الملكية ، وخلع صفة الشرعية على حكم البيت الكارولنجى — الذى صار منذئذ البطل الحامى للكرسى البابوى • وبعبارة أخرى ، يعد هـذا الحادث التاريخى بمثابة دعوة مفتوحة أمام دولد الفرنجة الكارولنجيين ، للتدخل فى شئون ايطاليا ، وقد حدث ذلك فعلا ، بعد سنتين فحسب (٢) •

ونخرج من هـذا الاستطراد الى أن البابا ستيفن الثانى إزاء الخطر اللومباردى ، وقد أغلقت جميع المنافذ فى وجهـه ، وجد نفسـه مضطرا لطلب العـون من مملكـة الفرنجـة الكارولنجية • ولهـذا الغرض عبر جبال الألب للاجتماع بملك الفرنجة كما أسلفنا القول • وفى خارج بونتيون استقبلته بعثـة شرف برئاسة شارلمان — ابن ببين القصير — لتصحبه الى القصر الملكى فى هـذه المدينة • أمـا ببين القصير وابنـه الثانى كارلومان والملكة ورجال البلاط الملكى ، فقد انتظروا البابا على بعد ثلاثة أميـال من المدينة • وفى اللقـاء التاريخى الذى تم بين البابا وببين فى ٦ يناير سنة ٧٥٤ ، رأى شارلمان والده وقد ترجل من على صهوة فرسه ، وانحنى أمام البابا ، ثم سار خلف مركبته كأحد الفرسان التابعين له ، حتى دخل مدينة بونتيون • وفى ١٤ أبريل من العـام نفسه ، وهو اليوم الموافق لعيد الفصح ، عقد اجتماع فى كيرزى Quierzy ، تنازل فيه ببين للبابا عن المدن والأقاليم الايطالية • وأخيرا وفى يوم الأحد ٢٨ يوليو من العام نفسه ، وفى كنيسة القديس دنيس Saint - Denis قام البابا بتتويج ببين ملكـا على الفرنجة بيـديه ، وبارك ولديه شـارلمان وكارولومان ، وتلى ذلك أن خلع عليهم جميعا لقب بطريق الرومان ، وهدد

---

(1) Scott, Med. Europe, p. 79; Hulme, p. 255; Hollister, Med. Europe, p. 72; Stephenson, Med. Hist., p. 146.

دوسن : تكوين أوربا ، ص ٢٦٤ .

(2) Scott, op. cit., pp. 24-25.

بانزال لعنته على كل من تسول له نفسه الوقوف فى وجه مملكة الفرنجة(١) .

ولا شك أن الفارق يبدو واضحا بين الموقف الذى اتخذه ببين القصير تجاه البابوية ، وموقف والده شارل مارتل منها . فكما رأينا ، رفض الأخير تقديم العون للبابوية حينما استنجدت به لدفع خطر اللومبارديين فى سنة ٧٣٩ ، لعلاقته الطيبة بمليكهم ليوتبرمند آنذاك من جهة ، ولانشغاله فى إبعاد مسلمى الأندلس عن اقليم سبتمانيا من جهة أخرى . ولكن ببين على الرغم من أنه كان منشغلا أيضا بمحاربة المسلمين فى بلاده ، لم ينس الجميل الذى طوقت به البابوية عنقه بتتويجه ملكا على الفرنجة ، فى الوقت الذى يراها خير سند لملكته الوليدة التى لم تقف على قدميها بعد . ومما يذكر أن كثرة من نبلاء الفرنجة رأت فى اقحام مملكتهم فى الشئون الايطالية أمرا سوف يعرقل الى حد بعيد جهودها الرامية الى صد مسلمى الأندلس عن أقاليمها الجنوبية ، والحق أن رأى هؤلاء النبلاء كان جديرا بالاعتبار ، وينطوى على جانب عظيم من الأهمية (٢) .

ومن المسلم به أن التحالف البابوى الفرنجى كان بداية النهاية لمملكة اللومبارديين ، بدليل أن أستولف قد أصابه الفزع ، وحاول أن يسترضى البابوية بتغيير سياسته معها ، ولكن الوقت كان قد فات . إذ لم يلبث أن أعلن ببين الحرب على اللومبارديين ، واقتاد حملة ضخمة زحف بها على شمال ايطاليا فى ربيع سنة ٧٥٢ ، وفى المعركة التى دارت بين الطرفين فى وادى سوسا ، استطاع ببين أن يلحق هزيمة ساحقة بأستولف ، فر على أثرها مدحورا الى عاصمته بافيا ، ولكن ببين لاحقه فى معقله ، وتحت ضغط الحصار الذ فرضه على تلك المدينة ، اضطر

(1) Gerard & Mowat, Einhard's Life of Charlemagne, p. XLV; Kleinclausz, Charlemagne, p. 2; Hollister, p. 72; Deanesly, A Hist. of Early Med. Europe, pp. 252-253.

(2) Hoyt & Chodorow, Europe in the Middle Ages, p. 151.

أستولف الى طلب الصلح (١) . وانتهى الأمر بعقد اتفاقية صلح بين الجانبين فى سنة ٧٥٦ ، وافق أستولف بمقتضاها على رد رافنا والأملاك البابوية . فضلا عن اعترافه بالتبعية لملك الفرنجة . وتلا ذلك أن دخل البابا ستيفن مدينته مزهوا بالانتصار الذى أحرزه على غريمه ، فى حين عاد الملك الفرنجى الى بلاده . ومع ذلك لم تتحسن الأمور ، إذ استغل أستولف خروج الجيش الفرنجى من ايطاليا ، وتراجع عن الوفاء بما تعهد به ، واستأنف أعماله الحربية بتضييق الخناق على روما ، مما دفع البابا الى أن يستنجد بحليفه ببين مرة أخرى . وكان أن أتى الأخير على عجل الى ايطاليا لانقاذ روما ، وبدأ بحصار بافيا ، وفى هذه المرة كانت الشروط التى فرضها ببين على أستولف أشد قسوة من سابقتها ، فعلاوة على التخلى عن رافنا وأراض أخرى للبابوية ، تعهد أستولف بتقديم جزية سنوية تعادل ثلث دخله الملكى (٢) . ومما يسترعى الانتباه أن الأراضى التى تنازل عنها ببين للباوية المعروفة فى التاريخ بهبة ببين Donation of Pippin ، كانت — أصلا تابعة للدولة البيزنطية(٣) . وتتمثل هذه الأراضى بالاضافة الى رافنا وبعض المدن التابعة لها ، فى اقليم البنتابوليس : ريمينى ، وبيسارو ، ومسينا ، وسنجاجليا ، وجيبى ، وفورليمبوبولى ، وفورلى ، وسانت مارين ، وكوماكيو الواقعة عند مصب البو ، وكاجلى ، وجوبيو على الطريق البيزنطى الاستراتيجى القديم الذى يربط رافنا بروما ، ونارنى شمال روما (٤) . والواقع أنه لا يستطيع أحد أن يقلل من خطورة هذه الهبة وآثرها فى تاريخ أوربا العصور الوسطى ،

---

(1) Orton, Outlines of Med. Europe, pp. 133-134.

(2) Universal Hist. of the World, p. 2416.

موس : المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(3) Eyre, European Civilization, p. 190.

(4) Halphen, Charlemagne et l'Empire Carolingien, p. 100; Kleinclausz, p. 6.

إذ يكفى أنها أوجدت الحكومة Papal State ، التى امتدت أملاكها من البحر الأدرياتى ورافنا شرقا حتى روما غربا ، وصارت عقبة كأداء فى سبيل الوحدة الايطالية حتى سنة ١٨٧٠ (١) . هذا فى الوقت الذى أخفقت فيه مملكة اللومبارديين فى محاولتها توحيد ايطاليا تحت نفوذها ، ورجعت خريطة ممتلكاتها الى ما كانت عليه قبل أن يشرف القرن السابع على نهايته .

وإذا كان ببين بتدخله فى شئون ايطاليا لم يخرج بأية مكاسب اقليمية كما رأينا ، فالواقع أن ما حققه أعظم من ذلك بكثير . إذ غدت المملكة اللومباردية لا تسبب ازعاجا لجارتها مملكة الفرنجة ، وأهم من ذلك أن البابوية منذئذ قد أشاحت بوجهها بعيدا عن القسطنطينية ، وبمعنى آخر قطعت الخيط الواهى الذى يربطها بالدولة البيزنطية ، واستعاضت عنه بمملكة الفرنجة التى وجدت فيها حليفا قويا يدافع عنها ضد أعدائها ؛ مما جعل لهذه لمملكة وضعا مميزا عن بقية الممالك الأوربية قدر له أن يؤثر فى مستقبل أحداث أوربا العصور الوسطى . ولعل أبلغ تعبير عن ذلك ، ما قاله المؤرخ الأمريكى جورج لنكولن بير George Lincoln Burr فى معرض حديثه عن اللقاء التاريخى بين البابا ستيفن الثانى وببين ملك الفرنجة : « ثمة أمور كثيرة نبعت من التحالف البابوى الفرنجى ، تتمثل واضحة فى السلطة الزمنية التى اكتسبها بابوات روما ؛ وفصل المسيحية اللاتينية عن المسيحية الاغريقية ، والغزو الفرنجى لايطاليا . وقيام الامبراطورية الرومانية المقدسة » (٢) .

ثم كان أن لقى أستولف مصرعه خلال رحلة صيد كان يقوم بها فى ديسمبر سنة ٧٥٦ ، وجرى استدعاء أخيه راتشيس من دير مونت كاسينو ليخلفه ، بيد أن دسيدريوس Desiderius الذى كان يريد العرش لنفسه

---

(1) Hulme, p. 225; Hollister, p. 72.

سعيد عاشور : المرجع السابق ، حـ ١ ص ١٥٧ .

(2) Hulme, op. cit., p. 255.

عارض بشدة عودة راتشيس الى العرش ٠ والجدير بالذكر أن دسيدريوس لقى تأييدا قويا من البابا وببين ، ساعده فى الوصول الى العرش ، وذلك بعد أن أخذا منـــه وعدا بالمحافظة على الاتفاقية التى عقدهـــا سلفـــه ســـنة ٧٥٤ ، وجرى تجديدهـــا سنة ٧٥٦ ، يضـــاف الى ذلك أن دسيدريوس أقســـم فى حضور ممثل ببين فى ايطاليـــا ، أن يعيد الى البابا أن دسيدريوس أقسم فى حضور ممثل ببين فى ايطاليا ، أن يعيد الى البابا مدن فاينزا ، وإيمولا ، وفيرارى ، وبولونيا ، وأنكونا ، وأوزيمو ، وأومانا والمناطق التابعة لهـــا ، أمـــا راتشيس فقد أمر البابا بإعادته الى عزلتـــه الديرية (١) ٠

سقوط مملكة اللومبارديين :

لم يكد دسيدريوس يتوج ملكـــا فى مارس ســـنة ٧٥٧ ، حتى بدأ يكشف عن نوياه الحقيقية تجـــاه البابوية ومملكة الفرنجة ٠ ويظهر ذلك واضحا فى أنهاستغل فرصة انشغال ببين بمتاعبه فى اقليم أكوتين ، فى الوقت الذى ارتفع صوت نبلاء الفرنجة احتجاجا على تدخل مليكهم فى شئون ايطاليا ، ورفض أن يسلم البابا الأراضى التى وعده بهـــا باستثناء فاينزا ودوقية فيرارى (٢) ٠

ثم كان أن مات ببين القصير فجأة سنة ٧٦٨ بعد حياة حافلة بالأحداث رغم قصرها ٠ ووفقـــا لتقاليد الفرنجة التى تقسم الملك كالارث بين الأنباء ، قام ببين وهو على فراش الموت بتقسيم مملكتـــه بين ولديه شارلمان الذى كان آنذاك فى حوالى السادسة والعشرين ، وكارلومان الذى كان فى العشرين ٠ وبمقتضى هـــذا التقسيم حصل شارلمان على حزام من

---

(1) Deanesly, p. 258: Barry, The Papal Monarchy, pp. 83-84; Orton. pp. 134-1135.

(2) Kleinclausz, op. cit., pp. 6-7.

الأرض يمتد من أكوتين حتى الجزء الجنوبى الغربى من أوستراسيا . وهو الذى يمثل حاليا كل فرنسا الحالية والأراضى المنخفضة ، والأراضى المطلة على الحدود الألمانية ، فى حين كان من نصيب كارلومان بقيــة أوستراسيا والجزء الشرقى من المملكة وهى المنطقة التى تمثل كتلة متماسكة من الأرض تمتد من باريس شمالا الى ساحل البحر المتوسط جنوبا . والى الشرق بحيث تغطى سويسرا وجزءا كبيرا من ألمانيا الجنوبية (١) . على أن الأخوين لم تسد بينهمــا روح الود والوفاق منــذ البداية ، ففى خلال السنوات الثلاثة الأولى من حكمهما كانا دوما على حافة نزاع ؛ ولولا نفوذ أمهمــا برثا لقامت الحرب بينهمــا عقب وفاة أبيهمــا مباشرة ، وقد ازداد النفور بينهما عندما استنجد شارلمان بأخيه إبان الثورة التى اندلعت فى إقليم أكوتين ؛ فرفض نجدته ، ومع ذلك نجح شارلمان فى اخماد ثورة الأكوتيين ، حيث قســم أراضيهم الى كونتيات حسب النظام الفرنجى المألوف ، وقام بتوزيعها على أتباعه المقربين (٢) .

وفى غضون ذلك ، كانت المتاعب قد أطلت برأسها فى رومــا بعد وفاة البابا بولس الأول فى ٢٨ يونيو سنة ٧٦٧ ، وذلك أن أحد المغامرين ممن ينتمون الى الأرستقراطية العســكرية الثرية فى روما ويدعى توتو Toto ، قد فرض على الجميع ــ تحت سلاح القوة والتهديد ــ انتخاب أخيه قنسطنطين لكرسى البابوية ، ولمــا كان الأخير علمانيا ،ولا يجوز له أن يرتقى المنصب البابوى ، فقــد استطاع فى خلال ســبعة أيام أن يحصل على جميع الألقــاب الكنسية التى تهيئة لهــذا المنصب ، وذلك من خلال سلسلة من أوامر كنسية تم اصدارها على عجــل ، وبموجبها توج بابا فى روما فى ٥ يوليو سنة ٧٦٧ (٣) . وممــا يسترعى الانتباه فى هــذا

(1) Hulme, p. 257; Scott, p. 27; Hoyt & Chodorow, pp. 151-152.

(2) Oman, Dark Ages, pp. 336-337.

(3) Kleinclausz, p. 9; Gregorovius, II, p. 322-325; Mann, The Lives of the Popes, I, Part II, pp. 362-363; Barry, The Papal Monarchy, p. 85.

الصدد ، أنه لم يجرؤ ممثلو مملكة الفرنجة فى روما على التدخل لايقاف ذلك البابا المغتصب عند حده ، مما يدل على أن ملك الفرنجة لم يمارس أى نفوذ فعلى داخل مدينة روما حتى ذلك الوقت • وعلى أية حال ، وجد قنسطنطين نفسه مضطرا للحصول على موافقة ببين ، بوصفه حامى الرومان والمدافع عن البابوية ، فبعث اليه برسالة أوضح فيها أنه وصل الى الكرسى البابوى بطريق الانتخاب مثل سلفه وبموافقة أهالى روما ، وفى ناهية الرسالة أعرب عن اخلاصه وتقديره لمملكة الفرنجة ، ويبدو أن ببين تجاهل الرد على رسالته ، إذ لم تصلنا أية معلومات حول ذلك (١) •

ولكن الفريق الموالى للبابوية بزعامة كريستوفر وابنه سرجيوس لم يقف مكتوف الأيدى تجاه البابا المغتصب • ومن المعروف أن الأول كان مستشارا لبولس الأول (سكرتير البابا) ويحتل مكانة رفعية فى روما ، أما الآخر فقد كان يشغل منصب أمين غرفة المقدسات فى كنيسة القديس بطرس ، وهو من المناصب الهامة فى البابوية • وقد تعاهد الاثنان — كريستوفر ابنه — ومعهما آخرون على الاطاحة بالبابا المغتصب ، ولكن محاولتهما باءت بالفشل ووقعا أسيرين فى أيدى قنسطنطين • وعندئذ عمدا الى حيلة تخلصهما من قيد الأسر ، إذ تظاهرا برغبتهما فى الالتحاق بسلك الرهبنة ، ولما كانت الرغبة تحدو قنسطنطين فى التخلص منهما ، فقد سمح لهما بمغادرة روما ليدخلا أحد الأديرة الواقعة بالقرب من رايتى Rieti ، ولكنهما بدلا من ذلك أسرعا بالتوجه الى دوق سبوليتو ، الذى اصطحبهما الى بافيا للاستنجاد بدسيديريوس (٢) •

وقد استجاب دسيديريوس لمساعدة كريستوفر وابنه سرجيوس ، إذ أبدى استعداده لدهما بجيش لومباردى يمكنهما من دخول روما ، شريطة أن يرافقهما أحد رجال الدين اللومبارديين يدعى والدبرت Waldipert ،

(1) Gregorovius, op. cit., II, pp. 325-326.

(2) Ibid, II, pp. 326-327; Kleinclausz, p. 9; Thompson, The Middle Ages, I, pp. 240-241.

لا لشيء فى الحقيقة إلا لتنفيذ مآربه الرامية الى السيطرة على روما والبابوية ، وكان أن تمكن هذا الجيش ، وبفضل أنصار كريستوفر وابنه داخل المدينة ، أن يقتحم أبوابها فى ٢٩ يوليو سنة ٧٦٨.(١) • وفى داخل المدينة حدث اشتباك بين الجيش اللمبارديك وقوات توتو شقيق البابا المغتصب ، لقى فيه توتو حتفه ، وتبع ذلك أن ألقى القبض على قنسطنين وأعوانه ، حيث زج بهم فى غياهب السجن • وفى وسط الفوضى التى اجتاحت روما وقتذاك أخذت الأحداث مجرى آخر ، إذ دون أن يعلم كريستوفر وابنه ، اختار والدبرت أحد رجال الدين المؤيدين لدسيدريوس ويدعى فيليب لمنصب البابوية • ولكن الحزب البابوى بزعامة كريستوفر وابنه رفض اختيار فيليب للبابوية ، وعبر عن سخطه بانتخاب شماس بابا منافسا فى أول أغسطس سنة ٧٦٨ (٢) ، والمعروف عن هذا البابا الذى حمل اسم ستيفن الثالث (٧٦٨ — ٧٧٢) أنه صقلى ، وكان مواليا للبابا بولس وملازمه الوحيد وهو على فراش الموت • والواقع أنه لم تستقر الأمور بعد ذلك فى روما ، لأن أهاليها صمموا على الانتقام من والدبرت اللومباردى بوصفه مسئولا عن اختيار فيليب للبابوية ، ولم يشفع له ما قام به من أجلهم من قبل عندما ساعد فى الاطاحة بقسطنطين ، فأمسكوا به وألقوه فى سجن بشع ، حيث قضى عليه بالموت (٣) •

ولا شك أن مصرع توتو والاطاحة بالحزب اللومباردى ، وما ترتب على ذلك من اعتلاء ستيفن الثالث كرسى البابوية ، كل ذلك جعل كريستوفر وابنه أهم رجلين فى روما وصاحبى الكلمة العليا فى البابوية • على أن كريستوفر وابنه ما لبثا أن استغلا ضعف البابا الجديد وطيبته ، فاستبدا

---

(1) Gregorovius, Hist. of Rome, II, p. 327; Mann, pp. 366-367; Barry, pp. 85-86.

(2) Gregorovius, II, pp. 328-329.

(3) Ibid, II, p. 331.

بالأمر دونه ، وبعبـــارة أخرى هيمنـــا على البابوية ، وتوليـــا تصريف شئونها ، حتى لقد اضطر البابا الى التنـــازل عن كثير من حقوقه وامتيازاته لهمـــا (١) • وهنا نلاحظ أن البابا حاول أن يقلل من نفوذ كريستوفر وابنه ، بطلب المساعدة من مملكة الفرنجة بوصفها حامية البابوية ، بيد أن ظروف هـــذه المملكة آنذاك بما أصابها من ضعف بعد وفاة ببين القصـــير ونشوب النزاع بين ولديه شارلمان وكارلومان كمـــا أسلفنا ، حالت دون أن يحقق بغيته ، الأمر الذى جعله يشعر بصعوبة موقفه • ولهـــذا لم يجد البابا وسيلة تخلصه من استبداد كريستوفر وابنـــه غير التفـــاهم مع عدوه التقليـــدى دسيدريوس ملك اللومبارديين • ولامراء أن دسيدريوس ، مدفوعا برغبة عارمة فى الانتقام من كريستوفر وابيـــه ، لم يتردد لحظة فى أن يتعاون مع البابا من أجل القضـــاء على هذين الرجلين اللذين عرقلا أطماعه فى رومـــا (٢) •

وكان أن استطاع دسيدريوس والبابا أن يستميلا اليهمـــا موظفا بابويا كبيرا يدعى بول أفيارتا Paul Afiarta وآخرين ، بغيـــة القضاء على كريستوفر وابنـــه • ووفقا للخطة التى دبرها دسيدريوس مع هذا الموظف ، أظهر رغبته — أى دسيدريوس — فى تقديم الصلوات للقديس بطرس ، وبنـــاء على ذلك خرج من بافيـــا على رأس جيش كثيف الى روما (٣) • ولكنـــه قبل أن يقترب من أسوارها أدرك كريستوفر ما يعتمل فى ذهن دسيدريوس ، فاستدعى المليشيات العسكرية المرابطة فى توسكانى وكمبانيا وبيروجيا الى داخل المدينة ، وأغلق أبوابها انتظارا لهجوم متوقع ، ممـــا يؤكد مـــا ذكرناه من أن السلطة الفعلية فى رومـــا كانت فى أيدى كريستوفر وابنـــه • وبوصول دسيدريس الى أسوار المدينة فى صيف سنة ٧٦٩ ، أرسل الى البابا يطلب الاجتماع به ، فلم يمانع البابا • وقد

(1) Ibid, II, pp. 334-335.

(2) Ibid, II, pp. 335-336.

(3) Ibid, II, p. 336.

اتفق الاثنان على أن يقوم بول أفيارتا حالما يعود البابا الى المدينة ، بدفع الأهالى الى الثورة على كريستوفر وابنـــه • والواقع أن أفيارتا وأعوانه لم يدخروا جهدا فى حث الأهالى على الثورة ، ولكن محاولتهم باءت بالاخفاق ، ممـــا شجع كريستوفر وابنــه وأنصارهما على اقتحام قصر اللاتيران (المقر البابوى) للقبض على بول أفيارتا ، ولكن البابا اعترض سبيلهم ، إذ عنف المهاجمين بشدة ، وأمرهم بالانسحاب ، فامتثلوا لأمره • وفى صبيحة اليوم التالى للهجوم على قصر اللاتيران خرج ستيفن الى قبر القديس بطرس الواقع خارج المدينة آنذاك ، حيث اجتمع مرة أخرى بدسيديريوس • وفى رأى بعض الباحثين أن خروج البابا من رومـــا كان فى حقيقته هروبا متعمدا ، بدليل أن دسيديريوس والبابا حاولا بالتهديد تارة ، والأموال تارة أخرى ، أن يؤلبا الأهالى ضد كريستوفر ، ووصل الأمر بهما الى التهديد بتدمير المدينة ، مـــا لم يسلم كريستوفر نفسه[1] • أمـــا مؤرخ سيرة ستيفن ، فيشير الى أن دسيديريوس قام باعتقال البابا والحاشية المرافقة له ، وأعلن أنه لن يطلق سراحهم إلا بعد تسليمه خصميه كريستوفر وسرجيوس [2] • ومهمـــا يكن من أمر ، فسرعان ما تخلى أنصار هذين الرجلين عنهما ، ويبدو أن البابا اطمأن الى أن الموقف أصبح فى صالحه ، إذ رجع فى اليوم التالى الى روما ، تاركا كريستوفر وابنـــه نهبـــا لمصيرهما المفجع ، فألقى بول أفيارتا القبض عليهما ، وبالتالى قام بسمل أعينهما وقطع لسانيهما • ومـــا لبث أن مات كريستوفر بعد ثلاثة أيام فى دير سانت أجاث ، أمـــا سرجيوس فقد أودع السجن ومعـــه العديد من أنصـــاره الرهبان ، وبذلك انتصر الفريق (الحزب) اللومباردى فى روما على خصومه دون منازع [3] •

---

(1) Mann, The Lives of the Popes, I, Part II, pp. 383-385.

(2) Ibid, I, Part II, p. 385.

(3) Gregorovius, II, pp. 336-338; Kleinclausz, pp. 9-10; Barry, op. cit., pp. 85-86.

وربما جاز لنـــا أن نذهب الى أن ستيفن الثـــالث قد تواطأ مع اللومبارديين ، وضحى باثنين من رجاله من أجل مصالحه الخاصة ، وممـــا يثير الدهشة أنه حاول أن يخلى مسئوليته من المصير التعس الذى لقيـــه كريستوفر وابنه ، إذ كتب رسالة الى شارلمان وأمه برثا ، يبدو أنــه سطرها بعد رحيل دسيدريوس عن روما ، جاء فيهـــا أن كريستوفر وابنه الشريرين وأعوانهما تآمروا على قتله ، وأنه يدين بحياته الى « أعظم أبنائه امتيـــازا » دسيدريوس ، الذى لم يتوان عن المجىء الى رومـــا للوفاء بالتزاماته برد الأملاك البابوية والواقع أن الحقيقة كانت على عكس مـــا ذكره ستيفن ، وذلك أنه عندما طالب البابا هادريان الأول (٧٧٢ — ٧٩٥) — فيما بعد — دسيدريوس باستئناف المفاوضات التى بدأهـــا سلفـــه ستيفن ، حول اعادة الأراضى التى تعهـــد بتسليمهـــا للبابوية ، رفض دسيدريوس ، ورد عليه قائلا ان سلفه كان أحوج مـــا يكون للتخلص من كريستوفر وابنـــه ، بعد أن قويت شوكتهمـــا ، وأخذا منـــه موقفـــا معارضـــا (١) •

وبينمـــا كانت الحوادث تجرى على هـــذا النحو فى روما ، كان دسيدريوس من جهـــة أخرى يحاول جاهدا تحطيم الروابط المتينة بين البابوية ومملكة الفرنجة • وفى البـــداية رأى دسيدريوس فى موت ببين القصير فرصة أكيدة تهيئه لنشر نفوذه فى جميع أنحـــاء ايطاليا • وفى سبيل تحقيق هـــذا الغرض اعتزم الدخول فى اتحـــاد مع جيرانه الفرنجة ، وذلك بتزويجهم من عائلته ، الأمر الذى من شأنه أن يفســـد التحالف البابوى الفرنجى من جهـــة ، ويحرم البابوية من الهبات السخية التى كانت تصلها باستمرار من الفرنجة من جهـــة أخرى ، وكان دسيدريوس من قبل قد زوج احدى بناته وهى أدالبرجـــا Adalberga الى أريكيس

(1) Gregorovius, II, pp. 338-339; Kleinclausz, p. 10; Mann, I, pp. 387-389.

دوق بنفنتوم ، وزوج الأخرى وهى ليوتبرج لتاسيلو دوق بافاريا (١) .
أمـا ابنته الثالثة دسيديراتا Desiderata ، فقد كان يأمل فى أن يزوجها
الى أحد ملكى الفرنجة شارلمان أوكارلومان ، على أن يتزوج ابنه آدالجيس
Adalgise من أختهمـا جيزيل . ومن البديهى أن دسيدريوس قد
رسم خطوط مشروعه بمهـارة وإحكام بالغين . فهـو لم يستهدف من
ورائه دعم موقفـه ومكانته لدى الفرنجة فحسب ، بل أراد أيضا ان
يقلب السياسة التى اتبعها الفرنجة تجـاه ايطاليا فى السنوات الأخيرة
رأسا على عقب ، ولهـذا لو كان ببين حيـا ، لعرف مـا يجول بخاطر
دسيدريوس ، وبالتالى أوقف هـذا المشروع (٢) .

وعندمـا علم البابا ستيفن الثـالث بمشروع المصاهرة المقترح بين
مملكتى اللومبارديين والفرنجة أصـابه الفزع ، ولا سيما أنه كان يتوقع
من ولدى ببين أن يسيرا على نهج أبيهمـا ، بالعمل على اجبار دسدريوس
بالوفاء بعهوده . وفى محاولة منه لافساد هذا المشروع كتب الى الأخوين ــ
شارلمان وكارلومان ــ رسالة عنيفة اللهجة قال فيهـا : « لقد امتلأ قلبى
غيظا وفزعا عندما تواترت الأخبار بأن الملك اللومباردى يحاول جاهدا حث
أحدكمـا على الزواج من ابنتـه ، وهو مشروع فى حقيقته من عمـل
الشيطان ، وعمل غير شرعى لا تقره الكنيسة . إنه لجنون صارخ أن يرتبط
بيتكم الملكى المنحدر من شعب الفرنجة العريق الذى يفوق جميع الشعوب
قاطبة ، بالزواج من الجنس اللومباردى الحقير ، وهو عنصر وثنى منتن
منبوذ لا وزن له بين الشعوب . ان تفكيركما فى الزواج من فتيات بعيدات
عن الأصل الفرنجى يعد خروجا على تقاليد بيتكما ... » (١) . ولم ينس
ستيفن أن يذكر الأخوين أنه عندما قام بمسحهما بالزيت المقدس ، تلا

(1) Kleinclausz, p. 6.

(2) Kleinclausz, pp. 6-7; Halphen, op. cit., pp. 101-102.

(3) Gregorovius, II, pp. 340-341; Halphen, p. 102.

ذلك أن صار أصدقاؤه أصدقاءهما ، وأعداؤه أعداءهما ، ولهـذا وجب عليهما ألا يتحدا مع شعب ناكث لليمين ، دأب على مهاجمة كنيسة الله وغزو روما • ولا شك أن ستيفن عندما كتب رسالته ، كان يعى تمامـا جسامة الأخطار المحدقة به والمترتبة على إتمام هـذا المشروع • على أن ذلك لم يؤثر فى عزيمة دسيدريوس ، وسار فى الطريق الذى حدده بخطى حثيثة • وقد وجد ضالته المنشودة فى الملكة الأم برثا ، التى أخذت تكرس جهودها ليسود التفاهم والمودة بين مملكتى الفرنجة واللومبارديين بعد وفاة زوجها ببين • وتحقيقا لهـذا الغرض قابلت ابنهـا كارلومان فى سيلز ، ثم غادرتها الى بافيا ، ومنهـا الى ايطاليا ، حيث وصلتهـا فى صيف سنة ٧٧٠ ، وبعد أن أجرت مفاوضات مع دسيدريوس ، توجهت الى روما لمقابلة البابا • وفى نهاية جولتهـا اصطحبت معهـا دسيديراتا ابنة الملك اللومباردى لتزفها على شارلمان ، وبفضل ما تمتعت به من تأثير عظيم على ابنهـا تم الزواج فى ميتز فى عيد الميلاد فى العام نفسه (١) •

ويبدو أن شارلمان قد وافق على الزواج من ابنة دسيدريوس بعد أن رفض أخوه كارلومان أن يسـاعده خلال الثورة التى قامت ضـده فى دوقية أكوتين ، ومن هنـا دفعه الحرص والحذر الى أن يدخل فى حلف مع جيران أخيه فى شمال وجنوب ممتلكاته ، فعقـد اتفاقية تحالف مع تاسيلو دوق بافاريا ، وأخرى مع دسيدريوس ملك اللومبارديين ، دعمهـا بالزواج من ابنتـه (٢) • وممـا يسترعى الانتباه أن اينهارد مؤرخ سيرة شارلمان لاذ بالصمت فى هـذا الصدد ، إذ لم يوضح لنـا حقيقة الدوافع الكامنة وراء تحالف سيده مع دسيدريوس ، وهل كان ذلك موجها ضـد كارلومان أم لا ، واكتفى بالاشارة الى أن سيده تحالف مع دسيدريوس وأكد هـذا التحالف بالزواج من ابنته (٣) كمـا أسلفنا • أمـا البابوية

---

(1) Kleinclausz, Charlemagne, pp. 8-9.

(2) Oman, pp. 337-338.

(3) Garrod & Mowat, Einhard's Life of Charlemagne, pp. xx-xxi.

التى عارضت هـذه الزيجة منذ البداية ، فقد نظرت الى هذا التحالف كأعلى مراحل الخيانة ضدها • (١) ولا يخفى علينا أن البابوية كانت مصيبة فى تخوفهـا من هـذا التحالف الأسرى ، الذى رأت فيه خطرا جسـيما ينطوى على تهديد واضح لنفوذها ومصالحها السياسية بايطاليا •

على أن تيار الحظ شاء أن يتحول فى مملكة الفرنجة لصالح البابوية : إذ فى سنة ٧٧١ طلق شارلمان دسيدراتا بدعوى أنهـا مريضة وعاقر ، وإن كنا فى الحقيقة لا نستطيع الجزم بالدافع الذى حدا به الى طلاقها • ويروى بعض الباحثين أنه على الرغم من أن شارلمان قد تزوج من فتاة سوابيـة صغيرة تدعى هيلد جارد ، إلا أن الفرنجة ظلوا على حبهم لدسيديراتا التى كانت فى نظرهم الزوجة الشرعية (١) • وقد شاءت الظروف أيضا أن يموت كارلومان فجأة فى ساموس فى ٤ ديسمبر من العـام نفسه (٧٧١) • والحق أن وفاته جاءت فى وقت مناسب تماما ، إذ صـار الحفاظ على الوفاق بين الأخوين أمرا متعذرا • وعلى أية حال ، لم يلبث أن استولى شارلمان على ممتلكات أخيه ، وبذلك توحدت مملكة الفرنجة تحت نفوذه ، من مصب الراين حتى مصب الرون ، ومن نهر المين حتى خليج بسكاى ؛ على أن جربرجا أرملة كارلومان استاءت لاغفال حقوق ولديها القاصرين فى أملاك أبيهما ، ففرت بهمـا ومعها حفنة من أتباعها الى دسيدريوس فى بافيا ، حيث رحب بها وأسبغ عليهـا حمايتها (٣) •

وممـا يذكر أنه فى الوقت الذى انفرد شارلمان بحكم مملكة الفرنجة ، مات البابا ستيفن الثالث فى ٢٤ يناير سنة ٧٧٢ ، وخلفه هادريان الأول فى أول فبراير من العام نفسه ، ومن المعروف أنه ينحدر من أصل عريق • فى النبالة ، واشتهر بمقته الشديد للعنصر اللومباردى (٤) • وقد أظهر

---

(1) Oman, p. 338.

(2) Gregorovius, II, p. 344; Kleinclausz, p. 10.

(3) Oman, pp. 338-339; Thompson, I, p. 441.

سعيد عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ص ١٨٦ •
ابراهيم العدوى : المرجع السابق ، ص ٩٥ •

(4) Gregorovius, II, p. 345; Kleinclausz, p. 13; Oman, p. 345.

عداء ســافرا للملكة اللومباردية منــذ أول يوم نهض فيــه بشــئون البابوية ، وذلك أنه عندما أرسل دسيدريوس سفارة اليه فى يوم تكريسه (٩ فبراير ٧٧٢) ، الغرض منهــا دعم أواصر الود والصداقة بينهما ، استقبلها هادريان بحذر شديد ، وأوضح لهــا أن كل مــا يرغب فيــه هو العيش فى سلام ومحبة مع جميع المسيحيين ســواء بسواء ، وأن دسيدريوس لا يتميز من الآخرين فى هــذا الأمر ، وأضاف متسائلا أى أخلاص يتبادله مع ملك اعتاد أن يحنث فى يمينه ، ويماطل فى وعوده ؟ • ومع أن أعضاء السفارة أكدوا له أن مليكهم على استعداد للوفاء بالوعد الذى قطعه على نفسه سنة ٧٥٦ المتضمن اعادة الأراضى التى استولى سلفه عليهــا ، فان البابا لم يقتنع بذلك وأصر على موقفه ، واكتفى بارســال سفارة من قبله الى دسيدريوس لبحث المشاكل المتعلقة بينهما (١) • على أنه قبل أن تصل السفارة البابوية الى بيروجيا ، وصلت الأنبــاء الى البابا أن دسيدريوس استولى فجأة على فاينزا ، وفيرارى ، وكوماكيو ، وضايق ضواحى رافنا ، فى مارس — أبريل ٧٧٢ (٢) • على الرغم ممــا حدث ، فقد كتب البابا الى ديسدريوس يطالبه بالوفاء بوعوده ، ولكن الأخير رد عليه برســالة عنيفة تحمل فى ثناياها الرفض القاطع • وربمــا يكون من الأسباب التى شجعت دسيدريوس على اتخــاذ هــذا الموقف المتشدد إزاء البابوية ، اعتقاده أن شارلمان آنذاك لم يكن بوسعه التدخل فى شئون ايطاليا ، لا نشغاله بأراضى أخيه التى ضمها اليه عقب وفاته (٣) • وممــا يزيد من قوة هــذا الرأى أن دسيدريوس عمل على توسيع نطاق عملياته الحربية وقتئــذ ، فاستولى على الأقاليم التى أخلاها من قبــل وهى أوربينــو ، ومونتفلترو ، وسنجاجليــا ، والبنتابوليس ، وجوبيو ، وأوتريكولى ، وفيتربى ، ولم يكتف بذلك ، إذ قام بتجنيد الجيش اللومباردر

---

(1) Kleinclausz, op. cit., p. 14.

(2) Halphen, pp. 102-103.

(3) Oman, op. cit., p. 346.

كله ، واتجه به صوب روما (١) • وفى هـذه المرة اصطحب معـه أرملة كارلومان وولديه ، وحاول أن يجبر البـابا هادريان على تتويج ولدى كارلومان ومنحهما بركته ، حتى يجعل منهمـا منافسـا خطيرا لشارلمان ، وبالتالى يفسد العلاقة بين هادريان والفرنجة ، ومن ثم يحقق حلمـه فى ايطاليا الموحدة تحت نفوذه ، غير أن البابا فى الواقع لم يكن ساذجا الى هـذا الحد (٢) ، لأن حاجة البابوية الى شخصية قوية تحميها من خطر اللومبارديين لم تبرح قائمة ، ولم يطرأ عليها أى تعديل منذ أيام ببين •

وهنا نلاحظ أن هادريان كان يتوقع من دسيدريوس أن تدفعه أطماعه التوسعية الى فرض الحصار على روما • ولذلك احتـاط لحماية روما ، فاستدعى قوات من توسكانيا ، وكمبانيا ، وبيروجيا ، والبنتابوليس ، فى الوقت الذى لوّح مهددا بتوقيع قرار الحرمان على دسيدريوس ، وعلى الرغم من ذلك أدرك البابا أن امكاناته الحقيقية عاجزه عن الصمود لحصار طويل ، ولمـا كان اللومبارديون قد سدوا منافذ الطرق البربرية ، فقد أرسل سفارة برئاسة ببير بطريق البحر الى شارلمان ملك الفرنجة ، طالبا نجته وانقـاذ الكنيسة والاكسارخية ، مثلمـا فعل أبوه ببين القصر من قبـل (٣) •

ويبدو أن أخبار السفارة التى أرسلها البابا الى شارلمان قد أزعجت دسيدريوس ، ممـا جعله يخفف الحصار على روما ، وينسحب عائدا الى فيتربو • ثم أوفد سفارة من قبله الى شارلمان فى خريف سنة ٧٧٢ ، لتوضيح له أن مزاعم البابا لا أساس لهـا من الصحة (٤) •

---

(1) Kleinclausz, pp. 14-15; Halphen, p. 103.

(2) Kleinclausz, p. 16; Lavisse, Histoire de France, II, p. 282; Garrod & Mowat, p. 48.

(3) Kleinclausz, p. 16.

(4) Oman, p. 346.

ويمكننا القول ان اللحظة الفاصلة فى تاريخ المملكة اللومباردية قد دنت • ذلك أنه لم يكد يصـل السفير البابوى بيير الى مرسليا ، حتى استقبله شارلمان فى ثيونفيل فى شهر فبراير أو مارس سـنة ٧٧٣ ، وفى الاجتماع الذى جرى بينهما ، رأى بيير فى البداية أن يذكر العاهل الفرنجى بأنه منـذ اليوم الذى مسـحه البابا ستيفن الثانى (الثالث) بالزيت المقدس ، وخلع عليه لقب بطريق الرومان ، صـار — أى شارلمان — « الحامى الشرعى للرومان والمدافع عنهم » ، ثم أنهى اليه لأن دسيدريوس قد ضرب بهبةببين عرض الحائط ، معلنا رفضه اعادة الأراضى التى تضمنتها هـذه الهبة (١) • وقبل نأ ينفض الاجتماع راح السفير البابوى يوعز لشارلمان بأن قوة دسيدريوس تبـدو فى الواقع أكبر من حجمها الحقيقى ، وأنه يواجه المتاعب من قبل دوقى سبوليتو وبنفنتوم • ومن الواضح أن السفير البابوى أراد بذلك أن يستحث شارلمان على أن يتحرك بجيوشـه لكبح جماح دسيدريوس ، بيد أن شارلمان آثر أولا أن يسـتخدم الطرق الدبلوماسية لحـل المشاكل القائمة بين اللومبارديين والبابوية ، لانشغاله وقتئذ بمحاربة السكسون على حدود مملكته (٢) • ولهـذا بادر بارسال سفارة للتفاوض مع دسيدريوس حول تسليم الأراضى التى استولى عليها للبابوية ، وعرض عليه نظير ذلك أربع عشرة ألف قطعة من الذهب (٣) • ولكن دسيدريوس رفض غاضبا تسليم الأراضى للبابوية ، وعاب على الملك الفرنجى تدخله فيمـا لا يعنيه (٤) •

وعندئذ لم يجد شارلمان مفرا من الدخول فى حرب مع دسيدريوس لاعادة الأمور الى نصابها فى ايطاليا • ومن الأسباب التى دفعتـه الى

---

(1) Kleinclausz, Charlemagne, p. 18; Davis, A Hist. of Medieval Europe, p. 164.

(2) Thompson, I, p. 242.

(3) Kleinclausz, p. 18.

(4) Oman, pp. 346-347.

اتخــاذ هــذا القرار أنه عقد العزم على اقتفــاء خطوات أبيه فى حماية البابوية من الخطر اللومباردى ، وقد دلت الأحداث الماضية على أن وجود ملكة لومباردية قوية متفوقة من شأنها أن تهدد ممتلكاته الجنوبية (١) • وأخيرا لم ينس شارلمان أن دسيدريوس وقف الى جانب أرملة أخيــه كارلومان وولديها ، ومنحهم عطفه وحمايته •

وعلى أية حال ، بدأ شارلمان يستعد للتدخل فى ايطاليا ، فجهز جيشا ضخما حشده فى مدينة جنيف حوالى شهر يوليو سنة ٧٧٣ • وهنــا نلاحظ أن الطريق الى ايطاليا لم يكن سهلا أمام شارلمان ، إذ كان عليه أن يعبر سلسلة جبال الألب المعروفة بوعورتها وشدة ارتفاعها ، بينمــا عسكر دسيدريوس بقوات كبيرة أسفل منافذ ممرات تلك الجبــال المؤدية الى ايطاليا ، وأقام بهمــا التحصينات والسدود (٢) • ولذلك رأى شارلمان من باب الحذر قبل أن يزحف على ايطاليا أن يقسم جيشه الى قسمين : أحدهما تحت قيادة عمه برنارد ، وقد عهد اليه باختراق جبال الألب عن طريق ممر سانت برنارد ، على حين يسلك القسم الآخر بقيادته ممر مونت سنى • ثم كان أن زحف الجيش الفرنجى الى ايطاليا خلال سلسلة جبال الألب الوعرة ، وهناك بلغ به الانهاك والارهاق حدا جعل الاسـتياء يظهر فى صفوفه ، حتى فكر بعضهم فى العودة • وأخيرا وصل شارلمان الى شــارف ايطاليا ، ولكنه قبل أن يصدر أوامره بالهجوم على دسيدريوس ، رأى من الأوفق أن يعيد اجراء المفاوضات معه ، على أمل أن يحقق مطلبه دون اراقة دماء • وتتمثل هــذه المطالب فى أن يسلم دسيدريوس الأراضى التى استولى عليها للبابوية ، مع تجديد عرضــه السابق بشــأن المنحة المالية ، واشترط فى حالة الموافقة على مطالبه أن يسلمه دسيدريوس ثلاث رهائن ضــمانا للاتفاق • على أن دسيدريوس أعلن عدم موافقتــه على مطالب

---

(1) Scott, Medieval Europe, p. 35.

(2) Kleinclausz, pp. 18-19.

شارلمان (١) ، ممـا جعل الحرب بينهما حقيقة مؤكدة .

وتحت سفوح جبال الألب المطلة على ايطاليا ، أمر شارلمان جماعة من جنده بتسلق التلال المؤدية الى سوسا لتطويق دسيدريوس وقواته ، وإذ وجد الأخير نفسه محاطا بالجيش الفرنجى أخذه الرعب ، وانسحب عائدا الى بافيا ، مرتكبا الخطأ نفسه الذى ارتكبه سلفه أستولف خلال الحملة التى قام بهـا ببين القصير على ايطاليا (٢) . ولكن شارلمان جد فى مطاردته ، ولما وصل الى بافيا فى حوالى نهاية سبتمبر سنة ٧٧٣ ، وجد أبوابها موصدة دونه ، إذ سبقه اليها دسيدريس ومعه حاشيته وجموعه ، وبالتالى صـار من الصعب على شارلمان اقتحامها ، ولم يكن أمامه إلا تضييق الخنـاق عليهـا (٣) .

ومما يذكر أنه فى غمرة تقهقر الجيش اللومباردى أمام شارلمان ، استطاع أد الجير ابن سيدريوس أن يحتمى بقلعة فيرونا ومعه أرملة كارلومان وولداها . ولم يكد شارلمان يعلم بذلك حتى ترك الجزء الأكبر من جيشه على حصار بافيا ، واتجه على رأس جماعة من جنـده صوب فيرونا ، فلم تقو على الصمود طويلا ، وسقطت فى يده ، بيد أن أدالجيز استطاع الفرار الى القسطنطينية بطريق البحر ، تاركا خلفـه جربرجا أرملة كارلومان وولديهـا تحت رحمة عمهما . وفى البلاط البيزنطى لقى أدالجيز ترحيبا من الامبراطور ليو الرابع الايسورى (٧٧٥ — ٧٨٠) ، حيث وافق على أن يقوم ضيفه بعمل حربى فى ايطاليا ضـد الفرنجة ، بالاشتراك مع أريكيس دوق بنفنتوم (٤) .

وكان حصـار بافيا مهمة شاقة وطويلة ، لأنهـا كانت من أقوى

---

(1) Ibid, p. 19.

(2) Oman, p. 347; Halphen, p. 104; Lavisse, op. cit., II, p. 282.

(3) Kleinclausz, p. 19.

(4) Ibid; Thompson, I, p. 242; Lavisse, II, pp. 282-283.

المدن الايطالية مناعة ، ولكن الفرنجة شددوا الحصـــار عليها طوال فصل الشتاء ، حتى اذا مـــا جاء عيد الميلاد احتفلوابه خارج أسوارها ، فى حين كان الأهالى يتضورون جوعا داخلهـــا • وهنـــا نلاحظ أن شارلمان لم يضيع الوقت سدى ، فقام باخضاع المدن الواقعة فى شمال البو ، كمـــا عقـــد العزم على القيام بزيارة لروما لقضاء عيد الفصح (١٢ أبريل ٧٧٤) (١) • ولهـــذا ترك قواته تواصل عمليات الحصار ، وتوجه الى روما فى موكب حافل وبرفقته حاشية رائعة من الأساقفة والرهبان والدوقات والكونتات • وعند وصوله استقبل البابا هادريان حليفه « حامى الرومان » استقبالا هائلا ، شاركت فيه الهيئات والطوائف والأطفال حاملين أغصان الزيتون والصلبان والرايات ، وخلال اللقاء الذى تم بكنيسة القيس بطرس ، تبادل البابا والعاهل الفرنجى يمين الاخلاص (٢) • والجدير بالذكر أن شارلمان قبل أن يعود الى بافيا ، طلب اليه البابا فى مدينة كيرسى عام ٧٥٤ أن يجدد هبة أبيـــه ببين للبابوية ، فوافق شارلمان وكتب وثيقة جديدة بالهبة ، أضـــاف اليهـــا أقاليم أخرى ، وبمقتضى هـــذه الوثيقة الشهيرة صـــار للبابوية لونى على البحر الأدرياتى ، وسارزانا ، وجبل باردونا ، وبيرسيتو ، وبارما ، وريجيو ، ومانتوا ، ومونسليتشى ، وجزيرة كورسيكا ، ورافنا ، البندقية وإستريا ، ودقيتى سبوليتو وبنفنتوم (٣) •

وبعودة شارلمان الى مدينة بافيا ، كانت قد وصلت الى مرحلة بالغة السوء ، إذ فتكت المجاعات والأوبئة بأهلها ، وانهار قوى حاميتها حتى لقد اضطرت الى طلب الاستسلام ، شريطة أن يوافق شارلمان على تأمين حياتها ، فلم يبخل عليها بذلك • وكان أن استسلم دسيدريوس ومن معه ، وتلا ذلك أن شق شارلمان طريقه الى داخل المدينة وسط أناشـــيد النصر وأهازيج المدح ، ومعـــه زوجته هيلدجارد التى رافقته الى ايطاليـــا

(1) Oman, p. 347.

(2) Kleinclausz, pp. 19-20.

(3) Kleinclausz, p. 24; Halphen, p. 109.

لتشاركه فرحة انتصـــاره • ولم يلبث أن دخـــل شارلمان القصر الملكى اللومباردى دخول الظافر ، وبعد أن وزع كنوزه الثمينة على جنده (١) ، قام بوضع تاج المملكة اللومباردية الحديدى الشهير على رأسه ، وتبع ذلك أن خلع على نفســـه فى ٥ يونيو ســـنة ٧٧٤ « لقب ملك الفرنجـــة واللومبارديين » • Rex Francorum et Langobardorum ، (٢) وذلك يعنى أنه صـــار صاحب السلطة الفعلية بايطاليا • وعلى أية حال فقد سيق دسيدريوس ومعـــه أفراد أسرته الى مدنـــة لييج Liege ، ووضـــعوا تحت تصرف أسقفها فقام بحلق شعر دسيدريوس ، ثم أودعه مع زوجتـــه ديركوربى Corbey الواقع على نهر السوم فى فرنسا ، حيث قدر لهمـــا أن يقضيا بقية عمرهما فى صلاة وابتهال • أمـــا بالنسبة لأرملة كارلومان وولديها ، فقـــد لاذت المصادر المعاصرة بالصمت إزاء المصير الذى لحق بهم (٣) •

وهكذا قضى شارلمان على المملكة اللومباردية فى ايطاليا ، وأزالهـــا من الوجود • ومن الواضح أن شارلمان اختلف عن أبيه القصير فى كيفية معالجة النزاع بين البابوية واللومبارديين ، فبينمـــا نهض بيبن بالتزاماته تجاه الباوية بأقل نفقات دون أن يمس الوجود السياسى للملكة اللومباردية ، نلاحظ أن شارلمان على العكس من ذلك ، لم يترك الباب مفتوحا أمام هذا النزاع ، بل أنهـــاه بتوجيه ضربة قاصمة للملكة اللومباردية أخرجتها من قائمة الممالك المستقلة • وليس هناك من شك أن شارلمان صـــار صاحب السيادة العليا على ايطاليا ، إذ خضعت الأقاليم اللومباردية الممتدة من بافيا الى مـــا بعد فيرونا لسطوته حتى الأقاليم التى لم تصلها جيوشه اضطر معظم ممثلى دسيدريوس بهـــا للاعتراف بنفوذه (٤) •

---

(1) Kleinclausz, p. 25; Thompson, I, p. 243.

(2) Hulme, The Middle Ages, p. 260; Stephenson, Med. History, p. 150; Halphen, p. 105; Pirenne, Hist. of Europe, pp. 85-86.

(3) Kleinclausz, pp. 26-27; Oman, p. 348.

(4) Halphen, Charlemagne et l'Empire Carolingien, p. 105.

وهنا يجدر بنا القول أن شارلمان أحرز انتصاراته على اللومبارديين دون أن يشتبك معهم فى معركة ، ودون أن يواجه مقاومة فعـالة من قبلهم • وصحيح أن تفكك اللومبارديين كان عاملا رئيسيا فى انتصـار شارلمان ، غير أن ثمـة عوامل أخرى ساهمت فى هـذا الانتصـار ، من بينهـا أن دسيديريوس لم يصل الى العرش دون أية معارضة ، ففى سنة ٧٧٢ فر كثير من اللومبارديين الذين صادر دسيديريوس أموالهم الى فرنسا ، وأعلنوا وقوفهم الى جانب شارلمان ، كمـا أن روح الخيانة التى أبرزتها الأساطير فيمـا بعد ، توضح لنـا أن أعدادا ضخمة من اللومبارديين قد اتصلت بشارلمان ، تطلب أن يأتى بجموعه الى ايطاليا وهى تعـده أن تسلمه الطاغية دسيديريوس مقيدا ، والى جانب ذلك كان مارتن رئيس أساقفة رافنا هو الذى دل الفرنجة على الطريق المؤدى الى ايطاليا (١) • ومهما يكن من أمر ، فان افتقار اللومبارديين الى ملكية قوية توحد صفوفهم ، وازدواجية العنصر السكانى — ويقصد بذلك اللومبارديون والرومان — والنظم بايطاليا ، وتفسخ الأستقراطية اللومباردية ، كل ذلك يوضح حقيقة بنـاء الكيان اللومباردى ، الذى تفتت بلمسة من أيدى الفرنجة (٢) •

وعلى غير المتوقع ، عامل شارلمان رعاياه الجدد اللومبارديين معاملة طيبة ، فلم يقتلع جذور مؤسساتهم ونظمهم الخاصة ، وأبقى على الموظفين اللومبارديين فى مناصبهم ، كمـا أن القانون اللومباردى ظل سـارى المفعول • غير أن الابقـاء على هذا الوضع بين شعب شديد المراس على شاكلة اللومبارديين ، كان من شأنه أن يولد فيهم الأمل فى استعادة حريتهم ، وفعلا وجد اللومبارديون ضالتهم المنشودة فى كبار الدوقات الذين تركهم شارلمان على رأس دوقياتهم (٣) ، كما سنرى بعد قليل •

---

(1) Kleinclausz, pp. 27-28.

(2) Lot, The End of the Ancient Wor'd, p. 295.

(3) Thompson, op. cit., I, p. 243.

ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ، ص ٥٣ •

وأخيرا نصل الى القول ان سقوط المملكــة اللومباردية يعتبر أمرا حاسما فى تاريخ ايطاليا • إذ قضى نهائيا على آخر محاولة استهدفت توحيد هــذا القطر ، وكتب عليه أن يظل ممزقا حتى نهــاية القرن التاسع عشر • أمــا الدولة البيزنطية التى لم تزعجها الأحداث التى تلاحقت على ايطاليا فى السنوات الأخيرة بسبب انشغالها بالجبهة الشرقية ، فقــد فقدت هى الأخرى ممتلكاتها فى شبه الجزيرة الايطالية ، باستثناء بعض المراكز فى الجنوب ، شاء حسن طالعها أن تفلت من أيدى شارلمان ، نظرا لحاجته الى العودة لمملكته لغزو أراضى السكسون ونشر المسيحية بينهم (١) • واذا كان اللومبارديون قد فقدوا دولتهم على يد شارلمان ، وتجمعت الظروف على بيزيطة لتخسر نفوذها فى ايطاليا ، فمن الواضح أن البابوية كانت القوة الوحيدة التى خرجت فى النهاية مرفوعة الرأس ، ولكنهــا من ناحية أخرى وقعت فى قبضة حليفها وحاميها شارلمان !

محاولة إحياء المملكة اللومباردية :

رأينا مــا كان من سقوط المملكة اللومباردية ، ولكن بعض رجــال الدين والدوقات اللومبارديين أخذتهم الحسرة على ضياع مملكتهم ، خاصة هلدبراند دوق سبوليتو ، وروود جود (روتجارد) دوق فريولى ، وأريكيس دوق بنفنتوم ، فاستغلوا عودة شارلمان الى مملكته ، وشرعوا فى التحرك لاستعادة نفوذهم الضــائع ، وحدث ذلك فى أثنــاء ظهور أدالجيس — ابن دسيدريوس — على رأس أسطول زوده بــه حلفاؤه البيزنطيين ، للاستيلاء على روما واحياء مملكة قومه المندثرة ، حيث أخذ يحرض قومه على الثورة ضــد الفرنجة وطردهم من ايطاليا (٢) • وصــادف ذلك أن

---

(1) Stephenson, op. cit., p. 150.

(2) Barry, The Papal Monarchy, pp. 97-98; Lavisse, op. cit., II, pp. 283-284.

خرج أساقفة رافنا على البابا هادريان ، ومن المعروف أن هؤلاء الأساقفة كانوا يشغلون مكانة دينية هامة فى ايطاليا تأتى بعد البابوية • ولما قضى على الاكسارخية فى رافنا ، ظهرت أطماعهم السياسية ، وبمعنى آخر أرادوا أن يحلوا محل الاكسارخ فى النفوذ ، بتقليد البابوية فيما وصلت اليه من سلطة علمانية • وقد كان أبرزهم الأسقف ليون ، الذى استغل فرصة رحيل شارلمان عن ايطاليا ، فأعلن انفصاله عن البابوية ورفضه لسيادة الفرنجة ، وتبع ذلك أن استولى على مون فاينزا ، وفورليمبوبولى ، وفورلى ، وسيسينا ، وبوبيو ، وكوماكيو ، وإيمولا ، وبولونيا وفيرارى ، البنتابوليس ، وبعد أن طرد ممثلى البابا منها ، راح يوزع مناصبها على أقاربه وأنصاره ، ولا شك أن ما فعله ليون يعد انتهاكا صارخا للهبات الفرنجة التى حظيت البابوية بها ، مما أضر بالأخيرة أبلغ الضرر (١) • وعندئذ أصيب هادريان بالهلع ، وبعث الى حليفه شارلمان رسالة تلو أخرى ، يخبره بما فعله أسقف رافنا ، وباتفاق رودجود دوق فريولى مع هلدبراند دوق سبوليتو ، وأريكيس دوق بنفنتوم ، وريجنالد دوق شويزى Chiusi ، والبيزنطيين ، بالتواطؤ مع أدالجيس ، على مهاجمة روما برا وبحرا ، والقاء القبض على البابا ، وبالتالى احياء المملكة اللومباردية (٢) •

وعلى الرغم من أن شارلمان كان منهمكا فى حروبه ضد السكسون ، وفى أشد الحاجة الى هدوء الجانب الايطالى ، فقد رأى أن يحسم الوضع القائم فى ايطاليا فى حينه قبل أن يستفحل ويتسع مداه • ولم يكد ينتهى من احتفالات أعياد الميلاد فى سلستادت Selestadt سنة ٧٨٠ ، حتى عبر جبال الألب الى ايطاليا على رأس جيش كثيف انتقاه بعناية ، وقد رافقه هذه المرة زوجته هيلد جارد وولداه بيبين ولويس ، وابنته جيزيل (٣) • وما أن وصل بافيا حتى اجتازها مسرعا الى فريولى ، حيث

(1) Kleinclausz, p. 28.

(2) Ibid, pp. 29-30; Lavisse, II, p. 283.

(3) Garrod & Mowat, Einhard's Life of Charlemagne, p. 49.

تمكن من قتل دوقها روتجود أعظم الدوقات الثائرين قوة ونفوذا ، كما فرض طاعته على هلدبراند دوق سبوليتو ، وتغلب على بقية الثائرين واحدا بعد الآخر ، فيما عدا أريكيس دوق بنفنتوم الذى هيأت له طبيعة بلاده الجبلية وموقعها البعيد ملاذا حصينا (١) ، مما جعله يحتفظ بدوقيته سليمة ، رغم الحملات العديدة التى وجهها شارلمان ضده (٢) .

وكان من الطبيعى أن يغير شارلمان سياسته تجاه اللومبارديين بعد أن أخمد ثورة دوق فريولى وغيرها ، فألغى مؤسساتهم ونظمهم وقوانينهم وأرغمهم على اتباع قوانين الفرنجة ونظمهم . والأهم من ذلك أنه أبطل نظام الدوقيات فى السهل اللومباردى (٣) واستبدله بنظام الكونتيات الفرنجية ، وبذلك تخلى دوقات فريولى وسبوليتو عن مناصبهم لكونتات جدد ينتمون الى طبقة الموظفين الفرنجة (٤) . وهكذا شاءت الأقدار أن يحرم الشعب اللومباردى من مؤسسات ونظمه على أيد شعب جرمانى مثله ، ونعنى به شعب الفرنجة .

بعد أن استقرت الأمور فى ايطاليا ، رأى شارلمان أن يحتفل بعيد الفصح فى روما فى ١٥ أبريل سنة ٧٨١ ، وذلك بحضور البابا هادريان الذى قام بتعميد ابنه ببين ، وباركه مع أخيه لويس ، كما وضع تاج ايطاليا على رأس ببين بعد أن أسند اليه أبوه حكمها ، وخلع عليه لقب ملك ايطاليا ، ثم كان أن اتخذ شارلمان طريقه شمالا عائدا الى فرنسا فى يوليو من العام نفسه (٥) .

ومهما يكن من أمر ، فقد اتخذ ببين من بافيا عاصمة اللومبارديين

---

(1) Ibid.
(2) Oman, pp. 348-349.
(3) Thompson, I, p. 243.
(4) Hollister, Medieval Europe, p. 110.
(5) Kleinclausz, p. 113; Halphen, p. 113.

السابقة مقرا له ، وان كان يقيم أحيانا فى مدينة فيرونا الحصينة • وعلى الرغم من أن ببين صـار صاحب الكلمة النافذة فى ايطاليا ، فقـد احترم اللومبارديين وتقاليدهم ، إذ أنه لم يحرمهم من تولى المناصب الهامة ، مثل مجلس الشعب ، وحكم الكونتيات ، وعهـد اليهم بمهـام السفارات وقيادة الجيوش ، كمـا كان منهم الرهبان والأساقفة (١) • حقيقة أن ببين قد أحكم قبضته على ايطاليا ، وتمتع الفرنجة بمكانة ملحوظة فيهـا ، إلا أنهـا بدت فى ظاهرها كأن لم يطرأ عليها أى تغيير فى مؤسساتها ونظمها • والواقع أن ايطاليا بفضل تقاليدها القديمة ، والتنظيمات الجديدة التى أتى بهـا الفرنجة ، سادت فيهـا العدالة ، واستقر الأمن فى ربوعهـا ولا سيما تلك الحراسة اليقظة التى وفرها على طول الحدود لمراقبة الطرق والمنافذ المؤدية الى جانب الألب • وفى الوقت ذاته قام بتحصين دوقية فريولى تحسبا لاغارات الآفار • وممـا يثير الدهشـة أن تلك الأعمال الرائعة لم تحظ بالقبول عند اللومبارديين ؛ إذ لا يزال عدد كبير منهم يتحسر على ضياع المملكة اللومباردية وأيامها الخالية ، وبلغ الضيق ببعضهم حدا جعله لا يطيق البقاء تحت سيطرة الفرنجة ، وفضل على ذلك الهرب بعيدا • والجدير بالذكر هنا أن شارلمان ابان حملتـه الأخير آثر أن يتبع سياسة التسامح نحو الثائرين الذين دانوا له بالطاعة ، فسمح بعودتهم الى بلادهم فى ايطاليا ، ورد اليهم أموالهم وأملاكهم ، كمـا أنه استجاب لطلب ابنـه ببين ، بأن مد هـذا الصنيع على جميع اللومبارديين الذين أخذهم راهئن الى فرنسا (٢) •

وكنـا قد أشرنا من قبل الى أن دوقية بنفنتوم قد تعذر على شارلمان اخضاعها ، رغم الحملات العديدة التى وجهها ضدهـا • ومن المعروف أن تلك الدوقية بمـا عرفت به من قوة وحصانة واتساع ، كانت دوما شوكة

---

(1) Kleinclausz, pp. 113-114.

(2) Ibid, p. 120.

فى حلق الملوك اللومبارديين ، وكثيراً مـا سببت لهم متاعب جمـة • وقد ميزت مدينة بنفنتوم عاصمة تلك الدوقية المعروفة بنفس الاسم بمناعتها ووفرة كنائسها وأديرتها • ومنـذ أن تولى أريكيس الذى عرف بنبالته العريقة وتدينه وعدالته وميله الزائد للفنون حكم هـذه الدوقية فى سـنة ٧٥٨ ، بلغت درجة واسعة من النفوذ والازدهار ، إذ شيد بها قصرا ضخما وكنيسة رائعة أهداها للقديسة صوفيا ، كمـا شيد قصرا آخر بمدينـة سالرنو التابعة للدوقية ، واستكمل تحصيناتها • وقد عرفت زوجتـه أدلبرجا ابنـة دسيدريوس بذكائهـا البارع الذى مدحه المؤرخ بولس الشماس ، ومعارفها الفلسـفية والتاريخية ، كذلك كان ابنـه البكر روموالد Romuald نحويا بارعـا ، ومثلا طيبـا للتقوى على غرار أبيه (١) • ومما يذكر أن أريكيس ارتأى — بعد سقوط مملكة اللومبارديين — أن لقب دوق لم يعد جديرا بمكانته ونفوذه ، فاختار لنفسـه لقب « أمير اللومبارديين » ، وأخذ ينهج فى حكمه نهج الملوك اللومبارديين السابقين ، باقتفاء سيرتهم ومراسيمهم (٢) •

والحق أن شارلمان قاهر اللومبارديين لم ينظر بعين الارتيـاح الى علو شأن دوقيـة بنفنتوم وصعودها مدارج الاستقلال ، ولا سيما أن البنفنتيين اعتبروا أرض دوقيتهم بمثـابة الملاذ الأخير لحريتهم السلبية منـذ أن سقطت دولتهم ، فلم ينقادوا للفرنجة مثلمـا فعـل إخوتهم جيرانهم فى دوقية سبوليتو ، بل لم يتورع بعضهم عن تناول شارلمان بالقدح والسباب القاسى ، ومن أولئك الذين تطاولوا على العاهل الفرنجى بوثون راهب دير سانت فنسنت فى فولتورن الواقعة شمال الدوقية ، حيث أقسم جهرا على الاطاحة بالنفوذ الفرنجى ، بل بلغ به الأمر حدا جعله يعلن أنه لايخشى على ديره من شارلمان ، الذى لا يزيد فى نظره عن الكلب ! وعلى الرغم من ذلك كله كان البنفنتيون يدركون تماما أنه لا قبل لهم

---

(1) Ibid, p. 121.

(2) Ibid.

بقواتهم العسكرية المحدودة على مواجهة عاهل الفرنجة القوى • وعلى أية حال ، شاءت الظروف آنذاك أن يجد البنفنتيون فى الامبراطور البيزنطى حليفا لا يستهان به (١) • ومن المناسب أن نكرر القول هنا أن ممتلكات الدولة البيزنطية لم تقتلع جذورها عن آخرها من شبه الجزيرة الايطالية ، فمازال تحت أيديها صقلية ، وأربعة أقاليم صغيرة تحيط بدوقية بنفنتوم ، ونابولى وأمالفى على ساحل البحر التيرانى فى أقصى الجنوب ، وأوترانت وجاليبولى فى أحد طرفى الكعب الايطالى ، وكالابريا فى الطرف الآخر ، وهى كلها غاية فى التحصين والمناعة • وأخيرا كان للبيزنطيين فى الشمال الايطالى استريا ومعها مدن تريست وجرادو ، وفى الوقت ذاته ظلت البندقية معترفة بسيادتهم (٢) •

ولما كانت الدولة البيزنطية غارقة فى متاعبها لسنوات طويلة بسبب عبادة الصور والأيقونات ، فالذى يهمنا بصدد هذه الدراسة أن الامبراطور ليو الرابع توفى سنة ٧٨٠ تاركا خلفه طفلا صغيرا على عرش هذه الدولة وهو قنسطنين السادس ، تحت وصاية أمه إيرين ، المعروفة بتنصلها من السياسة اللا أيقونية التى تبناها الأباطرة الأيسوريون فيما قبل ، ولم تلبث هذه المرأة التى اتصفت بالعنف والميل للشر أن استبدت بمصائر الأمور ، بينما دعت الحاجة الى وجود امبراطور قوى ، يدفع أخطار الخليفة العباسى هارون الرشيد ، الذى اجتاحت جيوشه آسيا الصغرى ، حتى لقد اضطرت أن تشترى الصلح منه مقابل مبلغ ضخم تعهدت بدفعه سنويا ، هذا فى الوقت الذى نشط البلغار فى جبهة البلقان • ولهذا كله أخذت إيرين فى التودد الى البابا وشارلمان ، فاستغلت فرصة وجود الأخير فى روما سنة ٧٨١ لقضاء عيد الفصح ، وأوفدت اليه رسولين من

---

(1) Ibid, pp. 121-122.

(2) Kleinclausz, Charlemagne, p. 124-125.

قبلهـا ، شرحا له رغبـة سيدتهما فى طلب يد ابنتـه روترود Rotrude لابنها الامبراطور الحدث • والحق أن شارلمان رحب بهـذا المشروع ، إذ رأى فى ارتباطه بالدولة البيزنطية ذات الأمجاد العريقة شرفـا لملك بربرى مثله لايدانيه شرف ، ممـا يسبغ عليه مكانة ونفوذا عظيمين من جهة ، ويطلق يده فى التصـدى للبنفنتيين من جهـة أخرى • وسرعان مـا أعلنت الخطبة ، وتلاها أن عهد شارلمان بابنتـه الصغيرة الى من يعلمها اللغـة الاغريقية وآدابها ، وعادات البلاط البيزنطى وتقاليده ، وفضـلا عن ذلك طلب الى بولس الشماس أن يعـلم الشمامسة الذين سيرافقون الأميرة الى القسطنطينية اللغـة اليونانية (١) • ومن الطبيعى أن التقارب بين الامبراطورية البيزنطية ومملكة الفرنجة وقتذاك ، قد أثار مخاوف ريكيس دوق بنفنتوم ؛ ممـا جعله يثير القلاقل ضـد ممتلكات البيزنطيين بجنوب ايطاليـا ، فانقض على أمالفى ، وشن هجومـا على نابولى (٢) • وثمة وثيقة فى هذا الصدد توضح شكوى البابا هادريان من أنه صار من الصعب المحافظة على أملاك الكنيسة فى نابولى ، بسبب الحرب الدائرة بينهـا وبين بنفنتوم (٣) •

ومهمـا يكن من أمر ، فقد ترتب على هـذه التغيرات التى طرأت على ايطاليا ، أن صمم شارلمان على التدخل ، وذلك لاخضاع أريكيس حتى لا يمثل تهديدا مستمرا للنفوذ الفرنجى فى ايطاليا • ولذلك لم يكد شارلمان يفرغ من مشاغله فى فرنسا ، حتى خرج الى ايطاليا من وورمز على رأس جيش كثيف فى أواسط شتاء سنة ٧٨٦ ، فوصل فلورنسة ، ومنها واصل زحفه الى روما ، فوصلها فى الأيام الأولى من عام ٧٨٧ ، حيث اجتمع بابنـه ببين والبابا هادريان لبحث الأوضاع الراهنة فى ايطاليا ، وبطبيعة الحال ، كان شارلمان مطمئنا الى جانب البيزنطيين ، ولاسيما

(1) Ibid, p. 125.

(2) Thompson, I, p. 244.

(3) Kleinclausz, p. 125.

أنه اتفق معهم على موعد قريب تزف فيه ابنتـــه روترود لامبراطورهم فى كابوا ، ولذلك لم يعد أمامه إلا توجيه ضربة قاصمة لدوقية بنفنتوم ، كى تستقر الأمور فى ايطاليا • ويهمنا الاشـــارة هنا الى أن أريكيس رغم شجاعته وأتباعه المخلصين وقلعته الحصينة فقد رأى بعين المصـــلحة الخاصة أن يهادن شارلمان نظرا لضخامة الجيش الفرنجى ، ولهـــذا أسرع الى عقد الصلح مع أهالى نابولى ، وأرسل أبنـــه روموالد محملا بالهدايا الى شارلمان ، تعبيراً عن رغبته فى السلام • ولكن شارلمان ـــ بايعاز من البابا ـــ لم يأبه به ، وعسكر بقواته فى كابوا استعدادا للهجوم على بنفنتوم • على أن أريكيس أسرع الى مغادرتها الى سالرنو ، حيث أرسل الى شارلمان ابنـــه الثانى جريموالد واثنى عشر نبيلا لومبارديا رهينة ، تأكيدا لطاعته وولائه من ناحية ، وأملا فى أن يجنب دوقيته أعمال السلب والنهب من ناحية أخرى • وكان أن استجاب شارلمان لدخول أريكيس فى طاعتـــه ، وعقدت اتفاقية بين الطرفين تعهـــد الأخير بمقتضاها بدفع جزية سنوية قيمتها سبعمائة قطعة من الذهب • وقد تلا ذلك مباشرة أن عاد شارلمان الى روما بين ٢٤ و ٢٨ مارس من العام نفسه (٧٨٧) ومنهـــا توجه الى مملكته وبرفقته الرهائن (١) •

على أنه حدث فى الوقت الذى كان شارلمان معسكرا بقواته فى كابوا ، أن أتاه وفد من قبل ايرين يعلمه بفسخ خطبة الامبراطور قنسطنين السادس لابنتـــه روترود • ويبـــدو أن السبب فى ذلك يرجع الى أن ايرين خافت من أن تعمل كنتهـــا فى المستقبل على تقليص نفوذهـــا والحد من سلطانها ، بالاضـــافة الى أن مـــا أحرزه الفرنجة من انتصارات بات يشكل خطرا على الممتلكات البيزنطية بايطاليا ، يفوق الخطر المتوقع على دوقية بنفنتوم (٢) • ويبدو أن فسخ الخطبة قد شجع أريكيس على أن يثير المتاعب فى وجـــه شارلمان ، ويضرب بالوعود التى بذلها له عرض الحائط ، بدليل أنه فور أن غادر شارلمان كابوا ، دخل أريكيس فى مفاوضات مع البيزنطيين انتهت

(1) Kleinclausz, pp. 125-126.

(٢) نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط ، ج ١ ص ١٥٧ •

الى عقد انفاقية بينهمـــا ضد شارلمان ، تنازلت ايرين بموجبها عن نابولى لأريكيس الذى كان يطمع فى الاستيلاء عليهـــا ، كما خلعت عليه لقب بطريق ، شريطة أن يتبنى عادات البيزنطيين وتقاليدهم ، ويلتزم بوضع قواته تحت تصرف الدولة البيزنطية ، حال اشتباكها فى حرب ضد الفرنجة على أرض ايطاليا ، وفى الوقت نفسه تم الاتفاق على أن يتوجه أد الجيس — الوريث الشرعى لدسيديريوس — على رأس جيش الى تريف أو رافنـــا لاثارة القلاقل والاضطرابات ضـــد الفرنجة فى ايطاليا الشمالية • ولا شك أن هـــذه الاتفاقية كان من شأنها أن تشـــكل خطرا داهمـــا على نفوذ الفرنجة فى ايطاليا ، ولكن وفاة أريكيس فى ٢٦ أغسطس سنة ٧٨٧ (١) ، جعلت الأحداث تأخذ مجرى مغايرا •

ويظهر ذلك بوضوح فى أن البنفنتيين طالبوا شارلمان بعودة أميرهم جريموالد الذى أخذه رهينة ، ليخلف أباه فى حكم الدوقية • ويبـــدو أن شارلمان استغل هـــذا الطلب للحصول على أقصى فائدة ممكنة ، ولا سيما أن أدالجيس رســـا بأسطوله وقتئـــذ فى كالابريا ، وأخـــذ يثير الفتن والاضطرابات ضـــد الفرنجة حتى اقليم البنتابوليس ، كمـــا أشار على اخته أدلبرجا التى أخذت على عاتقها توجيه أمور الدوقية خلال غيـــاب ابنهـــا جريموالد فى فرنسا ، بوجوب استقبال الســـفراء البيزنطيين فى سالرنو أواخر يناير سنة ٧٨٨ ، وفى المقابلة التى تمت بينها وبينهم وافقت أدلبرجا على أن تظل الاتفاقية التى وقعهـــا زوجها أريكيس قبل وفاته سارية المفعول (٢) • وعندمـــا وصلت أنباء هذه المقابلة الى البابا هادريان الأول أصيب بالفزع ، وأرســـل الى شارلمان يطلب عدم الموافقـــة على اطلاق سراح جريموالد ، فضـــلا عن ارسال جيش لإخضـــاع البنفنتيين فى الربيع القادم • ولكن شارلمان على العكس من ذلك أبدى تعقلا وحكمة آنذاك ، اذ استجاب لرغبة البنفنتيين بأن يعيد اليهم جريموالد ، شريطة

---

(1) Kleinclausz, Charlemagne, pp. 126-127.

(2) Ibid, p. 127.

أن يضرب الأخير السكة بأسم شارلمان ، ويضع اسمه على المراسيم التى يصدرها ، ومن الطريف فى هـذا الصدد أن شارلمان فرض على جريموالد وعلى جميع اللومبارديين فى بنفنتوم أن يحلقوا ذقونهم على الطريقـة الفرنجية ، رمزا للخضوع والتبعية • على أن الأمر الذى يثير الدهشـة أن جريموالد وافق على تلك الشروط ، ممـا جعل شارلمان يسمح لـه بالعودة الى دوقيته فى سبتمبر من العـام نفسه (٧٨٨) ، حيث جرى استقباله بحفاوة • والحق أن جريموالد أوفى بمـا تعهد به لشارلمان ، إذ أدخل على تأريخ مراسيمه سنوات حكم العـاهل الفرنجى ، وحفر اسمه على العملة الذهبية ، والأحرف الأولى من اسـمه على العمـلة الفضـية (١) •

ولا شك أن امتثال جريموالد لطـاعة شارلمان ، جاء مخيبا لآمال إيرين ، إذ تأكد لهـا تماما أن الخطة التى رسمتها بهدف زعزعة النفوذ الفرنجى فى ايطاليا ، ذهبت أدراج الرياح • وازاء تنصل جريموالد من العهود التى قطعها أبوه وأمه للدولة البيزنطية ، ومـا انطوى عليـه هذا التصرف من خيانة فى رأى إيرين ، فقد أنفذت أسطولا يرافقه أدالجيس للنيل من جريموالد ، وعند الحدود بين كالابريا وبنفنتوم دارت معركة هائلة بين البيزنطيين والبنفنتيين فى نوفمبر سنة ٧٨٨ ، لقى فيها البيزنطيون هزيمة حاسمة ، أسفرت عن مقتل أربعة آلاف منهم ، ووقوع ألف أسرى ، فى حين لاذت فلول الجيش البيزنطى بالهرب ، تاركة خلفهـا حصـيلة وافرة من الغنـائم (٢) •

وهكذا قضى على آخر محاولة رامت إحيـاء مملكة اللومبارديين المندثرة ، وبات واضحا أن شارلمان قد أحكم سيطرته على ايطاليا ، وفرض

---

(1) Ibid, pp. 127-128.

(2) Ibid, pp. 128-129.

عزلة موحشة على البنفنتيين • ومن المناسب أن نكرر القول هنـا إن وقوف البابوية الى جانب شارلمان ، ومـا ترتب عى تحالفهما من القضاء على اللومبارديين ،قد حطم القاعدة التى كان بامكان الوحدة الايطاليـة أن ترتفع عليها ، بينمـا ربط مستقبل ايطاليـا بالفرنجة فى صورة اتحاد عقيم كانت محصلته سبعة قرون من النزاع ، والأسوأ من هـذا كله أن الفرنجة وضعوا أساس السلطة الزمنية للبابوية ، ذلك البلاء الوبيل الذى دمر إيطاليا على مدى ألف عام (١) •

---

(1) Oman, Dark Ages, pp. 343-344.

الفصل الخامس

« حضـــارة اللومبارديين »

- التنظيم السياسى .
- الديـــانة .
- الجيش .
- رومنة اللومبارديين .
- الرعايا الرومان .
- القانون اللومباردى .
- المجتمع اللومباردى وطبقاته .
- الاقطاع اللومباردى .
- النشاط الاقتصادى .
- العمــلة .
- الحياة الفكرية .
- الفن والعمارة .

رأينـــا فى الفصول السابقة أن اللومبارديين أتوا من العالم البربرى الواسع الواقع خلف حدود الامبراطورية الرومانية ، وفى هـــذا العالم ظل الجرمان الشماليون فى مواطنهم الأصلية فى شــبه جزيرة اسكنديناوه وجزر البحر البلطى ، لم يبرحوها مثل غيرهم من الشــعوب الجرمانية الأخرى . أمــا الشرقيون مثل القوط الشرقيين ، والقــوط الغربيين ، والوندال ، والبورجنديين ، واللومبارديين وغيرهم ، فقد كانوا أصــحاب تجول وترحال ، لم ينعموا بنعمة الاستقرار إلا داخل حدود الامبراطورية الرومانية (١) . وهنا نلاحظ أن اللومبارديين اختلفوا عن بقية الشعوب الجرمانية ، فى أنهم لم يتنقلوا داخل أراضى الامبراطورية من مكان الى آخر ، قبل أن يستقروا نهائيا فى ايطاليا . ذلك أنهم تدفقوا عليهـــا من داخل جرمانيا مباشرة عند نهاية سنة ٥٦٨ ، بعد أن أخلوا بانونيا للآفار كمـــا رأينا . ولهذا لم يحتكوا بالحضارة الرومانية ، أو بالأحرى كانوا فى مستوى هابط أو بدائى منها (٢) . أضف الى ذلك ، أن وضعهم داخل أراضى الامبراطورية قد اختلف عن وضع معظم الشعوب الجرمانية ، التى اجتاحت أراضى هـــذه الامبراطورية ، فعلى حين كانت هذه الشعوب تعــد « محــالفة » Foederati للامبراطورية ، ويعنى ذلك من النــاحية النظرية أنها كانت مدافعة عنهـــا ، نجد أن اللومبارديين دخلوا ايطاليا بوصفهم أعداء علنيين وفاتحين فعليين (٣) .

ومن الطبيعى أن اللومبارديين لكونهم لم يتأثروا بالحضارة الرومانية

---

(1) Ganshof, Le Moyen Age, p. 6.

(2) Ibid, pp. 14-15; Oman, Dark Ages, p. 182.

(3) Thompson, The Middle Ages, I, p. 171; Dudden, Gregory the Great, I, p. 169; Wallace - Hadrill, Italy and Invaders, p. 57.

— موس : ميلاد العصور الوسطى ، جـ ١ ص ٣٣١ ،

— سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ص ١٤٢ .

قبل غزوهم ايطاليا ، قد بدوا فى نظر المعاصرين قومـا أفظاظا ، ونالوا شهرة واسعة فى العنف والخشونة ، حتى ضرب المثل بهم فى الهمجية والتدمير بوحشية ، كمـا اتصفوا بالشراهة ، وسرعة الغضب ، والميل الى الشراب ، ومن الثابت أنهم عرفوا المسيحية وفقـا للمذهب الآريوسى قبل مجيئهم الى ايطاليا ، وان كان البعض منهم ظل على وثنيته المعروفة بطقوسهـا الغامضة ، حيث كانت القرابين والأضحية تقدم اليها بمصاحبة الرقص والأغانى البربرية ، وكان من المتوقع أن تهذب المسيحية من طبـاعهم ، ولكنهم على النقيض من ذلك ، لم يتورعوا عن الفتك والتنكيل بأهالى ايطاليا ورجال الكاثوليك • هـذا ويرى البعض أن ثمـة مـا يدل على أن الروايات التاريخية العديدة التى تصف أعمالهم الهمجية مبالغ فيهـا الى حد مـا (١) •

والواقع أنه اذا عدنا قليلا الى الوراء ، وبالتحديد الى مـا قبـل الغزو اللومباردى مباشرة ، وألقينـا نظرة على أحوال ايطاليا ، نلاحظ أن الحروب التى دارت بين الامبراطورية الرومانية والقوط الشرقيين ، قد تركت آثارها بصمات واضحة على سكان شمال ايطاليا • إذ هلكت الغالبية العظمى منهم ، ولم تسلم الحضارة المادية من معاول التخريب والدماء ، حتى أن اللومبارديين عندما غزوهـا ، وجدوها قطرا مهجوراً • وقد أسهب المؤرخون فى وصف الصورة التى كانت عليها ايطاليا آنذاك ، فالريف قد أصيب بشلل تام ، جعل الكثير من سكانه يهربون الى روما والمدن المحصنة ، ومنطقة البحيرات الضحلة فى البحر الأدرياتى ، وإن كان بعض الفلاحين وملاك الأراضى قد فضلوا البقـاء فى أرضهم رغم الأخطار التى هددتهم ، ومنهم من أجبره الغزاة على البقـاء • ولامراء أنه لو عقدنا مقـارنة بين

(1) Dudden, op. cit., I, p. 169.

وضع السكان الرومان فى ايطاليا آنذاك ونظيره فى الغال (فرنسا) الفرنجية وأسبانيا تحت حكم القوط الغربيين ، لوجدناه فى ايطاليا أشد سوءا (١) .

والحق أن اللومبارديين بعد أن فرغوا من غزو شمال ايطاليا ومكنوا لأنفسهم فيه ، تغيرت أحوالهم تغييرا جذريا فى القرن السابع ، وعلى وجه التحديد فى الفترة الواقعة بين موت جريجورى الأول سنة ٦٠٤ وسنة ٧١٢ ، وهى السنة التى ارتقى فيها العرش ليوتبراند أعظم ملوكهم قاطبة ، الأمر الذى نعتبرها مرحلة فاصلة فى تاريخهم . ذلك أن فتوحاتهم خلال تلك الفترة قد وصلت الى أقصى مداها (٢) ، واحتكوا بالحضارة الرومانية وتأثروا بها ، رغم أنها كانت آخذة فى الذبول والانحلال(٣) . ويعنى ذلك أنهم لم يعودوا برابرة أجلاف ، وتحولوا عن الآريوسية الى الكاثوليكية ، واستخدموا اللغة اللاتينية فى مراسيمهم ، وكيفوا أنفسهم بما يلائم حياة المدن ، وأسسوا نظمهم ومؤسساتهم ، وصاغوا قوانينهم ذات الطابع الجرمانى المحض (٤) .

التنظيم السياسى :

قام التنظيم السياسى اللومباردى أساسا على الملكية ، شأنه فى ذلك شأن الممالك الجرمانية التى تأسست على أنقاض الامبراطورية الرومانية ، كالوندال والقوط والفرنجة وغيرها . ومن المعروف أن يد التغيير والتبديل قد نالت من هذه الممالك خلال هجراتها من مواطنها الأصلية ، الى أن استقر المقام بها فى أراضى الامبراطورية . ويظهر ذلك واضحا فى تفتت مؤسساتها القديمة ، وتفسخ طبقاتها الارستقراطية النبيلة ،

---

(1) Thompson, op. cit., I, p. 171.

(2) Ibid, p. 179.

(3) Cantor, Medieval Hist., p. 145.

(4) Thompson, op. cit., I, p. 179,

كمـــا فقدت الجمعيات الشعبية المؤلفة من طبقة المحاربين ــ وهم جميع الذكور الذين بلغوا سن الخدمة العسكرية ــ قوتها المســتقلة ، بعد أن صـــارت مجرد آداة منفذة لأوامر الملك ورغباته (٥) .

وكيفما كان الأمر ، فقد اتضح عجز النظام الملكى اللومباردى عن التطور لسنوات عديدة أعقبت الغزو ، إذ كان كل شىء حولهم ينطق بإراقة الدماء والانغماس فى الشــهوات ، وبوصفهم أكثر الشــعوب التجوالة Volkerwanderung فوضى ، وجدوا بهجتهم فى ارتكاب عمليات الدمار والتخريب ، ولهــذا لم تظهر فى الملكية اللومباردية عائلات ملكية عظيمة ، مثل أمالى فى القوط الشرقيين ، وبالتى فى القوط الغربيين ، كمــا لم يظهر من بين ملوكهـــا خلال عدة أجيال عبقرية سياسية مثل ألاريك ، وأثولف، وثيودريك ، وجزريك (١) ، ولــو قدر أن وهب الملكـــان ألبوين وأوثارى لمحة من عبقرية ثيودريك أوجزريك ، لتغير مجرى تاريخ ايطاليا تغييرا جذريا (٢) . ويكشف تاريخ اللومبارديين عن طريقة العصر الملتوية ، التى وصـــل ملوكهم بهـــا الى العرش ، فقد كانت أحيانا بالوراثة ، أو بالانتخاب الشعبى المباشر ، أو باعلان الموافقة على مـــا اختاره زعماؤهم ملكـــا ، أو تنازل الشعب عن حقه فى أنتخاب الملك ، مثلما حدث عنـــد موت أوثارى ، عندما أعطى لأرملته ثيوديلندا الحرية فى اختيار زوج ثان جدير بالعرش ، وأخيرا هناك من وصل الى العرش بأسلوب العنف والغدر والاغتيال (٣) .

---

(1) Lot, The End of the Ancient World, p. 291.

(2) Hodgkin, Italy and her Invaders, V, pp. 154-156.

أما الاريك (ت ٤١٠) وأثولف (ت ٤١٥) فهما من ملوك القوط الغربيين ، وثيودريك (ت ٥٢٦) ملك القوط الشرقيين ، وجزريك (ت ٤٧٧) ملك الوندال .

(3) Dudden, op. cit., I, p. 170.

(4) Oman, op. cit., p. 188; Villari, The Barbarian Invasions of Italy, II, p. 301; Hulme, The Middle Ages, p. 160.

على أن السـمة المميزة للملوك اللومبارديين تتمثل فى أن سلطتهم لم تكن دائمـة وثابتة • إذ بموت ألبوين الذى قاد قومه الى أرضـهم الموعودة بايطاليا ، اندثرت العائلات الملكية القديمة ، التى كانت تزعم أنها من نسـل الآلهة ، وحل محلهـا رجال جدد برزوا من بين صفوف الدوقات اللومبارديين ، الذين كانوا أهم ظاهرة فى تاريخ المملكة ، وقفت عقبـة كأداء فى سبيل تأسيس ملكية حقيقية ، ممـا عاد عليهـا بأوخم العواقب على صعيديها الداخلى والخارجى علىحد سواء (١) •

وقبل أن نخوض فى وضع الدوقات اللومبارديين ، يجدر بنـا أن نتناول نشأة هـذا التنظيم بايطاليا ، كى نعى تماما حقيقة الدور الذى قاموا به ، ومدى النفوذ الذى وصلوا اليه على امتداد السـنين التى عاشتها المملكة اللومباردية • وترجـع بداية هـذا التنظيم الى عصر جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) ، عندما منح قائده نارسيس سلطات واسعة بوصـفه قائدا عاما لجيوشـه ، وحرص على أن يعـاونه قواد duces انحصرت مسئولياتهم فى ادارة الولايات الموزعة فى ايطاليا ، وقد بقى هـذا التنظيم قائمـا بعد وفاة جستنيان ، فعرف حاكم الولاية بأسم الدوق dux ، والولاية باسم الدوقية ductatus ، وعلى هذا الأساس وجدت دوقيات البندقية ونابولى وروما وغيرهـا (٢) • ولا شك أن الغـاء التنظيم الادارى للولايات الرومانية القديمة ، واستبداله بنظام الدوقيات ، من الأمور التى لهـا دلالتهـا على تطور نظم العصور الوسطى فى ايطاليا (٣) • ويتضح ذلك فى أن الدوق جمع بين السلطتين المدنيـة والحربية داخل دوقيته ، ويتمثل ذلك فى أنه أصبح مسئولا عن تنظيم القوات العسكرية ، والاشراف على الموظفين المدنيين ، واقامة العدالة ،

---

(1) Gregory of Tours, Hist. of the Franks, I, p. 179; Lot, op. cit., p. 291.

(2) Stephenson, Med. Hist., pp. 96-97.

(3) Thompson, op. cit., p. 171.

وإدارة الشئون المالية ، وحق التدخل فى المسائل الدينية • ويمكن القول أن الدوق كان صورة مصغرة من الاكسارخ ممثل الابراطور البيزنطى فى ايطاليا ، مع ملاحظة أنه اذا كان الاكسار صاحب السلطة فى تعيين الدوق ، ومراجعة حساباته ، ومسائلته عن أوجه الصرف ، إلا أن الدوق أخذ على مر السنين يتحرر تدريجيا من تلك السلطة ، ويستقل عنه (١) •

أما فيما يختص بالدوقات اللومبارديين ، فقد حكموا مناطق اقليمية بايطاليا ، لا تزيد فى مساحتها عن الولايات الرومانية القديمة Civitates (٢) • ويرى المؤرخ هودجين أن الدوق اللومباردى كان فى الأصل زعيما حربيا على قبيلته ، وأحيانا كان من سلالة ملوك القبيلة الأوائل ، ولكنه نزل الى مرتبة الدوق عندما فقدت قبيلته استقلالها ، واندمجت فى وحدة أكبر منها ، وكان يتم اختياره بالانتخاب أو القرعة ، ونظرا لنفوذه القوى ، فقد حرص دائما على أن يجعل الدوقية وراثية فى عائلته من جهة ، وسعى الى التخلص من قيد التبعية الذى يربطه بالملكية من جهة أخرى (٣) • وقد روعى عند اختيار الدوق ثلاثة عوامل لابد منها ، وهى نبالة المولد ، ورغبة الأهالى ، وإرادة الملك ، بيد أنه اذا كان الملك صاحب السيادة العليا على الدوق ، إلا أننا من الناحية العملية لا نجد أثرا لتلك السيادة فى معظم الأحوال (٤) • ويمكن القول أن نفوذ الدوقات قد تراوح بين الموظفين المرءوسين وصغار الملوك المستقلين ، تبعا لما يبديه من قوة وصلابة (٥) •

---

(1) Dudden, op. cit., I, p. 183.

(2) Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées de l'Empire en Occident, p. 127.

(3) Hodgkin, op. cit., V, pp. 182-183.

(4) Poupardin, Etude sur les Institutions politiques et Administratives des prencipautés Lombardes de L'Italie Mericlionale, p. 8.

(٥) موس : المرجع السابق ، ص ٣٣٣ .

فعلى سبيل المثال : فشل دوقات الشمال الإيطالى فى الاستقلال بدوقياتهم ، لقربهم من السلطة الملكية فى بافيا ، التى أوقفت طموحاتهم وأبقتهم خاضعين لسيطرتها ، فى حين نجحت دوقيتا سبوليتو وبنفنتوم البعيدتين فى الجنوب الايطالى فى الاستقلال عنها ؛ ولعل أبسط دليل على ذلك ، اللقب الذى اتخذه دوق سبوليتو لنفسه ، وهو « دوق الشعب اللومباردى » . Dux gentis Longobardorum ، فى الوقت الذى صار دوق بنفنتوم سيدا على دوقيته بالوراثة (١) . وأكثر أهمية من ذلك ؛ أن سلسلة القلاع والحصون البيزنطية الواقعة على الطريق الفلامينى الشهير ، الذى ظل فى حوزة البيزنطيين فترة طويلة ؛ قد ساعدت على استقلال دوقيتى سبوليتو وبنفنتوم ، وجعلت منهما حكومتين صغيرتين فى وسط ايطاليا وجنوبها ، ذلك أنهما شكلت حاجزا بينهما وبين النصف الشمالى من المملكة اللومباردية ، وعلى النقيض من ذلك كان وضع الدوقيات فى الشمال الايطالى ، إذ لكونها هدفا مباشرا لهجمات مملكة الفرنجة ؛ فقد اضطرت الى الدخول فى طاعة الملوك اللومبارديين (٢) ، وكيفما كان الأمر ، ففى مرات نادرة اعترف دوقا سبوليتو وبنفنتوم بالسلطة الملكية فى بافيا ، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك ، أن الملك ليوتبراند (٧١٢ — ٧٤٤) استطاع أن يكسر شوكتهما ويفرض عليهما طاعته ؛ ولكن بعد موته بأقل من سنتين استعاد دوق بنفنتوم كل مظاهر استقلاله ، حتى أن الملك راتشيس الذى خلف ليوتبراند ، اعتبر هذه الدوقية بمثابة بلد أجنبى لا يمت له بصلة ؛ كذلك حاول دسيدريوس أن يحذو حذو ليوتبراند فى السيطرة على

---

(1) Villari, op. cit., II, pp. 301-202.

(2) Orton, Outlines of Med. Hist., p. 104; Mann, The Lives of the Popes, I, p. 13.

دوقاته ، بيد أنه بعد أن أحرز بعض النجاح ، اضطر الى ايقاف جهوده بسبب الغزو الفرنجي لمملكته ، كما أنه بعد أن اقتلع شارلمان المملكة اللومباردية من الوجود فى سنة ٧٧٤ ، لم يعترف دوق بنفنتوم بسيادته فحسب ، بل أطلق على نفسه لقب « أمير اللومبارديين » ، وفى النادر البعيد « أمير بنفنتوم » (١) .

وجدير بالذكر ، أن نفوذ الدوقات اللومبارديين فاق الى حد بعيد ، نفوذ أقرانهم فى الملكيات الجرمانية الأخرى فى أفريقية وأسبانيا والغال ، فقد كان دوقات الغال فى القرنين السادس والسابع مجرد موظفين تابعين للتاج الفرنجى ، على عكس الدوقات اللومبارديين الذين عارضوا السلطة الملكية منذ قيامها (٢) كما رأينا .

وقد اتصف الدوقات اللومبارديون البالغ عددهم حوالى خمسة وثلاثين دوقا بالخشونة والعنف ، والميل الى احداث الفتن والفوضى ، وتبادل العداء والشقاق فيما بينهم ، وقد اعتمدوا فى معيشتهم على الغارات الناهبة ضد جيرانهم البيزنطيين ، وعلى انتزاع الضرائب من رعاياهم ، الأمر الذى جعلهم عقبة كأداء فى طريق وحدة الشعب اللومباردى وتماسكه (٣) .

ويمكن القول أن سلطة الملك اللومباردى فى القرن السابع ، كانت من الناحية الملكية أشبه ما تكون بسلطة ملك فرنسا فى القرن العاشر ، وامبراطور ألمانيا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر (٤) . ففى فرنسا انهارت السلطة الملكية ، واحتدمت المنازعات بين الأمراء ، بسبب الغزوات

---

(1) Poupardin, op. cit., pp. 8-9.

(2) Lot, The End of the Ancient World, p. 291.

(3) Dudden, op. cit., I, p. 170; Thompson, op. cit., I, p. 171; Hulme, op. cit., p. 160.

(4) Lot, op. cit., p. 291.

التى اجتاحت أوربا فى القرنين التاسع والعاشر ، ومــا نجم عنهــا من فوضى عمت غرب أوربا ، دفعت صغار الملاك الى البحث عن قوة تحميهم ، فلم يجدوا أثرا لقوة الملك وسلطته ، الأمر الذى دفعهم الى الارتبــاط بالكونت أو الأمير المحلى لحمايتهم ، وهكذا لم ينته القرن العاشر إلا وكان النظام الاقطاعى قد ثبت أقدامه فيهــا ، وتناقصت ســلطة الدولة المركزية تناقصا واضحا (١) • أمــا فى ألمانيا ، فقد انتهز كبار الأمراء فرصة انصراف الملوك الى النزاع مع البابوية ، ليدعموا سلطانهم ، ممــا أدى الى ازدياد شدة التيــار الاقطــاعى فى ألمانيا ، على حساب الملكيــة ونفوذهــا (٢) •

ولعل أبرز ظاهرة نلمسها فى تاريخ الملــكية اللومباردية ، هى فترة الشغور التى استمرت عشر سنوات (٥٧٤ ــ ٥٨٤) ، والتى لا نجد لها نظيراً فى الممالك الجرمانية الأخرى ، مثل القوط الغربيين والفرنجة • وقد سبق أن رأينــا أن الفوضى بلغت مداها إبان هــذه الفترة ، ولولا تهديد مملكة الفرنجة بغزو الأراضى اللومباردية ، وخشية أن تقوم بيزنطة بعمل عدائى ، لمــا فكر الدوقات اللومبارديون فى وضع حــد لتلك الفوضى ، وبالتالى حتمية وجود ملك على العرش يحافظ على كيانهم ومصيرهم (٣) • ولهذا اجتمعوا وقرروا انتخاب أوثارى للمنصب الملكى ، فى الوقت الذى تنازلوا له عن نصف أملاكهم الدوقية ، حتى يستطيع أن يواجه متطلبات هــذا المنصب ، وقد عهد أوثارى بادارتها الى وكلائه المعروفين باســم الجستالدى gastaldi (٣) •

ومن المعروف أن هؤلاء الجستالدى كانوا يمثلون الملك اللومباردى

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، حـ ١ ص ٢٣٦ ــ ٢٣٧ •

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق • حـ ١ ص ٣٥٦ ــ ٣٥٧ •

(3) Gregory of Tours, Hist. of the Franks, I, p. 180.

(4) Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., pp. 227-228; Thompson, op. cit., I, p. 171.

فى المدن والدوقيات ، وهو الذى يعينهم ويعزلهم حسب مشـيئته ، وقد انحصرت واجباتهم فى رعاية مصالح الملك ، وبوجه خاص الأراضى الملكية ، ومراقبة الدوقات ، كمـا أنهم بمقتضى السـلطة المخولة لهم عملوا قضاة وقادة عسكريين (١) ، وعهد اليهم بمهمـة الحفاظ على الأمن ، وإبعـاد المجذومين ، والقبض على الهاربين (٢) • وقد حاول الملوك دوما أن يزيدوا من أعداد الجستالدى فى أنحاء المملكة ، كأفضل وسيلة لتقوية نفوذهم ، وإضفاء طابع الوحدة السياسية عليها ، وفى ذات الوقت للحد من نفوذ الدوقات ، ولهـذا فضلوا أن يضـعوا على رأس الأقاليم الجديدة ، التى يتأتى لهم الاستيلاء عليها من البيزنطيين أو الدوقات الثائرين ، جستالدى بدلا من الدوقات • ومع ذلك ، عجزت السـلطة الملكية عن كبح جمـاح الدوقات ، وبوجه خاص الكبـار منهم ، الذين حاكوا الملك فى بلاطـه واختصاصاته ، ومارسوا شـئون العدالة ، وقادوا القوات العسكرية فى دوقياتهم ، بل منهم من تولى القيادة العامة للجيش اللومباردى أو بعض قواته ، كمـا زخر بلاطهم بمختلف الموظفين لممارسة الشـئون الادارية والقانونية ، وقلدوا الملوك فى اتخاذ حاشية لمرافقتهم وهى المعروفة باسم الرفـاق gasindi ، وحـاجب cubicularius ، وأمين خزانـة وجستالدوس stolesaz (٣) •

وكانت بافيا ـ وهى عاصمة المملكة اللومباردية ـ المقر الدائم لإقامة الملك وأسرته وحاشيته وكبار موظفيه • وهناك نلاحظ أن البـلاط الملكى اللومباردى sacrum palatium قد تميز بالبساطة والبعد عن التعقيد فى بداية اسـتقرار اللومبارديين بايطاليـا ، على أنه بعـد أن تأثروا بالحضـارة البيزنطية ، انتهج ملوكهم نهج البلاط البيزنطى فى طابعه وتقاليده • وقد

(1) Villari, op. cit., II, p. 103.

(2) Paul the Deacon, Hist. of the Lombards, p. 87, n. 2.

(3) Villari, op. cit., II, 103.

تألف البلاط اللومباردى من بعض الشخصيات المنحدرة من أصل جرمانى ، وبعض الرومان الذين التحقوا بخدمة الملوك ، وملأوا مكاتب القصر ، أما الموظفون الكبار الذين كانوا فى خدمة الملك فهم : قيم المراسيم والتشريفات المعروف باسم المارشال ، وعمدة القصر ، وأمين الخزانة ، وحامل السيف ، وحامل الترس والمستشارون ، والرفقـــاء Comites المكلفون بمهــام السفارات ، والى جانب ذلك ، الجهــاز الادارى الذى ضــم عددا من الكتبة ، برئاسة نبيل لومباردي (١) •

والجدير بالذكر ، أن اللقب الذى حمله الملوك اللومبارديون منــذ البداية ، هو « ملك الشعب اللومباردى » وهــذا يعنى أن شعبهم اختلف دوماً فى وضعه القانونى عن سكان ايطاليا الرومان (٢) • وباعتلاء أوثارى (٥٨٤ — ٥٩٠) العرش ، خلع الدوقات عليــه لقب فلافيــوس Flavius الذى حمله خلفاؤه من بعده • ولا شك أن الغرض من هــذا اللقب — كما أسلفنا — هو ربط أوثارى بذكرى أمجــاد الأسرة الفلافية ، باعتبــاره خليفة الأباطرة الرومان العظام ، فى الوقت الذى يجذب اليه ود رعاياه الرومان واللومبارديين جميعا (٣) • أضف الى ذلك ، أن الملوك اللومبارديين لم يبرحوا قادة حرب فحســب ، بل حراســا للســلام وسدنة للعدالة Justiciars (٤) •

وصفوة القول ، أن الملــوك اللومبارديين رغــم أصــلهم النبيل ، وصفاتهم الشخصية البارزة ، وشجاعتهم فى الحروب ، افتقروا فى الواقع الى أسس فن الحكم (٥) • ذلك أن المنازعات الدائمة بينهم وبين كبــار

(1) Kleinclausz, Charlemagne, p. 17; Lot, The End of the Ancient World, p. 294; Lot, Les Invasions., p. 282; Deanesly, A Hist. of Early Med. Europe, p. 254.

(٢) موس : المرجع السابق ، ص ٣٣ — ٣٣٤ .

(3) Lot, Pfister & Ganshof, p. 227.

(4) Deanesly, A Hist. of Med. Europe, p. 254.

(5) Dudden, op. cit., I, p. 170.

الدوقات ، ومـا تبعها من ثورات مستمرة ، أنهت حياة الكثير منهم نهاية عنيفة ، كل ذلك أدى الى بعثرة قوى المملكة ، وأعاق ملوكها عن مواصلة الحكم بحزم وصلابة ، ولهـذا فبعد مـا يزيد عن قرنين من السيطرة والعنف ، فشـل اللومبارديون فى جعل ايطاليا جرمانية ، وانتهى الأمـر برومنتهم ، واندماجهم فى الشعب المغلوب (١) •

الديـانة :

عرفت القبائل الجرمانية فى مواطنها الأصـلية بوثنيتها ، المثلة فى خليطمن الأساطير وعبادة قوى الطبيعة ومظاهرها ، مثل الكواكب والنجوم والشمس والرعد والبرق والأشجار والتلال وغيرها ، وفى خلال هجراتهـا وتجوالها من مكـان الى آخر ، تعرفت على الديانة المسيحية بمذهبهـا الآريوسى ، مخالفة بذلك جميع سكان الجزء الغربى من الامبراطورية الكاثوليك •

وترجع معرفة اللومبارديين بالديانة المسيحية بمذهبهـا الآريوسى خلال اقامتهم فى بانونيا على أيدى البعثات التبشيرية الآريوسية ، وإن كنا لا نستطيع أن نحدد البداية التاريخية الفعلية لذلك • وعندمـا انثالوا على شمال ايطاليا غزاة فاتحين كانت غالبيتهم مسيحية ، والقلة البـاقية وثنية • ومن الملاحظ أن آريوسيتهم خلال الموجـة الأولى من الغزو ، أوجدت هوة سحيقة بينهم وبين سكان ايطاليا الكاثوليك (٢) • وقد أجمع المؤرخون على أنهم منذ اللحظة الأولى أظهروا كرههم للكنيسة الكاثوليكية ، التى بدت فى نظرهم مؤسسة رومانيـة ، ولهـذا لم يتورعوا عن العبث بالكنائس والأديرة ، باستثناء دير واحد بقى سليما من عبثهم ، وهو دير سانت مارك فى سبوليتو ، ولم يتوقفوا عند هـذا الحد ، بل ضـايقوا

---

(1) Villari, op. cit., II, p. 302.

(2) Webster, Hist. of Civilization, pp. 370-380; Lot, Pfister & Ganshof, p. 211.

الأساقفة والرهبان ، وألحقوا الأذى بهم ، ممـا أدى الى انسحاب أساقفة أكويليا وميلان الى جاردو وجنوة ، وقد حذا حذوهم رهبا ندير مونت كاسينو ، إذ تمكنوا من الافلات من وحشية زوتو دوق بنفنتوم ، عندمـا قام بهدم هـذا الدير حوالى سنة ٥٩٠ ، ولجأوا الى رومـا حاملين معهم مخطوطة نظامهم الرهبـانى (١) • ومهمـا يكن من أمر ، فان مـا أنزله اللومبارديون على مخالفيهم فى العقيدة ، لا يدانى موجة الاضطهاد العنيفة التى مارسها الوندال مع رعاياهم الكاثوليك فى أفريقية (٢) •

وقد ظل اللومبارديون على آريوسيتهم ، الى أن اعتلى جريجورى العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) كرسى البابوية ، فوجه عنايته الى نشر الكاثوليكية بينهم ، واعادة الكنائس والأديرة التى أصابها الغزو اللومباردى بالتلف والتدمير الى مـا كانت عليه (٣) • والواقع أنه منـذ الأيام الأولى لبابويته أنفذ رسالة الى جميع أساقفة ايطاليا ، يطلب اليهم أن يبذلوا قصـارى جهدهم لتحويل اللومباريين عن الآريوسية ، قائلا : « بكل مـا تستطيعون من قوة ، أسرعوا بهم الى العقيدة الصحيحة ، وبشروهم دون انقطـاع بمملكة الله » • وممـا ساعد على انتشـار الكاثوليكية بين اللومبارديين انذاك ، ضعف كنيستهم التى تميزت بقلة أعداد رجالها وضحالة ثقافتها من ناحية ، وتشجيع البلاط الملكى للكاثوليكية كمـا حدث بين الفرنجـة منـذ قرن من ناحية أخرى (٤) • وهنا نلاحظ أن هذا البلاط قد استغرق وقتا طويلا فى تحوله الى الكاثوليكية ، على عكس نظرائه فى الغال وبورجنديا

---

(1) Mann, The Lives of the Popes, I, p. 12; Wallace-Hadrill, Italy and the Lombards. From the Barbarian Inrasions. ed. by Kathrine Fisher, p. 59.

(2) Hodgkin, op. cit., V, p. 157.

(3) Lot, Pfister & Ganshof, op. cit. p. 215.

(4) Lot, The End of the Ancieut World, p. 289.

وأسبانيا ، إذ تحول كلوفيس الفرنجي الى الكاثوليكة فى نهـاية القرن الخامس ، وسيجسموند البورجندى فى بداية القرن التالى ، وريكارد ملك القوط الغربيين فى سنة ٥٨٩ ، أمـا الملوك اللومبارديون ، فلم يتحولوا إلاف القرن السابع ، وذلك بفضل ملكتهم ثيوديلندا الكاثوليكية (١)

والحق أن ثيوديلندا أثبتت بأعمالها أنهـا كانت أعظم سيدات البيوت الملكية التى شهدها القرن السادس • إذ يكفى أنهـا حازت إعجاب قومهـا والرومان أعدائهم التقليديين سواء بسواء ، وساد شعور طيب بينهمـا من خلال شخصيتها المتألقة المحبوبة • والمعروف أنهـا ابنة جاريبالدى البافارى ، وترتبط من ناحية أمهـا بوالتـارى آخر ملوك عائلة ليثنج اللومباردية القديمة • ولمـا كانت زوجة للملك أوثارى ومن بعده لأجيلولف وأم لملك ثالث ، فقد سيطرت على مقدرات شعبها ، الذى رأى فيها ملهمته الفريدة لفترة تزيد عن ربع قرن ، حتى أن اسمها بعد وفاتها ظل محفورا فى ذاكرته واحترام ، ولا زالت ذكراها حية فى مدينة مونزا حتى يومنـا هـذا (٢) •

وبصرف النظر عن أنهـا كانت ملكة وسليلة بيت ملكى ، فالمهم أنه بفضل نفوذهـا وشخصيتهـا ، غيرت من رؤية زوجهـا الثانى أجيلولف للكاثوليكية ، على عكس زوجهـا الأول أوثارى ، الذى استمات فى التمسك بعقيدة قومه الآريوسية ، وأصدر مرسوما فى سنة ٥٩٠ ، منع بموجبـة رعاياه من التعميد على المذهب الكاثوليكى كمـا رأينا ، ولكنـه توفى قبل أن يمر عام على صدوره ، الأمر الذى اعتبره البـابا جريجورى العظيم عقابا إلهيـا ، ويقال أن أجيلولف قد اعتنق الكاثوليكية قبل وفاته ، وان كان لا يتوفر أى دليل على صحة ذلك (٣) • على أنه من الثابت أنه سمح

(1) Lot, Les Invasions Germaniques, p. 283.

(2) Dudden, op. cit., II, pp. 5-6.

(3) Mann, op. cit., I, Part I, pp. 170-171.

لزوجته ثيوديلندا بتعميد طفلها أدالوالد على المذهب الكاثوليكى فى سنة ٦٠٣ ، وهى خطوة باركهـا جريجورى وتهلل لهـا فرحا ، وهو راقد على فراش الموت (١) •

وكيفما كان الأمر ، فقـد شهدت الفترة التى قامت فيهـا ثيوديلندا بالوصاية على ابنهـا وحكمت المملكة باسمه (٦١٦ ـ ٦٢٦) ، ارتفـاع شأن الكاثوليكية بين قومهـا الى حد كبير ، خاصة أنها وجدت فى شخصية كولومبـان Columbanus (حوالى ٥٤٣ ـ ٦١٥) نصـيراً عظيمـا وقف الى جانبها • وكان كولومبان قد خرج من ديره فى بلفاست بأيرلندا متوجها الى مملكة الفرنجة ، حيث نجح فى محاربة بقايا الوثنية ، ومنها عرج على ايطاليا بصحبة اثنى عشر من رفاقه بغرض القضـاء على الآريوسية فى الأقاليم اللومباردية (٢) • وقد لعب كولومبان دورا فعـالا فى تحويل اللومبارديين الى الكاثوليكية ، وعنى بنشر الثقافة الرومانية بينهم ، كمـا شيد بموافقة ثيوديلندا ديراً فى بوبيو Bobbio على النظام البندكتى(٣) • وجدير بالذكر ، أن ثيوديلندا شيدت العديد من الكنائس ، وأصلحت ما تهدم منهـا ، ودأبت على منحها هبات سخية ، وقد سارت ابنتا جندبرجا على خطاها ، فشيدت كنيسة فى بافيا زينتها بالذهب والفضة ، وهبتهـا للقديس يوحنا المعمدان (٤) •

على أن الآريوسية فى الواقع بعد وفاة أدالوالد ، لم تعدم أنصارا لهـا من بين الملوك اللومبارديين ، فقـد عرف خلفه أريوالد (٦٢٦ ـ ٦٣٦) ، ومن بعده روثارى (٦٣٦ ـ ٦٥٢) ، وجريموالد (٦٦٢ ـ ٦٧١) ، بحماسهم الآريوسى الشديد (٥) • غير أنه باعتلاء بركتاريت العرش سنة

---

(1) Paul the Deacon, p. 170.
(2) Ibid, pp. 191-192.
(3) Deanesly, A Hist. of the Medieval Church, p. 37.
(4) Paul the Deacon, op. cit., pp. 201-202.
(5) Lot, op. cit., p. 283; Orton, op. cit., p. 105.

٦٧١ ، أخذت الآريوسية تلفظ أنفاسها الأخيرة ، إذ راح يشجع قومه على بنـاء الكنائس والأديرة ورحب بالبعثـات التبشـيرية الرومانية لنشر الكاثوليكية (١) • وكان أن خرجت الكاثوليكية ظـافرة فى صرعهـا مع الآريوسية فى عهد الملك كونبرت (٦٨٨ — ٧٠٠) ، فقد انعقد مجمع كنسى فى بافيا سنة ٦٩٨ ، وافقت الحكومة اللومباردية بمقتضـاه على اتخـاذ الكاثوليكية مذهبا رسميا لهـا (٢) • وهنا نلاحظ أن ليوتبراند كان أشد الملوك حماسا للكاثوليكية ، فقد ابتنى العديد من الكنائس والأديرة ، وهو أول ملك لومباردى أقام لنفسه كنيسة صغيرة فى قصره (٣) •

والحقيقة التى لامراء فيهـا ، أن تحول اللومبارديين الى الكاثوليكية ابتداء من منتصف القرن السابع ، قد هدم الحاجز الذى كان يفصلهم عن رعاياهم الرومان ، وبعبـارة أخرى جعل العلاقة بين الجانبين بمثابة نهر ينسـاب فى هدوء ويسر • ومع ذلك ، لم ينج اللومبارديون من عقدة العداء المتأصل فى الكنيسة الغربيـة نحوهم • والواقع أن هـذا العداء أوجده الوضع السياسى المتناقض فى ايطاليا آنذاك ، فالبيزنطيون لم تبرح جذورهم حية فى ايطاليا ، فى الوقت الذى تمكن البابوات من تشـييد بنائهم السياسى ، ولم تعد لديهم الرغبـة فى النزول الى مجرد أساقفـة ايطاليين ، وعلى هـذا تحالفت رومـا وبيزنطة دفاعا عن وجودهما ضـد المملكة اللومباردية ، وقاما بالتصدى لها (٤) •

الجيش اللومباردى :

آمن المجتمع الجرمانى بمبدأ الشورى فى تصريف أموره مهمـا قل شأنها • ففيما يتعلق بالأمور الصغيرة التى تحتاج الى حل سريع ، إقتصر

---

(1) Wallace - Hadrill, op. cit., p. 63.
(2) Lot, op. cit., p. 105.
(3) Paul the Deacon, pp. 303-304.
(4) Orton, op. cit., p. 102.

الأمر على اجتماع يحضره زعماء العشائر للتشاور ، أمـا بالنسبة للأمور الخطيرة مثل اعلان الحرب أو اقرار السـلام ، كان لزاما أن يجتمع الشعب الجرمانى كله ، كى يأخذ مـا يصل اليه من قرار صفة الاجماع • ولكن هـذا التقليد الذى اتبعه الجرمان فى مواطنهم الأصلية ، نالته يد التغيير عندما غادروا هـذه المواطن ، وأسسوا ممالكهم على أنقـاض الامبراطورية الرومانية ، ذلك أن ملوك الجرمان الجدد مثل الفرنجة فى الغـال أو اللومبارديين فى ايطاليا ، صاروا وحدهم أصحاب الحق فى رفع راية الحرب أو السلام ، وفق رغباتهم الخاصة (١) • •

ومن المعروف أن الشعب اللومباردى كان محاربا بطبيعته ، وكانت الحرب بالنسـبة له أحد التقاليد الراسخة المرتبطة بالطقوس الدينية الى أبعد حد • ولهـذا عندما فرض حصاره على بافيا فى سنة ٥٦٨ ، واستعصت عليـه فى البداية ، أقسم أن يقتل سكانها الرومان ، حيث كان من الطبيعى أن يضحى بهم تقربا لآلهته ، ولكنهـا بعد أن استسلمت عدل عن عزمه ، بحجة أنهم مسيحيون • ويعطينا ليوتبراند مثلا آخر عن حياة هذا الشعب القائمة على الحرب ، إذ اعترف صراحة أنه لا يستطيع أن يستأصل غريزة الحرب من شعبه ، ومع ذلك ، فاللومبارديون مثل بقية الشعوب الأخرى ، كان لديهم مفهوم واضح عن السلام (٢) •

وأول مـا نلاحظه على الجيش اللومباردى ، أنه ارتكز أساسا على الخدمة العسكرية الاجبارية ، إذ لم يكن ثمـة مكان للجنود المرتزقة فى صفوفه ، وتبعا لذلك وجب على كل لومباردى حر قادر على حمل السلاح أداء الخدمة ، حيث لم تكن الحكومة فى وضع يسمح لهـا بأن تدفع للجند النظاميين من خزينتها(٣) • ثم حدث تطور هام فى تنظيم هذا الجيش فى القرن

---

(1) Dill, Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, p. 113.

(2) Wallace - Hadrill, Sarly Medieval Hist., p. 22.

(٣) هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية ، ترجمة جوزيف نسيم لويس ، ص ١٠٤ •

القرن الثامن ، إذ أصدر الملك استولف قانونا فى سنة ٧٥٠ ، صارت الخدمة العسكرية بموجبه خاضعة لملكية الأرض ، ونتيجة لذلك وجب على كل مالك حر أداء الخدمة العسكرية لمليكه عند الاستدعاء وعلى نفقتـه • وبمعنى آخر ، التزم كل مالك من طبقة الأحرار الأريمانى arimanni يحوز أربعين أربنت arpents (١) من الأرض بتأدية الخدمة على صهوة حصانه ، مجهزا بسيف ودرع وبدلة مزردة ، أمـا من يملك أقل من ذلك ، فعليه أن يسارع للخدمة بجواده مزودا بدرع وقوس فقط • ومما تجدر الاشارة اليه ، أنه كان بوسع المالك الرومانى أن يؤدى الخدمة العسكرية فى صفوف الجيش اللومباردى ، مثله مثل المحارب اللومباردى الأريمانى ، الأمر الذى نستدل منه على أن خدمة السلاح من ناحية المبدأ ، قد فرضت على الجميع (٢) •

ونلاحظ أيضا أن الجيش اللومباردى اعتمد فى تشكيله أساسا على الفرسان (الخيالة) ، على غرار الشعوب الجرمانية التى عاشت فى منطقة وسط الدانوب • ويظهر ذلك بوضوح فى أساطيرهم المبكرة ، وعند ظهورهم على مسرح الأحداث التاريخية على حد سواء • وقد رأينـا من قبل أن جستنيان قد سـمح لقائده القدير نارسيس بالاستعانة باللومبارديين فى حروبه ضد القوط الشرقيين فى ايطاليا ، فأرسلوا اليه ألفين وخمسمائة فارس من أصل نبيل ، وبرفقتهم ثلاثة آلاف فارس من التابعين لهم • بيد أنهم حاربوا فى صفوف المشـاة فى موقعـة تادينوى ، التى انتهت بسحق القوط الشرقيين سنة ٥٥٢ ، تنفيذا لأوامر نارسيس الذى أراد أن يدعم وسط جيشه بأقوى فرقه البربرية المساعدة (٣) • أمـا فيما يتعلق بالتجهيزات الحربية للفارس اللومباردى ، فقد كانت الخوذة والصديرية المزردة ، فضـلا عن أغطية السـاق greaves التى لم تعرفهـا أكثر

---

(١) الأرنبت : وحدة قياس طولية قديمة تساوى ٦٣ ياردة وربع تقريبا •

(2) Lot, op. cit., pp. 284-285; Lot, The End., op. cit., p. 294; Kleinclausz, op. cit., p. 17.

(3) Oman, A Hist. of the Arts of War, I, p. 48.

شعوب غرب أوربا إلا فيمـا بعد بثلاثة قرون • وفى الحرب كان فرسان اللومبارديين يهاجمون من على ظهور خيولهم الحربية ، وفى أيديهـم الحراب ، ورغم أنهم عرفوا النصـل العريض الحد spatha والقوس ، إلا أن الحربـة الضـخمة Contus كانت السـلاح الرئيسى الذى استخدموه • وعلى أية حال ، احتلت الخيل مكانة هامة فى حياة اللومبارديين ولا سيما فى القتال ، حتى أن قوانينهم زخرت بالاشارات العديدة اليها ، بصورة تفوق مـا جاء فى قوانين الشعوب الجرمانية الأخرى (١) •

والمعروف أن الملك اللومباردى كان القـائد الأعـلى للجيـوش اللومباردية ، فـاذا أعلن أوامره بالتعبئـة لحملة حربيـة ، وحدد ساعة انطلاقا ، وجب على الجميع الانصياع لأمره ، وتبعا لذلك يتوقف الدائنون عن مطاردة مدينيهم بمجرد التحاقهم بالحملة الحربية ، حتى اليوم التالى من تسريحهم وتفرقهم الى بلادهم ، أمـا أولئك الذين تراخوا فى الاستجابة لنداء الملك أو تقاعسوا عن تأدية الخدمة الحربية ، فقد كان ذلك من الأمور الخطيرة التى تسـتوجب انزال عقوبات شديدة عليهم ، كمـا فرضـت اجراءات رادعة ضـد الموظفين الذين يعفون القادرين على القتال من أداء الخدمة الحربية ، أو يتسترون عليهم (٢) •

وجدير بالذكر ، أن جبال الألب المنيعة الواقعة فى شمال المملكة لعبت دورا هاما فى الدفاع عن الأراضى اللومباردية • إذ كانت بمثابة سور ضخم طبيعى يفصلها عن جارتها مملكة الفرنجة • ولا ريب أنه كان من المتعذر على أى جيش أن يخترق تلك الجبـال إلا عن طريق ممراتها الاستراتيجية الشهيرة ، التى أطلق عليهـا وبصفة خاصة ممرى سانت برنارد ومونت سينى ، اسم «Clauses» •

---

(1) Ibid, I, pp. 48-49.

(2) Kleinclausz, op. cit., p. 17.

ومما يشهد بأهمية تلك الممرات ، أن اللومبارديين أحكموا الرقابة عليها ، ليحولوا دون وصول عدوهم من خلالها الى أراضيهم • وتبعا لذلك عهدت الحكومة اللومباردية الى ضباط أطلق عليهم Clusarii ، بمهمة مراقبتها فى أوقات السلم والحرب • إذ كان محظورا على أى حاج أوربى مسيحى فى طريقه الى الأراضى المقدسة ، أن يعبر تلك الممرات دون الحصول على تأشيرة دخول من قبل أولئك الضباط ، وكذلك لم يكن بوسع أى لومباردى عبورها دون الحصول على تأشيرة خروج من السلطات اللومبارية ، أما فى أوقات الحرب ، فقد دأبت الحكومة اللومباردية على ارسال قوات عسكرية لحراستها وحمايتها (١) •

رومنة اللومبارديين :

وإذا كنا قد تعرضنا فى مناسبات سابقة الى أن اللومبارديين كانوا أعنف الشعوب الجرمانية وأشدها ضراوة ، وحسب ما لقيته ايطاليا على أيديهم من دمار وخراب وسفك دماء خلال غزوهم لها ، فالحقيقة أنهم لم يستمروا على هذا الوضع طويلا • وبمعنى آخر ، أخذت عداوة اللومبارديين تجاه الرومان فى الانحسار تدريجيا على مر السنين ، الى أن تم التقارب والتفاعل الحضارى بينهما فى النهاية • على أنه اذا كانت القاعدة التاريخية المعروفة أن الغالب يفرض حضارته وتقاليده على المغلوب ، فان هذه القاعدة لم تنطبق على الشعب اللومباردى ، الذى فاق بقية الشعوب الجرمانية فى بدائيته وبساطته ، وفى ضآلة ما يمكن أن يقدمه فى مضمار الحضارة ، ومن هنا فان ما حدث هو العكس ، فاللومبارديون هم الذين تأثروا بالحضارة الرومانية بعد استقرارهم ، واصطبغوا بصبغتها •

وغنى عن القول ، أنه منذ أن دخل اللومبارديون ايطاليا ، الى أن تدخل الفرنجة فى شئونهم ، وما تبع ذلك من انهيار دولتهم ، كانوا

(1) Ibid, p. 18.

قد استقروا فى قطر متشبع بالميراث الروحى والمادى لحضارة البحر المتوسط لحقبة تربو عن قرنين من الزمان ، وهى حضارة يرجع تاريخها الى مـا يزيد على الألف سنة ، لا شك أنهـا لعبت دورا خطيراً فى التأثير عليهم ، فغيرت من أساليب معيشتهم وتقاليدهم الى حد بعيد (١) •

ويأتى فى مقدمة العوامل التى ساعدت على رومنة اللومبارديين أو طبعهم بالطابع الرومانى ، ما تميزوا به من ضآلة فى العدد بالنسبة لسكان ايطاليا ، شأنهم فى ذلك شأن الشعوب الجرمانية التى غزت ايطاليـا من قبل ، إذ لم يزد عدد أى منهـا عن مائة ألف نسمة ، بمـا فيهم الرجـال والنساء والأطفال ، ونتيجة لذلك ، ظل اللومبارديون بمثابة جزيرة طافية وسط محيط واسع من الرومان (٢) • وقد رأينـا من قبل أن اللومبارديين عندما غزوا شمال ايطاليا فى سنة ٥٦٨ ، لم يأتوهـا وحدهم ، بل انضوت تحت جموعهم قبائل جرمانية أخرى ، كان أبرزها قبائل السكسون ، التى لم تلبث أن غادرت ايطاليا عائدة الى بلادها ، الأمر الذى أدى الى اضعاف قوة اللومبارديين العددية (٣) •

ومهمـا يكن من أمر ، فان التأثير الحضارى الرومانى يعكس سماته بوضوح على هيئة اللومبارديين وثيابهم • ففى صفحات كتاب بولس التى سطرها عن تاريخ قومه خلال النصف الأخير من القرن الثامن ، يستفاد أن ثياب أسلافه التى كانوا يرتدونها عند ظهورهم بايطاليا وهم فى حالة بدائية من الحضارة ، قد صارت من عجائب التاريخ ، وأنه لم يعرفهـا إلا من صور مناظر قومه البطولية التى أمرت الملكة ثيوديلندا حوالى سنة سنة ٦٠٠ بتسجليها على جدران قصرها الذى شيدته فى مونزا (٤) • ويعبر

---

(١) موس : المرجع السابق ، ص ٣٣١ — ٣٣٢ .

(2) Lot, Les Invasions., p. 292.

(3) Ibid, pp. 283-284.

(4) Dudden, op. cit., II, pp. 5-6;

— موس : المرجع السابق ، ص ٣٣٢ .

بولس عن هـذا بقوله : « شيدت الملكة ثيودلندا قصرا فى مونزا حوالى سنة ٦٠٠ ، وأمرت أن تقـام بعض الصور التى تمثل حياة اللومبارديين . وتوضح هـذه الصور طريقة حلق شعر رءووسهم ، وهيئة ملابسـهم وعاداتهم ، إذ كانوا يحلقون شعر مؤخرة الرأس عن آخره من الخلف ، فى حين يتركونه طويلاً فى مقدمة الرأس ، ويفرقونه عند الجبهة ، فيتهدل على الخدين فى خصل طويلة ، وكانوا يرتدون ثيابا كتانية فضفاضة مزينة بحواشى منسوجة بألوان مختلفة مثل ثيـاب الأنجلو ــ ساكسون ، أمـا أحذيتهم التى انتعلوها فكانت مفتوحة حتى أطراف أصابع القدمين ، وقد شدت برباط مستعرض ، ثم شرعوا فيمـا بعد فى ارتداء السراويل الضيقة التى جرى تغطيتها بأغطية خشنة من الصوف لمنع تسرب المـاء ، وقد نقلوا هـذه العادة عن الرومان (١) .

ولم يقف تأثير الحضارة الرومانية فى اللومبارديين عند حد هيئتهم وملبسهم ، بل امتد أيضا الى لغتهم الجرمانية . وفى البداية لم تسـتطع الشعوب الجرمانية التى غزت ايطاليا أن تفرض لغاتها الفظة على الولايات الرومانية لقلتها العددية ، ومن ثم وجب عليهـا أن تتعلم اللاتينية لغـة الغالبية ، كى يتسنى لهـا حكم رعاياها الرومان ، والقيام بأية اتصالات من شأنها أن تسهل التعامل وتبـادل التجارة معهم (٢) . وفيمـا يتعلق باللمبارديين كانت قلة ضئيلة منهم على دراية باللغـة اللاتينية عنـد ظهورهم بايطاليا . ولكن بعد أن استتب الأمر لهم ، واستقروا فى هـذا القطر ، تغيرت أحوالهم تغييرا جذريا . إذ أجبرتهم مطالب الحيـاة على تعلم لغـة السكان الرومان بوصفهم أعظم تمدنا وأرقى حضـارة وأكثر عددا . وعلاوة على ذلك ، فقـد ترتب على الاختلاط والمصـاهرة بين الجانبين ذوبان اللغـة اللومباردية تدريجيا ، ثم اختفاؤهـا . ذلك أن

---

(1) Paul the Deacon, op. cit., pp. 166-167; Dudden, op. cit., I, p. 169; Lot, Pfister & Ganshof, op. cit. p. 227.

(2) Webster, op. cit., pp. 378-379.

تداول ألفــاظ ومفردات تلك اللغــة الجرمانية كان أمرا مبتذلا فى نظر الطبقات الرومانية الارستقراطية • ولا يغيب عن الأذهان الدور الذى لعبتــه الكنيسة الكاثوليكية فى هــذا الصدد ، فمــا أحدثته من تأثير قوى فى النشــاط الثقافى ، بما لها من مراكز تعليمية مثل دير بوبيو الواقع فى الأراضى الخاضعة لنفوذ اللومبارديين ، أدى الى انتشــار اللاتينية بينهم ، كمــا أن العقود والمستندات القانونية كانت تصــاغ دوماً فى قالب رومانى وبلغــه لاتينية [1] وممــا يذكر أن اللغــة اللومباردية لم تعش طويلا مثلمــا عاشت اللغة اليونانية فى كالابريا وصقلية حتى زمن متقدم من العصور الوسطى ، كمــا لم يكتب لهــا فترة البقــاء التى عاشتها اللغــة العربية فى صقلية ، التى جاءت فى ركاب الأغالبة من شمال أفريقية فى القرن التاسع [2] • وصفوة القول ، أن اللغــة اللاتينية الدارجة فى ايطاليا Lingua Romana حلت محل اللغــة اللومباردية فى التداول ، ومع ذلك ظلت الأخيرة حية على ألسنة البعض فى أنحاء متفرقة من ايطاليــا حتى القرن العاشر ، ممــا آذن باختفائها تماماً [3] •

وعلى أية حال ، لم يكن بوسع اللومبارديين أن يتجنبوا الاتصــال والاختلاط بجيرانهم ورعاياهم الرومان • ذلك أن العلاقات الانسانية تفوق فى عمقها وأهميتها مفهوم الجوار العدائى أو الخلافات الحضــارية بين الشعبين • وعلى هــذا الأساس ، فرضت الأغلبية الممثلة فى الســكان الأصليين بنيتهــا الجسدية على الأقلية الوافدة الممثلة فى اللومبارديين ، بعد اختلاط لم يدم إلا بضــعة أجيال [4] • وممــا ساعد على ذلك ، أن اللومبارديين قد زحفوا على ايطاليا فى صورة هجرة شاملة دون أن يخلفوا وراءهم أثرا فى العالم الجرمانى ، على عكس الفرنجة الذين رغم تأثرهم

---

(١) موس : المرجع السابق ، ص ٣٣٣ •

(2) Lot, op. cit., p. 291.

(3) Lot, op. cit., p. 283.

(4) Lot, op. cit., p. 292.

بالحضارة الرومانية ، لم يقطعوا صلتهم بالجرمان فيمـا وراء الراين ، وبالتالى استمر التدفق الجرمانى على مملكتهم ، ممـا حال دون انصهارهم تماما فى بوتقـة الرومان • أضف الى ذلك ، أنـه من خلال الزاوج بين اللومبارديين والرومان ، نشـأ جيل جديد على مر السنين جعلنا لا نفرق بين الشعبين على الاطلاق (١) • ويتمثل ذلك بوضوح فى شمال ايطاليا ، إذ من المعروف أن سكانه يختلفون فى بنيتهم الجسدية عن أهل الجنوب ، الذين تغلب عليهم سمات سكان البحر المتوسط (٢) • وجدير بالذكر أن اللومبارديين والبيزنطيين فى ايطاليـا كـانوا غرباء عنهـا ، ومـع هـذا عامل البيزنطيون الرومان معاملة من هم دونهم ، على حين تزاوج اللومبارديون بحرية مع رعاياهم الرومان ، وفى هـذا الصدد لم يعترف الملكان المشرعان روثارى وليوتبراند بأية امتيازات بغيضة لجنس على آخر (٣) • وليس أدل على ذلك ، من أن القانون اللومباردى رغم حرصه على التمسك بتقاليد اللومبارديين ومؤسساتهم ، قد نص على أن الرومانية التى تتزوج من رجل لومباردى تخضع للقانون اللومباردى ، فى الوقت الذى تصير المرأة اللومباردية بزواجها من رومانى رومانية (٤) •

على أنه اذا كان اللومبارديون قد تأثروا بالحضارة الرومانية تأثيرا فعالا برز واضحا فى اعتناقهم الكاثوليكية ، واتخاذهم اللسـان اللاتينى الدارج لغـة ، وامتصاص دمائهم بعلائق التزواج ، حتى يمكن القول أن الحضارة الرومانية قد احتوت اللومبارديين ، وألقت بهم فى خضمها الواسع رغم انهـا كانت آخذة فى الذبول ، فالواقع أن التأثير الحضارى اللومباردى لم يفقد طريقه تماما الى الرومان •

---

(1) Lot, Les Invasions Germaniques, p. 295.

(2) Cantor, Medieval Hist., p. 146;

ـــ كانتور : تاريخ العصور الوسطى ، جـ ١ ص ٢٧٤ .

(٣) ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ، ص ٤٠ .

(4) Lot, The End of the Ancient World, pp. 294-295.

ذلك أن اللومبارديين بعد طول استقرار فى ايطاليا اتسعت خلاله دائرة اختلاطهم بالرومان ، قد خلفوا وراءهم آثارهم فى أماكن متفرقة من الولايات الرومانية القديمة • وتتمثل تلك الآثار فى الصفات الجسدية ، فى العيون الزرقاء والشعر الأشقر ، فضلا عن القوانين والعادات (١) ، وفى قليل من الكلمات اللومباردية التى دخلت الايطالية • ولازال التأثير الحضارى اللومباردى واضحا فى أسماء الأماكن والأعلام • إذ لما فتح اللومبارديون ايطاليا كانوا منقسمين الى عشائر صغيرة Farae ، على رأس كل منها دوق قام بوضع يده على احدى المدن الرومانية والمناطق التابعة لها ، غير أن هذا التقسيم لم يبق على حاله ، وقبل أن يندثر ترك أثره فى أسماء المواقع الجغرافية فى شمال ايطاليا ، ومن هنا حمل سهل البو إسم لومبارديا حتى وقتنا الحاضر • والى جانب ذلك ، بقيت أسماء لومباردية أخرى عديدة فى أنحاء مختلفة من ايطاليا ، بل فى مناطق لم تخضع مطلقا لنفوذهم السياسى • أما بالنسبة لأسماء الأعلام اللومباردية ، فان بصماتها تبدو واضحة فى ايطاليا باستثناء روما ورافنا والبندقية ، إذ تبناها الرومان ، مع أنهم لم يتبنوا أسماء الأعلام القوطية من قبل ، ومن الأسماء اللومباردية التى اقتبسها الرومان على سبيل المثال :

Azzo, Gunzo, Aribald, Garibald, Ubald, Hildprand. (٢)

الرعايا الرومان :

وعند الحديث عن وضع الرومان تحت السيطرة اللومباردية ، نلاحظ أن هذا الموضوع قد عالجه الباحثون باستفاضة ، وفى النهاية توصلوا الى رأيين متباعدين تماما • وينحصر الرأى الأول فى أن الرومان قد انحدروا الى مرتبة التبعية المطلقة ، فى حين يذهب الرأى الآخر الى

---

(1) Dudden, op. cit., I, p. 80.

(2) Lot, op. cit., p. 291.

أن الرومان قد اختفظوا بحريتهم وقوانينهم ومؤسساتهم وبعض ممتلكاتهم فى أقل الأحوال ،شأنهم فى ذلك شأن الرومان فى الغال وأسبانيا (١) .

ويشير المؤرخ ددن Dudden الى أنه بالإمكان أن نخرج بحل وسط من هذين الرأيين المتباعدين ، على أساس أن المعلومات التاريخية التى تجعلنا نرجح أحدهما غير كافية . إذ أن المصدر الرئيسى لتاريخ اللومبارديين الذى صنفه بولس الشماس بعد قرنين — على الأقل — من الغزو ، قد اعتمد على قلة قليلة من المعلومات التاريخية ، جعلت وصفه لأحداث قومه الهامة موجزا وناقصا ، علاوة على أنه بالغ فى التركيز على أحداثهم المثيرة ، دون أن يهتم بالقاء الضوء على نظمهم ومؤسساتهم وقوانينهم . هذا فى الوقت الذى لا نستطيع بسهولة أن نسد هذا النقص فى تاريخ بولس من مصادر أخرى . ذلك أن كتابات البابا جريجورى العظيم لا تعطينا إلا النذر اليسير حول هذا الموضوع ، ويأتى دونها فى الأهمية ما أوردته الحوليات الديرية عن أحداث القرن السابع ، أما سجلات الوثائق الشرعية التى تلقى مزيدا من الضوء على أحوال ايطاليا الاجتماعية فى الأزمنة التالية ، اذا جاز لنا أن نطبقها على الفترة التى نحن بصددها ، فالواقع أن قيمتها تثير الشك . والى جانب هذا كله ، فانه لا يمكننا أن نكشف حقائق هذا الموضوع اعتمادا على نظيره فى الممالك الجرمانية الأخرى . إذ أن ظروف الغزو اللومباردى لإيطاليا اختلفت عن مثيلتها فى الغال وأسبانيا وأفريقية : ففى الغال وأسبانيا يمكن القول أن مقاومة الرومان للغزاة قد قضى عليها سريعا ، وفى أفريقية ظلت الهوة متسعة بين الرومان والوندال ،وزادتها الخلافات المذهبية

(1) Dudden, op. cit., I, p. 170.

مرارة ، الأمر الذى لا نجد له نظيرا فى ايطاليا اللومباردية ، أما فى ايطاليا ، فلم يحدث أن وضع اللومبارديون أيديهم على جميع أنحائها ، وفى نفس الوقت ظل خطرهم يهدد جيرانهم الرومان فى كل حين (١) .

وهنا نكرر القول أن اللومبارديين إبان انشغالهم بغزو ايطاليا ، قد عاملوا السكان الرومان بقسوة ، إذ لم يكن من شاغل لبرابرة على شاكلتهم وقتذاك إلا الرغبة فى الامتلاك ، وفى سبيل ذلك سفكوا دماء الملاك الأبرياء من الرومان ، ولا سيما أصحاب الثروات والممتلكات الضخمة ، ويكفى أن عهد كليف القصير (٥٧٢ — ٥٧٣) ، شهد مصرع الكثير من نبلاء الرومان ، وابعاد بعضهم عن ايطاليا ، ولذلك ليس من المبالغة القول أن أعمال العنف التى تعرض لها الرومان ، بلغت حدا جعلتهم يرون أن نهاية العالم صارت وشيكة الوقوع . كما أنه خلال فترة الشغور فى الملكية اللومباردية ، لم يكن لايطاليا اللومباردية سيدا واحدا ، بل ستة وثلاثون سيدا ، ونعنى بهم الدوقات ، الذين أخذوا يفرضون الضرائب حسب هواهم ، وأمعنوا القتل والتشتيت فى كبار نبلاء الرومان ، وما تبع ذلك من الاستيلاء على أراضيهم ، ونهبوا الكنائس والأديرة وأحرقوها ، وقتلوا الكثير من القساوسة (٢) . على أنه بانتهاء فترة الشغور ، وما حدث من عودة الملكية الى اللومبارديين ، شهد الرومان جوا من الاستقرار خفف من حدة المتاعب التى عانوها ، الأمر الذى أثار دهشة بولس الشماس ، إذ اعتبر المعاملة الطيبة التى أسبغها قومه على الرومان من الحقائق المذهلة فى تاريخهم : فلم يعد ثمة عنف ولاخيانة، ولا أحد يرهقهم بابتزازات جائرة ، وتوقف الجار عن سلب جاره ، وخلت المملكة من قطاع الطرق ، وراح كل فرد يؤدى عمله بأمان وطمأنينة وفق رغبته (٣) .

---

(1) Dudden, op. cit., I, pp. 170-171.

(2) Villari, The Barbarian Invasions, II, pp. 285-286.

(3) Paul the Deacon, op. cit., pp. 114-115; Dudden, op. cit., I, pp. 171.

وجدير بالذكر ، أن وضع الأراضى الزراعية الخاصـــة بالرومان فى ايطاليا اللومباردية ، قد اختلف عما كان عليه أيام القوط الشرقيين • فقد صادر القوط ثلث الأراضى الزراعية الرومانية ، على حين تركوا الثلثين تحت تصرف ملاكها الأصليين ، حيث صـــار بوسعهم الابقاء عليهـــا أو بيعها او منحها فى صورة هبـــة وفق مشيئتهم وبمعنى آخر ، طالمـــا سلم الملاك الرومان ثلث أراضيهم لضيوفهم البرابرة guests ، فهم أحرار ومستقلون ، باستطاعتهم زرع بقية أرضهم ، أو الهجرة الى المدن ، أو الالتحاق بالأديرة ، دون أى اعتراض من قبل القوط الشرقيين ، ولو حدث أن ملاك الأراضى فضلوا البقاء فى أراضيهم ، فلا شك أن القرابة المكانية من شأنهـــا أن توجد جوا مفعمـــا بالود بينهم وبين المستقرين الجدد (الضـــيوف) لصالحهما معـــا ، وبناء على ذلك لم يترتب على نظام القوط الضريبى وقوع أعباء جسيمة على المالك الرومانى(١) • ولكن هذا المالك فى ايطاليا اللومباردية لم يسلم ثلث أرضه لسيده اللومباردى ، بل تعهـــد أن يسلمه ثلث ما تغله الأرض من محصول ، فى حين يحتفظ لنفسه بالثلثين المتبقيين لمواجهـــة احتياجاته (٢) ، وفى هـــذه الحالة لم يعد المالك الرومانى حرا ، وبمعنى آخر لم يعد باستطاعته أن يترك أرضه أو يتصرف فيهـــا بالبيع أنى شاء • هـــذا فى الوقت الذى لم يكن بوسعه أن يعيش عاطلا فى أرضه ، إذ كان مضطرا للعمل ليلا ونهـــارا ، كى يفى بسداد الضريبة العينية المستحقة عليه فى موعدها لسيده اللومباردى • والخلاصـــة ، أن المالك الرومانى صار قنا مقيدا بالأرض تحت السيطرة اللومباردية ، والميزة الوحيدة التى حصل عليهـــا ، تتمثل فى أن سيده عجزه عن التلاعب فى رفع قيمة هـــذه الضريبة حسب هواه (٣) •

وهناك حقيقة هامة يجدر الاشارة اليهـــا فى هـــذا الموضوع ، وهى

---

(1) Dudden, op. cit., I, pp. 172-173.

(2) Paul the Deacon, pp. 90-91.

(3) Dudden, op. cit., I, p. 173.

أن اللومبارديين كانوا أول الشعوب البربرية التى صاغت قانوناً خاصـا بهـا كما سنوضح ذلك بعد قليل ، وقد فرضوه على أرجاء مملكتهم دون النظر الى بيزنطة بوصفها صاحبة الحق الشرعى بايطاليا • وفى هـذا القانون لم يمنح اللومبارديون رعاياهم الرومان أى امتيازات مثلمـا فعل ثيودريك ملك القوط الشرقيين من قبل ، كمـا لم يعترفوا بالقانون الرومانى أو بأية سلطة أخرى فى ايطاليا ، ممـا أدى الى انتشار فكرة خاطئة مفادها أن الرومان الواقعين تحت وطـأة اللومبارديين قد أنزلوا ، ان لم يكن للعبودية المحضة ، الى حالة شبيهة بهـا على الأقل semi - servitud (١) • وفى هـذا الصدد يشـير المؤرخ فيلارى الى أن بعض الباحثين قد انتهى رأيهم الى أن الرومان قد انحدروا الى مرتبة العبودية Slavery ، بحجة أن القانون اللومباردى قد فرض دية guidrigild على من يقتل لومبارديا ، فى حين لم يحدد أى عقوبة على من يقتل رومانيا ، الأمر الذى أعطـاهم انطباعا عن اللومبارديين من أنهم لم يقدروا حياة الرومان المقهورين ، بوصفهم عبيدا • ويستطرد فيلارى بقوله أنه من الصعب تماما أن نأخذ بهـذا الاستنتاج الخطير ، لأن القانون اللومباردى لم يتنـاول عقوبة قاتل الرومانى ، إذ ربمـا يكون قد أغفلها من منطلق مـا حدده العرف المألوف ، ومن ثم كانت العقوبة واحدة فى أى من الحالتين (٢) •

وكيفما كان الأمر ، فانه من المتعذر إدراك كيف لقى الرأى القائل بعبودية الرومان فى ايطاليا اللومباردية قبولا واسعا لدى بعض الباحثين ، رغم الصعوبات الشديدة التى تحـول دون تصـديقه • إذ لو حدث أن اللومبارديين قد سلبوا الرومان حريتهم الشخصية ، فكيف لا نجد تسجيلا لمثل هذا الحدث الهام فى الحوليات والقوانين والوثائق العامة المعاصرة • والى جانب ذلك ، من المعروف أن اللومبارديين والبيزنطيين قد تبـادلا

---

(1) Villari, The Barbarian Invasions, II, p. 296.

(2) Ibid.

كثيرا من المدن والأقاليم خلال الحروب المستمرة التى دارت بينهما ، إمـا بالاستيلاء عليهـا ، أو باعادة الاستيلاء عليهـا ، ممـا يعنى أن سكان تلك المدن والأقاليم من اللومبارديين والبيزنطيين ، قد انتقلوا أحيانا من الحرية الى العبودية ، وأخرى من العبودية الى الحرية ، ورضوا بهـذا الوضع دون أن يخرجوا عليه أو يأتوا على ذكره • ولمـا كانت أراضى بعض كبار الملاك الرومان كانت موزعة فى الأقاليم اللومباردية والبيزنطية ، فهل نصدق أن هؤلاء الملاك كانوا عبيدا فى أجزاء من أرضهم ، وأحرارا فى أجزاء أخرى ؟ ! (١) • ومما ينفى عبودية الرومان فى ايطاليا اللومباردية ما حدث خلال بابوية جريجورى العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) ، عندما دخل بعض سكان المدن الرومانية فى مفاوضات مع دوقات اللومبارديين ، رغبة فى أن يصـيروا من جملة رعاياهم ، وأهـم من ذلك أن كثيرا من أحرار الرومان والجنود ورجال الدين ، قد لاذوا بالفرار الى الأقاليم اللومباردية ، وثمـة رسالة للبابا جريجورى يشكو فيهـا من أن ملاك الأراضى الرومان بجزيرة كورسيكا قد لجأوا الى اللومبارديين ، تخلصـا من عبء الضرائب البيزنطية المرهقة (٢) • إذا والحالة هـذه ، ليس سهلا أن نصـدق أن هؤلاء الملاك الذين كانوا ينعمون بالحرية فى الأراضى البيزنطيـة ، قد فضلوا عليهـا حياة الذل والعبودية تحت السيادة اللومباردية • أمـا بالنسبة للرأى الذى دفع به بعض الباحثين من أن صناع المدن City artisans الذين لم يمتلكوا ذرة من التربة الزراعية قد احتفظوا بحريتهم ، بينمـا كان كبار الملاك الرومان يرزحون تحت العبودية ، فالواقع أن هذا الرأى من الصعب الركون اليه ، إذ يعنى ذلك أن الطبقات العاملة قد تميزت على طبقة النبلاء الرومان ، وهو أمر بعيد الاحتمال (٣) •

(1) Ibid, p. 297.

(2) Dudden, op. cit., I, p. 174.

(3) Villari, op. cit., II, p. 297.

وخلاصة القول ، أن الرأى القائل بعبودية الرومان تحت السيطرة اللومباردية ، قد دحضته الحقائق المعارضة له • والحق أن معظم الرومان المغلوبين على أمرهم قد عاشوا حيـاة قاسية فى ايطاليا اللومباردية بيد أنه ينبغى أن نتوخى الحذر ، حتى لا نصور بؤسهم فى ألوان مثيرة (١) •

القانون اللومباردى :

المعروف أن المجتمع اللومباردى المبكر ، مثل بقية المجتمعات الجرمانية الأخرى ، قام أساسا على النظام القبلى • وقد جرت العـادة أن يتم تصريف شئون العدالة فى تلك المجتمعات أمام محاكم شعبية للبت فيهـا • فأمام مجلس القبيلة العـام ، كان لأى مواطن جرمانى الحق فى أن يرفع دعوى على خصمه ، ومن هنا كان على الخصم — أو المتهم — أن يمثل أمام المحكمة ، فاذا لم يأت تعلن ادانته ، ويجرى الاقتصاص منه ، أمـا اذا ظهر أمام المحكمة ، فعليه إثبـات براءته باحضار عدد من الرجـال يقسمون على براءته من أى جرم لا يتوفر دليل قاطع على ارتكابه ، فاذا عجز عن ذلك ، وجب عليه أن يدفع للمدعى مبلغا من المال (دية) ، يختلف تبعـا لجسامة الجريمة التى ارتكبها (٢) •

ومن الطبيعى أن الجرمان عندما غزوا الامبراطورية الرومانية وأقاموا ممالكهم المستقرة ، كانوا قد نقلوا معهم عاداتهم وتقاليدهم العرفية ، التى تمسكوا بهـا فى حين مارس رعاياهم الرومان شـئون حياتهم وفقـا للقانون الرومانى • غير أن الجرمـان بعد أن احتكوا بالرومان وتأثروا بحضارتهم ، بدأوا يضعون قوانين خاصة بهم ، اعتمدت فى جوهرها على عاداتهم العرفية ، وكثير من هـذه القوانين التى أطلق عليهـا « قوانين البرابرة » ، وعاشت حتى وقتنا الحاضر ، ساهمت فى القـاء الضـوء على جوانب عديدة من حياة الجرمان ، وعلى سـبيل المثـال : العداوات

(1) Dudden, op. cit., I, p. 174.

(٢) محمود الحويرى : رؤية فى سقوط الامبراطورية الرومانية ، ص ٨٨ .

الدامية ، والنهايات المأساوية الأليمة ، والخصومات القضائية (١) ، فضلا عن النظم الاجتماعية والاقتصادية • وينطبق هذا بوجه خاص على اللومبارديين ، الذين أنشأوا محاكم دائمة لتصريف شئون العدالة ، وأسندوا رئاستها الى موظف ملكى عالى المنصب أطلق عليه iudex ، كان له مساعدون ، ونهض بمهمة الاستماع الى الدعاوى القضائية والفصل فيها • والى جانب هذا ، كان من واجبات الملك اللومباردى الفصل فى المنازعات ، وتبعا لذلك كانت أحكامه ملزمة واجبة النفاذ ، لا تقبل المعارضة أو الاستئناف العالى ، لأن أذهان البرابرة آنذاك لم تدرك طبيعة المفهوم الأخير (٢) •

وكانت السلطة التشريعية فى أيدى الملوك اللومبارديين ، وظلوا ينهضون بأمرها ، الى أن اعتلى روثارى العرش ، فأحدث بها تغييرا جذريا ، جعل منه علامة بارزة فى تاريخ المملكة اللومباردية • إذ جمع كل شرائع قومه المبنية على العرف ، وصاغها باللغة اللاتينية فى مرسومه الشهير Rothari Edict فى بافيا (٣) ، حيث أذاعه على قومه فى ٢٢ نوفمبر سنة ٦٠٣ • ويتميز هذا القانون بروحه الجرمانية المحضة ، التى جاءت دليلا قاطعا على تمسك اللومبارديين بنظمهم ، وإخلاصهم فى الحفاظ على تقاليدهم التى يرجع تاريخها الى الفترة التى عاشوها فى باردينجاو ، الأمر الذى يعتبر أعظم القوانين البربرية روعة وأصالة (٤) •

ومما يزيد فى أهمية قانون روثارى ، أنه لأول مرة تجرأ أحد البرابرة على وضع قانون فى ايطاليا ، دون ما اكتراث لبيزنطة باعتبارها الوريثة الشرعية الوحيدة للامبراطورية الرومانية فى هذا القطر من ناحية ،

(1) Webster, op. cit., p. 379.

(2) Lot, Pfister & Ganshof, op. cit., p. 228.

(3) Paul the Deacon, op. cit., pp. 195-196.

(4) Lot, The End of the Ancient World, p. 292.

ودون الاعتماد على ما جاء فى القانون الرومانى كما فعلت بقية الشعوب الجرمانية من ناحية أخرى • وفى هذا الصدد أوضح روثارى بصراحة فى مقدمة قانونه ، أن الدافع الى صياغته هو جمع كل التقاليد المتعلقة بشعبه وتسجيلها ، وفى ذلك يقول : « لقد قمت بهذا العمل طبقا لمشورة وموافقة السادة الأوائل First Lords (Primates) ، وقضاتنا ، وجيشنا المخلص » (١) أضف الى ذلك ، أن الشعوب الجرمانية قد صاغت قوانينها على أساس القانون الرومانى بعد أن مضى زمن وجيز على تأسيس ممالكها فى أراضى الامبراطورية ، فى حين أن اللومبارديين صاغوا قانونهم بعد فترة طويلة من قيام مملكتهم • ومع ذلك ، وبدون قصد منهم ، تأثر اللومبارديون بالقانون الرومانى بطريقة غير مباشرة ، بعبارة أخرى أفادوا منه فى ناحية الشكل دون المضمون ، ويبدو ذلك على وجه خاص فى تدوينه باللغة اللاتينية ، وفى استخدام بعض العبارات والمصطلحات الواردة فى مجموعة قوانين جستنيان ، وفى التصنيف الذى رتبت بمقتضاه مواد القانون الرومانى ، علاوة على أن ثمة فقرات معينة لا ترجع الى أصل جرمانى (٢) •

وقد تألف مرسوم أوثارى من ٣٨٨ فصلا باستثناء الفصول الاثنتى عشرة الأخيرة ، التى أضيفت اليه فى وقت لاحق • وقد اهتم هذا المرسوم فى المقام الأول بمعالجة الاعتداءات الواقعة على الدولة وكبار الشخصيات ، ثم المسائل المتعلقة بالوراثة والعشيرة وتقسيم الملكية ، هذا فى الوقت الذى ندرت الاشارة الى الحقوق السياسية (٣) •

وثمة خلاف عميق بين الباحثين حول ما اذا كان هذا المرسوم قد فرض على الرومان أيضا ، أم إنه اقتصر على اللومبارديين وخدهم •

---

(1) Villari, op. cit., II, pp. 339-340.

(2) Villari, op. cit., II, p. 340.

(3) Ibid.

وفى العادة تتميز القوانين الجرمانية بشخصيتها العنصرية ، ولكن القانون اللومباردى زيادة على ذلك ، تميز بشخصيته الاقليمية ، ويعنى ذلك أن اللومبارديين طبقوه أيضا على القبائل الجرمانية التى صحبتهم الى ايطاليا ، ومن هذا المنطلق يعزو بولس الشماس سبب انسحاب قبائل السكسون من ايطاليا وعودتها الى بلادها الى الرغبة فى العيش فى ظل قوانينها ومؤسساتها (١) • ومما يذكر أن روثارى أورد فى مقدمة مرسومه أو قانونيه بعض العبارات التى تحملنا على الاعتقاد بأن هذا القانون كان ساريا على الرومان ايضا ، من ذلك أنه صاغه دفاعا عن العدالة ورفعة شأنها ، ومنعا لاستبداد الغنى بالفقير ، وحبا لرعاياه دون تفرقة أو تمييز بينهم • على أن وجود بعض الفقرات فى هذا المرسوم التى تلمح الى وجود قوانين أخرى مغايرة للقانون اللومباردى ، لا شك أنها تجعلنا ننظر الى هذا الموضوع من زاوية أخرى • إذ لو حدث أن اللومبارديين قد ألغوا استخدام القانون الرومانى فى دولتهم ، فان اغفال تسجيل مثل هذا الحدث الهام فى الحوليات والوثائق المعاصرة يعتبر ضربا مستحيلا ، فى الوقت الذى يبعد عن تصورنا أن اللومبارديين مهما توفرت الرغبة لديهم ، كان بوسعهم القضاء على القانون الرومانى الممتدة جذوره العميقة فى تربة ايطاليا منذ أمد طويل (٢) • والأهم من ذلك أن القانون الرومانى جرى سريانه فيما بعد فى مرحلة متأخرة ، مما يجعلنا نتساءل كيف اختفى هذا القانون ، ثم ظهر مرة أخرى دون الاشارة الى ذلك فى المؤلفات المعاصرة • والواقع أننا نجد الاجابة واضحة فى قوانين الملك ليوتبراند ، إذ نستدل من العبارة القائلة : « لو حدث أن رجلا لومبارديا لديه أطفال صار قسا ، فهؤلاء الأطفال يظلون

(1) Paul the Deacon, p. 98; Villari, op. cit., II, p. 341.

(2) Villari, op. cit., II, p. 341.

تحت طائلة القانون الذى كان يتبعه أبوهم قبل أن يصير قسا » ، على أن هناك قانوناً آخر ، وهو القانون الرومانى الذى لم يكن موجودا غيره بطبيعة الحال ، وفوق ذلك ، فان اللومباردى الذى تحول الى قس يخضع لهذا القانون • ومن هذا كله ، يرى المؤرخ فيللارى أن الاستنتاج المقبول فى هذا الموضوع ، يتمثل فى أنه على الرغم من أن القوانين الرومانية لم يكن معترفا بها من الناحية الرسمية ، إلا أنها فى الحقيقة ظلت باقية — من الناحية العملية — بقوة العرف المألوف (١) •

وثمة رأى للمؤرخ لوت انتهى فيه الى أن روثارى قد صاغ قانونه من أجل قومه فحسب ، ولم يطبق على الرومان الذين ظلوا خاضعين لقوانينهم السائدة قبل عصر جستنيان ، إذ أن مجموعة قوانين جستنيان لم تكن قد رسخت بعد فى ايطاليا الشمالية الواقعة تحت السيادة اللومباردية (٢) • وهنا نلاحظ أنه عندما استعاد جستنيان ايطاليا من القوط الشرقيين صار قانونه سائدا فيها حتى فتحها اللومبارديون ، فضعف نفوذه واقتصر فى ايطاليا على بعض المدن مثل روما ورافنا ، وظل القانون الرومانى المطبق فى الغرب الأوربى حتى أوائل القرن الثانى عشر هو القانون الرومانى المدون فى مجموعة ثيودسيوس العظيم (٣٧٨ — ٣٩٥) وألاريك الثانى (٤٨٣ — ٥٠٦) ملك القوط الغربيين فى أسبانيا ، لا القانون الرومانى كما جمعه جستنيان (٣) • على أنه اذا كان الرومان قد ظلوا خاضعين لقوانينهم ، فينبغى ألا يفوتنا أن قضايا النزاع بينهم وبين اللومبارديين كانت تحال الى محاكم لومباردية ، ليجرى الفصل فيها وفقا للقانون اللومباردى ، مما يدل على أن اللومبارديين قد

---

(1) Ibid, pp. 341-342.

(2) Lot, Les Invasions., p. 282.

(٣) محمد عبد المنعم بدر ، عبد المنعم البدراوى : مبادىء القانون الرومانى ، تاريخه ونظمه ، ص ١٥٩ ، عمر ممدوح مصطفى : القانون الرومانى ، جـ ١ ص ١١٦ •

فرضوا على رعاياهم الرومان الثوب اللومباردى ، ومن ثم لم يعد الرومان رومانا (١) • وكيفما كان الأمر ، فقد بقى القانون الرومانى فى موطنه ايطاليا مجرد قانون عرفى توارثه أجيال الايطاليين ، واختلط بالقواعد العرفية التى جاء بها القانون اللومباردى (٢) •

ومما يذكر أن قوانين اللومبارديين لم تبق سائرة المفعول طيلة الفترة التى عاشتها مملكتهم فحسب ، بل بقيت أمدا طويلا بعد سقوطها على أيدى شارلمان فى سنة ٧٧٤، ويرجع السبب فى ذلك الى أن العاهل الفرنجى لم يكن فى نيته أول الأمر القضاء على مؤسسات اللومبارديين ونظمهم الحضارية • وقد استمر الوضع على هذا النحو الى أن أخمد شارلمان ثورة دوق فريولى ، ومما تبع ذلك من اتخاذه سياسة أكثر تشددا مع اللومبارديين ، جعلته يلغى نظمهم وقوانينهم ، ويرغمهم على اتباع نظيرتها الفرنجية • ومع ذلك ، ظلت الدوقيات اللومباردية النائية فى الجنوب على حالها ، وبعبارة أخرى أبقت على نظمها ، ومارست شئون العدالة طبقا للقانون اللومباردى حتى القرن الحادى عشر • ولعل ما هو أهم من ذلك ، أن النظم التى أدخلها الفرنجة الى ايطاليا قد تغيرت لتوائم النظم اللومباردية السائدة ، وفى هذا الصدد « لم تبخل » ايطاليا على مملكة الفرنجة فى حقل التشريع ، فقد أصبحت الصياغة المألوفة لمراسيم اللومبارديين نموذجا رائعا حذا حذوه ملوك الفرنجة (٣) •

ولا شك أن بقاء قوانين اللومبارديين طويلا بعد سقوط مملكتهم أمر يثير الانتباه ، خاصة اذا علمنا أن احدى مدارس القانون فى بافيا قد جمعت « كتاب القوانين اللومباردية » Liber legis Langobardorum فى

---

(1) Lot, op. cit., p. 282.

(2) Cantor, Medieval Hist., I, p. 145.

والترجمة العربية ، كانتور : تاريخ العصور الوسطى ، حـ ١ ص ٢٧٤ .

(3) Lot, op. cit., p. 292.

القرن الحادى عشر بين سنتى ١٠١٩ و ١٠٣١ ، فضـــلاعنأنه فى نهاية هـــذا القرن ثم وضع مجموعـــة القوانين اللومباردية فى تبويب منهجى مرتب ، وظل معمولا بهـــا الى أن ظهرت حركة علميـــة فى أوائل القرن التالى ، انبعثت على إثرهـــا ببولونيا قلعة القانونالرومانى على أســـاس مجموعة قوانين جستنيان ، ممـــا أدى الى اختفاء القوانين « الجرمانية » فى عالم النســـيان (١) •

وفى ختام حديثنا عن القوانين اللومباردية ، تجدر الاشـــارة الى أنه مهمـــا كان الانتقاد الموجه اليهـــا ، من أنهـــا تعبير حى عن الروح الانفصالية ، فلا جدال أن ذلك لا يقلل من أهميتها • وأكثر مـــا يظهر ذلك بالنسبة للمؤرخ ، فقـــد مكنته من دراسة أحوال المجتمع اللومباردى عن كثب ، ومقارنته ببقية المجتمعات الجرمانية الأخرى ، وعلى سبيل المثال الاسكندنافية والفرنجية والأنجلو ساكسونية ، التى سجلت عاداتهـــا وتقاليدهـــا فى الفترة التى نحن بصددها تقريبا (٢) •

المجتمع اللومباردى وطبقاته :

سبق أن أشرنا الى أن المجتمع اللومباردى منـــذ مراحله الأولى حتى استقراره المبكر بايطاليا كان مجتمعا قبليا فى جوهره ، تأسست وحدتـــه الاجتماعية على رابطة العشيرة fara ، وهى مجموعة عائلات تجمع بينهـــا أواصر القربى والدم •ومن المعروف عن العشيرة أنهـــا عاشت دومـــا فى حالة تأهب للحرب ، جعلتها تقيم داخل حصـــون ،أخذت تشن منهـــا الاغارات الناهبة على جيرانها ، بغية الحصول على الغنائم وتقسيمها بين أفرادها • وكان من الطبيعى ألا يستمر وضع العشائر اللومباردية

(1) Ibid, p. 290.

(2) Wallace - Hadrill, Italy and the Lombards, p. 63.

على هــذا النحو بعد أن زالت صدمة الغزو اللومباردى ، إذ امتدت إليها يد التغيير على مر السنين ، ولا سيما بعد اتصالها بالحضارة الرومانية (١) •

وقد كشفت الحفريات التى أجريت فى مقابر اللومبارديين المبكرة فى ايطاليا ، عن أنهم كانوا يستخدمون أدوات ذات طابع جرمانى محض ، تطابق تماما الأدوات التى استعملوها فى بانونيا ، وتلك التى استخدمها غيرهم من الشعوب الجرمانية فى مرحلتها الوثنية • ووجه الأهمية هنــا أن تلك الأدوات تلقى مزيدا من الضــوء على أولئك البرابرة الأفظاظ ، الذين وجدوا أنفسهم فجــأة فى قلب ايطاليا وسط فيض من سكانهــا الأصليين أصحاب الحضارة الرومانية العريقة ، التى لم يكن من سبيل الى منافستها وقتئذ ، ممــا حق القول عليهم أن عقولهم الفظة لم تبرح بعد غابات وأحراش جرمانيا (٢) •

ولعل أبرز صورة توضح لنــا أحوال اللومبارديين الاجتماعية فى هــذا الدور المبكر ، أن الأسرة كانت مسئولة تماما عن أى جرم يرتكبه أحد أعضائها أو أى جرم يقع عليه على حد سواء • من ذلك أنه وجب على عائلة القتيل الأخــذ بثأره ، وهو مــا يعرف بالثأر العائلى family vendetta • ومن المعروف أن هــذه العادة ـــ أو الظاهرة ـــ كانت من العادات المتأصلة فى نفوس اللومبارديين منــذ فجر تاريخهم ، وظلت باقية الى سنوات طويلة مضت على ظهورهم بايطاليا ، وقد حاول الملك روثارى فى قانونه ـــ من منطلق دوافع أخلاقية انسانية ـــ أن يضــع حدا لسطوتها ، لكونهــا مضيعة للحياة والممتلكات ، وخطر على مجتمع قومه الصغير المحشور فى زحمة الأعداء ، ولهــذا فرض دية (وهى تعويض مالى) تمنح لأهــل القتيل إرضاء لكرامتهم وردا لشرفهم • وممــا يذكر أن روثارى وضع قائمة طويلة بالديات تتدرج فى قيمتــها طبقا لجسامة الجرم الواقع ،

---

(1) Ibid, p. 57.

(2) Ibid, p. 58.

والحالة الاجتماعية للمعتدى عليه ٠ وفى هـذا الصدد ، نلاحظ أنه فرض دية أعلى من التى وضعها أسلافه على الأموال والأعمال الجارحة الموجهة لأحرار قومه ، لأن دفع دية مقبولة من شأنهـا القضـاء على المنازعات والعداوة faida فيمـا بينهم ، ونشر روح المودة داخل قلوبهم (١) ٠ وثمـة قصة يرويهـا بولس الشماس تدل على أن عادة الأخذ بالثـأر كانت عملا غير أخلاقى لا ضرورة له ٠ من ذلك أن قزمـا صغيراً أراد الانتقام لمصرع سيده ومليكه جودبرت من قاتله ، وعندما علم أن القاتل سيأتى للصلاة فى كنيسة القديس يوحنا فى عيد الفصح ، اختفى فى بيت المعمودية ، وانتظر الى أن مر القاتل بجواره ، فوثب عليه وطعنه طعنة مميتـة ، على أن القزم لقى حتفه فى الحـال بعد أن حصدته سيوف مرافقى غريم الملك ، وقد علق بولس على هـذه الرواية الأسطورية بقوله : « على الرغم من أن القزم قد مات صريعا ، فلا شك أنه استخدم الطريقة الخاطئة للثـأر لسيده جودبرت » (٢) ٠

كذلك تناول مرسوم روثارى الاهانات التى توجه لشخصه ، أى القذف فى ذاته الملكية ، والقتل عن غير عمـد ، وقطع الطريق ، والايذاء الجسدى لغير الحر ، فضـلا عن المواريث ، وضرورة الاستعانة بعـدة شهود عند تقديم هبات ، ومعاملة المرأة ، وتحرير الأرقاء ، ووجه الأهمية هنـا أن تلك التشريعات خير دليل على أن المجتمع اللومباردى نتيجـة احتكاكه بالحضارة الرومانية ، قد تجاوز مرحلة القبلية الى حد بعيد ، ومع ذلك كان المظهر خادعا الى حد مـا وقتئذ ، إذ لم تبرح الخشونة قابعـة تحت السطح (٣) ٠

وكيفما كان الأمر ، فقد بدت حياة الفرد اللومباردى على مر السنين

---

(1) Ibid, p. 64.
(2) Paul the Deacon, pp. 207-208.
(3) Wallace - Hadrill, op. cit., pp. 64-65.

أكثر أهمية ، وتطلبت حمـاية الدولة لهـا ، فى حين أخذت العائلة كأصغر وحدة اجتماعية تتدنى فى الأهمية • ويرجع الفضل فى ذلك ، الى مـا بذله ملوك اللومبارديين من جهـد دائب لتقييد عادة الأخذ بالثـأر والحد منهـا ، مما أدى فى النهاية الى اضعاف شـأن العائلة والعشيرة معـا •

وينبغى ألا نغفل الدور الذى لعبته الكنيسة فى هـذا الصدد ، إذ وجهت للعائلة ضربة أشد ، وذلك بتشجيع أفرادهـا على إغداق الهبات عليهـا من أملاك العائلة من ناحية أخرى • وجدير بالذكر أن تطور الديرية فى ايطاليا — بل فى الغرب الأوربى — ومـا تبع ذلك من تزايد مكانتهـا الاجتماعية ، قد ترك أثرا عميقا فى الحيـاة الدينية وغير الدينية ، ساهم بدوره فى تفكك رابطـة العائلة البربرية ، والى جانب ذلك أصيب كيان تلك العائلة بضربة أخرى ، عندمـا حددت تعاليم الكنيسة الطريقـة التى تحافظ العائلة بها على سلالتها ، وذلك بتحريمها تعدد الزوجات والمعاشرة غير الشرعية والطلاق (١) • ومع أن الكنيسة نجحت فى القضاء على بعض العادات الجرمانية المنافية لتعاليمها ، إلا أن هنـاك بعضاً آخر لم تستطع أن تؤثر فيـه بسهولة • ويتمثل ذلك بوضوح فى عادتين ، أولاهما وهى الوصاية mundio التى تمارسها العائلة أو الزوج على المرأة الحرة ، إذ كان من المستحيل على الأخيرة أن تكون وصية على نفسـها ، وبمعنى آخر لم يكن بوسعها الاستغناء عن تلك الوصـاية ، حتى لو استغنت عن زوجها • وهنـا نلاحظ أن الوصاية على الزوجـة اللومباردية كانت تنتقل الى زوجهـا نظير مبلغ معين من المـال يدفعه لأبيهـا ، فاذا مات الزوج خضعت لوصاية أقارب زوجهـا ، وفى بعض الحـالات لوصـاية إخوتهـا أو أولادها ، أمـا ثانيتها وهى الدية ، فقـد ذكرنا من قبـل

(1) Ibid, p. 65

أنها كانت تفرض على القاتل لصالح ذوى قربى القتيل ، بيد أنه فيما بعد جرى تقسيمها بينهم وبين الملك اللومباردى (١) .

ولم تقف جهود الكنيسة عند هذا الحد ، بل حاربت بقوة الطريقة التى اتبعها اللومبارديون فى محاكمة المتهمين بالمبارزة أو الاقتتال ، وهى طريقة بربرية قديمة ظلت متغلغلة فى أعماق الشعوب الجرمانية فى أنحاء الغرب الأوربى ، بحيث صار من الصعب اقتلاعها . وكانت المبارزة هى الحل الوحيد للفصل فى أى قضية يتنازع عليها رجلان حران ، لم تتوفر الأدلة القانونية المطلوبة لإدانة أى منهما . وخير مثال على تطبيق هذه الطريقة ما جاء فى قوانين ليوتبراند ، من أنه لواتهم رجل بجريمة قتل يعاقب عليها بفقد كل ممتلكاته ، ودعى هذا الرجل لمبارزة انتهت بهزيمته ، ففى هذه الحالة لا يخسر ممتلكاته ، ووجب عليه أن يدفع دية الضحية فحسب (٢) . ومما يذكر أن ليوتبراند أقر فى قوانينه أنه لا يستطيع أن يمنع طريقة المحاكمة بالاقتتال ، لأنها من العادات القديمة التى عاشت مع قومه ، كذلك لم تستطع الكنيسة أن تقضى عليها ، وإنما نجحت فى تهذيبها (٣) .

أما الطريقة الأخرى المتبعة فى محاكمة المتهمين المعروفة بطريقة التحكيم الالهى أو المحاكمة بالتعذيب التى كانت شائعة بين اللومبارديين ، فقد كانت وسيلة مصطنعة لمعرفة ما اذا كا نالمتهم بريئا أو مجرما ، وذلك باخضاعه لضروب من الامتحان الخطر أو المؤلم ، بعد استنفاد جميع الوسائل الدالة على ادانة المتهم ، أو اخفاق المتهم فى اثبات دليل براءته .

وهنا نلاحظ أن الكنيسة لم تأت بهذه الطريقة فى المحاكمة ، ولكنها

---

(1) Villari, The Barbarian Invasions, II, pp. 344-346.

(2) Wallace - Hadrill, Italy and the Lombards, p. 66.

(3) Ibid.

أخذت بهـا وهيمنت على استخدامها ، وسواء كان الامتحان بالمـاء أو النـار ، فقد كان طقسا دينيا مهيبا ، لأن مسئولية إثبات دليل البراءة أو الذنب ترجع عندئذ الى الله (١) . ومن الأساليب التى استخدمت فى طريقة التحكيم الالهى أن المتهم كانت تربط يداه ويقذف به فى النهر ، فاذا غطس كان بريئـا ، واذا طاف على سطحه كان مذنبـا ، لأن الماء كانت تقرأ عليه تعاويذ خاصة تجعله يلفظ المذنب ، أو كان يطلب من المتهم أن يمشى حافى القدمين فى نار متقدة أو فوق حديد يحمى حتى يحمر من الحرارة ، أو يمسك بيده قطعة من الحديد محمية الى درجة الاحمرار ويظل قابضا عليها لحظات محددة ، أو يضع ذراعه عارية فى اناء به مـاء يغلى ويخرج شيئا من قاعه ، أو يقف المدعى والمدعى عليه ويمدان ذراعيهما على هيئة صليب ويظلان على هـذا الوضع حتى تثبت التهمـة على أحدهما اذا أنزل ذراعه من شدة التعب ، أو يأخذ المتهم جرعة من الماء المقدس ، فاذا كان مذنبا فلابد أن تحل به نقمة الله (٢) .

واذا انتقلنا الى الحديث عن الطبقـات التى تألف منهـا المجتمع اللومباردى نلاحظ أنهـا كانت على الوجه التالى :

أولا :

الطبقة العليا المكونة من الرجال الأحرار وهم نبلاء بالولادة . ويأتى على رأسها الدوقات اللومبارديون ، الذين فاق نفوذهم نفوذ أقرانهم فى المكيـات الجرمانية الأخرى كمـا رأينا من قبل . وتشمل أيضـا تلك الطبقة جماعة المحاربين المعروفين بالأريمانى arimanni ، إذ كانت القاعدة العامة لدى الشعوب الجرمانية أن كل رجل قادر على حمل السلاح يجب أن يكون محاربا ، إلا أن القتـال شرف يختص به الرجل الحر (٣) .

(1) Ibid.

(٢) ديورانت : قصة الحضارة ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، ص ١٨٠ — ١٨١ .

(3) Lot, The End of the Ancient World, p. 292; Lot, Pfister & Ganshof, op. cit., p. 229.

ثانيـــا :

طبقـــة الألديونى Aldei التى كانت تحتل مركزا وسطا بين الأحرار والعبيد ، ويمكننا أن نطلق على أعضائها أحرارا إذا قارناهم بالعبيد ، ولكن حريتهم كانت اسمية ، إذ اعتمدوا فى كل أمورهم على سيدهم ، وترتب على وضعهم القيام بتأدية واجبات شديدة الارهاق له ، فكان عليهم فلاحة أرضه التى لا يملكون الحرية فى الانتقال عنهـا ، فضـــلا عن الإسهام فى حفر القنوات أو شق الطرق ، وغير ذلك من أعمـــال السخرة التى نظمها العرف ، ومع أنهم كانوا يمتلكون أرضـــا ، إلا أنه لم يـــكن من حقهم التصرف فيهـــا دون الحصول على موافقة سيدهم (١) • وبالاضافة الى هـــذا امتد نفوذ السيد الى حياتهم الشخصية ، إذ كان يمثلهم فى المنازعات القضائية ، فاذا قتل أحدهم أو أصابه ضرر ، فسيده هو الذى يحصـــل على الدية أو الغرامة التى يتوجب دفعها ، وربمـــا كان ذلك على سبيل تعويض السيد عن فقد مزارع قدير (٢) • وهنـــا نلاحظ أنه إذا تزوج عبد أو ألديونى aldius من امرأة لومباردية حرة دون أن يأذن له ســـيده اللومباردى ، فلذوى قرباهـــا الحق فى ذبحها أو بيعها ، وتقسيم ممتلكاتها فيمـــا بينهم (٣) • والواقع أن وضع الألديونى فى ايطاليا اللومباردية كان يطابق تماما وضع الأقنان الرومان Coloni الملتصقين بالتربة ، الذين عرفوا باسم رقيق الأرض ، ولكن دون أن يهبطوا الى مستوى العبيد (٤) •

ثالثـــا :

طبقة العبيد والعتقاء ، والمعروف أن العبيد كانوا أهم سلعة تجارية عرفها البرابرة خلال تنقلهم وتجوالهم ، لدرجة أنهم كانوا يثيرون الحروب فيمـــا بينهم للحصول على أعداد وفيرة منهم • والواقع أن العبودية كانت

---

(1) Dudden, op. cit., I, pp. 173-174.

(2) Hodgkin, Italy and her Invaders, VI, pp. 590-592.

(3) Ibid, VI, pp. 210-211.

(4) Oman, Dark Ages, p. 197.

تعنى فى حقيقتها الموت ، فقد عاش غالبية العبيد وماتوا ، وهـم يعانون شظف الحيـاة وبؤسها • وقد أدت الحاجة الماسـة الى استخدامهم فى فلاحة الأرض وغيرها من الأعمال الشاقة فى العصور الوسطى ، الى أن صارت العبودية نظاما اقتصاديا تعذر استئصاله على مدى قرون طويلة (١) • ويلاحظ هنـا أن مرسوم روثارى لم يغفل أوضاع العبيد فى المملكـة اللومباردية ، فعلاوة على مـا ذكرناه عنهم عنـد الحديث عن طبقـة الألديونى ، تحـتم عـلى أى شـخص اعترض طريق عبـد ـ أو خادمة أو الديونى ـ أن يدفع غرامة قدرهـا عشرون صـولدى لمالك العبد ، كمـا فرضت غرامات على من يتسبب فى إيذاء العبد جسديا ، اختلف حسب جسامة الايذاء (٢) • أما العتيق أو العبد الذى نال حريته ، فقد اختلف وضعه تماما ، إذ احتل مكـانة طيبة فى القانون اللومباردى ، جعلته فى أحوال كثيرة يفضل البقـاء مع سيده كأحد أتبـاعه ومواليه ، دون أن يؤثر ذلك فى مكانته باعتباره حرا ، ومن أجل ذلك التزم بالخدمة العسكرية لسيده أو بالعمل فى بلاطه مقابل الانفـاق عليه ، ولمـا كان العرف الذى بمقتضاه يتكفل السيد بحماية عتيقه ورعايته لازال قائما ، فالواقع أن الصفقة لم تكن خاسرة بالنسبة للأخير (٣) •

الاقطاع اللومباردى :

يمكننا أن نلمس بوضوح نشأة النظام الاقطاعى وتطوره فى ايطاليا اللومباردية • إذ إن ظروف هـذا القطر قد مهدت السبيل الى ذلك ، فبعد أن أصبحت المدن الايطالية غير آمنة إبان الغزوات الجرمانية المبكرة ، وظهر عجز السلطة المركزية عن حمايتها ، عاشت الطبقـة النبيلة الرومانية القديمة صاحبة الملكيات الضخمة من الأرض فى ضياعها الريفية ، أمـا

---

(1) Wallace - Hadrill, op. cit., pp. 66-67.

(2) Paul the Deacon, p. 195. n. 1.

(3) Wallace - Hadrill, op. cit., p. 67.

صغار الملاك الأحرار الذين أنهكت الحروب الطويلة قواهم ، وأثقلتهم الضرائب الباهظة التى فرضتها عليهم الامبراطورية الرومانية القديمة ، ولم يعد بامكانهم الدفاع عن أنفسهم ضد الأخطار الخارجية المحيطة بهم ، فقد وضعوا أنفسهم تحت حماية كبار الأراضى ، خاصة طبقة النبالة الحربية (٥) . وقد وصف سيدونيوس أبو ليناريس (١) — فى القرن الخامس الميلادى — سادة الريف وهم يعيشون عيشة الترف وسط ضياع واسعة ، وقد صاروا منذ ذلك الوقت البعيد يشكلون أرستقراطية اقطاعية لهـا محاكمها الخاصة وجيوشها ، ولا يختلفون عن السادة الاقطاعيين فى العهود المقبلة إلا فى مقدرتهم على القراءة (٢) .

وبسقوط الامبراطورية الرومانية على أيدى الجرمان سنة ٤٧٦ ، وقيام ممالكهم فى الجزء الغربى منهـا ، أخذ النظام الاقطاعى فى الظهور والنمو ، وهو نظام عرفه الجرمان فى مواطنهم الأصلية ، وأساسه العلاقة بين التابع والمتبوع ، وقوامها الأرض (٣) . إذ أنهم لم يمارسوا شيئا سوى الحرب ، ولم تكن جمعياتهم إلا جماعات حربية ، ولم يكن حكامهم إلا زعماء محاربين ، حاول كل منهم أن يفوق منافسيه بما يكنه أتباعه له من الولاء ، فاذا أعد حملة ، اجتمعوا حوله ، وهم من المحاربين الأحرار ، للقتال معه ومن أجله (٤) .

---

(1) Hulme, The Middle Ages, pp. 160-161.

(٢) سيدونيوس أبوليناريس Sidonius Apollinaris (ح ٤٣٠ — ح ٤٨٠) نبيل رومانى من اقليم الغال ، شهد الانهيار النهائى للنفوذ الرومانى فى هذا الاقليم ، وتعتبر كتاباته من أعظم المصادر التى تناولت الأحوال الاجتماعية فى القرن الخامس ، انظر Dudley & Lang, op. cit., pp. 150-151.

(٣) ديورانت : قصة الحضارة ، المجلد الرابع ، جـ ٣ ، ص ٤٠٤ — ٤٠٥ .

(٤) هارتمان ، باراكلاف : الدولة والامبراطورية ، مقدمة المترجم ، ص ١٩ — ٢٠ .

(٥) السيد الباز العرينى : الحضارة والنظم الأوربية فى العصور الوسطى ، ص ١٠٢ .

وبقيام الممالك الجرمانية المتأخرة مثل ممالك اللومبارديين والفرنجة ، انهارت البيروقراطية الرومانية ، واندثرت مع الزمن الطبقة الرومانية صاحبة الأرض ، لتحل محلها طبقة جديدة من الغزاة الجرمان انتزعت الأرض منها ، ونجد مثلا واضحا لذلك فى مملكة اللومبارديين ، إذ نما الاتجاه نحو المحلية ، والبعد عن السلطة المركزية الحاكمة (١) • وكنا قد أشرنا من قبل الى أنه فى المراحل الأولى من الغزو اللومباردى لم يكن يحق لملاك الأراضى الرومان أن يشتركوا فى ملكية أملاكهم ، إذ جرت عادة اللومبارديين على انتزاعها منهم ، ونفيهم منها ، وحرمانهم من كل شخصية ، ونتيجة لذلك صار كل لومباردى حر صاحب أرض ومحاربا ، وترتب على اجتماع عاملى الاستقرار المستمر والتأثر بالحضارة الرومانية أن تلاشت العشيرة تدريجيا ، وحلت محلها الروابط المحلية القائمة على امتلاك الأرض (٢) وأكثر من ذلك أهمية ، أن المنازعات التى كانت تحدث بين الملك اللومباردى والدوقات من أجل السلطة والنفوذ ، جعلت الملك حريصا على الاكثار من عدد أتباعه المخلصين ، الذين يمكنه بواسطتهم منازعة أقوى دوقاته الخارجين عن طاعته ، ومن أجل ذلك وجب عليه أن يكافىء هؤلاء الأتباع ليحافظوا على إخلاصهم وولائهم ، ولما كانت الأرض الزراعية محور الثروة فى العصور الوسطى ، فقد عمد الى أن يوزع عليهم أجزاء من أراضيه الملكية اتخذت اسم اقطاعات فى صورة هبات سخية للانتفاع بها ، مما جعل أراضيه فى نقصان مستمر (٣) • وترتب على ذلك أن صار الأتباع يؤلفون طبقة اجتماعية خاصة ، هيأت السبيل لقيام النظام الاقطاعى فى أوربا العصور الوسطى فى القرون اللاحقة •

---

(١) هارتمان ، باراكلاف : المرجع السابق ، المقدمة ص ٢٠ •

(٢) موس : ميلاد العصور الوسطى ، ص ٢١٤ •

(3) Orton, Outlines of Med. Europe, pp. 106-107; Lot, The End., pp. 294-2995.

النشـــاط الاقتصادى:

رأينـــا أن الشعب اللومباردى كان محاربا بطبيعته ، ويبدو صدى هـــذه الحقيقة فى أنه لم يذق طعم الاستقرار طويلا منـــذ أن غادر موطنه فى اقليم نهر الإلب ، حتى أضحى جارا لايطاليا فى اقليم بانونيا عند نهاية القرن الخامس • ورغم أنه اتخذ وضعا أكثر استقرارا فى هـــذا الاقليم ، اعتنق خلاله المسيحية بمذهبها الآريوسى ، وزادت قوة الملكية ، فقـــد ظلت الحرب شغله الشاغل وأبرز تقاليده وعاداته • وفى هـــذا الاقليم لم يمارس اللومبارديون زراعتهم البدائية ، بل تركوا العمل فى الحقول للأرقاء والشعوب الخاضعة ، على حين أنهم هم أنفسهم أخذوا ينهبون أراضى جيرانهم (١) • وهنا نكرر القول أن الشعوب الجرمانية التى غزت ايطاليا قبل اللومبارديين لم تقم بانتزاع كل الأراضى الزراعية من أصحابها الرومان ، وإنمـــا اكتفت باغتصـــاب مساحة تصل الى ثلث الأرض تاركة الباقى للملاك الرومان • وبعبارة أخرى ، اذا كان هؤلاء الغزاة قد اعتبروا السكان شركاء لهم فى الأرض ، فعلى النقيض من ذلك اعتبرهم اللومبارديون رعايا ، وعاملوهم نفس المعاملة التى كان يلقاهـــا سكان هنغاريا الذين كانوا يفلحون الأرض لسادتهم المحاربين ، فجردوا أصحاب الأرض من أملاكهم ، وأصبحت أرضهم ومواشيهم وبيوتهم وفلاحوهم نهبـــا وغنيمة للفاتحين ، ولم يكن اللومبارديون يريدون الأرض فى حد ذاتهـــا ، وانمـــا أرادوهـــا لتكون وسيلة للعيش فى دعة أو وســـيلة تكفل لهم من الحرية الاقتصادية مـــا يسمح لهم بشن الحروب (٢) • ومن ثم أبقوا على مـــا كان عند الرومان من نظام استغلال الأراضى ، وكل مـــا تغير هو أن القن الرومانى أو الألديونى اللومباردى ، كان يدفع للمالك اللومباردى

---

(1) Deanesly, A Hist. of Early Med. Europe, p. 249;

موس : المرجع السابق ، ص ٢١٢ •

(2) Lot, op. cit., p. 288;

موس : المرجع السابق ، ص ٢١٤ — ٢١٥ •

ثلث مـا تغله الأراضى ، فى حين احتفظ لنفسـه بالباقى • وكيفما كان الأمر ، فقـد أفضى دخول اللومبارديين ايطاليا الى استخدامهم — على نطـاق واسع — المزارع الايطالية لتربية الماشية وقطعان الخنازير التى ساقوها معهم من بانونيا ، وفى خلال مدة حكمهم لم يحدث تغيير كبير فى طرق الزراعة الايطالية القديمة ، فالأرض فيمـا عدا مناطق معينة من وادى البو ، كانت لا تصلح لاستخدام المحراث الجرمانى الطويل (١) •

كذلك لا يختلف الأمر عندما نتطرق الى الصـناعة ، التى لم يكن لهـا وجود فى ايطاليا اللومباردية ، باستثناء بعض المشاريع النـادرة التى كان يقوم بهـا جماعة بنائى كومو أو سادة كومو Maestre Comacini (٢) ، وهم بقايا نقابة الصناع الرومانية المعروفة بهـذا الاسم ، تلك النقابة الغامضة التى عفى عليهـا النسيان المكونة من الفنانين الذين كثيرا مـا يتردد اسـمهم فى المناقشات التى تدور حول أصول الفن الايطـالى ومصادره (٣) • وينبغى الاشارة هنـا الى أن جميع وسائل الحضـارة اللومباردية وأدواتها ، كانت — الى حد بعيد — فى أيدى التجار والفنانين والصـناع الرومان ، الى جانب أن الملاحين الذين يعملون على صفحة نهر البو وصناع الدروع والزرد فى لوكا وكريمونا ومنتجى الفـاكهة والخضر اللازمة لقصور الدوقات اللومبارديين ، كانوا فى الأغلب الأعم من الرومـان (٤) •

على أن التجارة فى ايطاليا كانت على النقيض من ذلك • فبعـد أن خبت حدة الفتوحات واستقر اللومبارديون ، إستعادت التجارة نشاطها ابتداء من القرن الثامن ، بفضل أهالى كوماكيو الذين عقد معهم الملك

---

(1) Deanesly, op. cit., p. 249.

(2) Lot, Pfister & Ganshof, op. cit., p. 229.

(٣) نفس المرجع والصفحة •

(٤) موس : المرجع السابق ، ص ٣٣٤ •

ليوتبراند اتفاقية تجارية فى سنة ٧١٥ ، والبنادقة الذين جلبوا محاصيل الشرق (١) • ومما يسترعى الانتباه أن ايطاليا البيزنطية لم توقف علاقاتها التجارية مع الامبراطورية البيزنطية رغم ما عانته تلك الامبراطورية من متاعب منذ أوائل القرن السادس ، ولكننا لا نعرف شيئا عن قيام علاقات تجارية بين ايطاليا البيزنطية وايطاليا اللومباردية قبل بداية القرن الثامن ، حيث أخذ البنادقة — على وجه التأكيد — يجلبون الملح الى مملكة اللومبارديين (٢) •

أما فيما يختص بالموارد المالية التى اعتمدت عليها المملكة اللومباردية ، فمن الملاحظ أنه خلال المراحل الأولى من الغزو ، اختفى نظام الضرائب المباشرة ، مثل ضريبة الأرض التى كانت أساس المالية الرومانية ، إذ اعتبرها اللومبارديون رمزا للعبودية ، وأمرا لا يتفق مع طبيعتهم كرجال أحرار • ومن ناحية أخرى ، أبقى اللومبارديون على الضرائب غير المباشرة ، مثل الرسوم المقررة على المواصلات وعبور الطرق والمعديات والجسور ، والسلع التجارية ، والعقارات ، وادارة الأموال ، وتجهيز الخيول ، والعلف ، وأرباح الصناعات (٣) • ومن الملاحظ أن عائد تلك الضرائب ظل أساسا فى أيدى الدوقات والجستالدى ، على حين كانت نسبة ضئيلة منه تصل الى خزائن الملك اللومباردى فى بافيا ، والنتيجة الطبيعية لذلك أن المملكة اللومباردية كانت دولة لا أموال لها ، فانعدمت الخدمات العامة فيها ، مثل شق الطرق وبناء الجسور وصيانتها ، ولم تعد ثمة مسارح أو مدارج ملاعب باقية ، ووصل الأمر الى أن القضاة كانوا يتقاضون رواتبهم من رسوم الغرامات التى يفرضونها على المتقاضين ، كما أن الجيش لم يحصل على رواتب من

---

(1) Lot, Pfister & Ganshof, op. cit., p. 229.

(2) Ganshof, Le Moyen Age, p. 17.

(3) Lot, Pfister., op. cit., p. 228.

الدولة ، فكما شاهدنا من قبل التزم كل رجل حر (أريمانى) بتأدية الخدمة العسكرية على نفقته (١) .

العملة اللومباردية :

المعروف أن اللومبارديين حكموا فى ايطاليا فترة أطول من تلك التى حكمهاالقوط الشرقيون ، ومع ذلك فان عدد العملات التى خلفوهـا وراءهم ليست كثيرة ، ومن أبرز مـا تميزت به مجموعة نقودهم الذهبية والفضية أنهـا سكت على نسق أسلوب العملة البيزنطية ، أى أنهـا كانت بيزنطية بحتة فى طرازها وعناصرها وصبغتها ، وان كان من الثابت أن مصدرها ايطاليا وليست بيزنطية (٢) . وقد ظلت العملة اللومباردية على هـذا النحو حتى قبيل نهاية القرن السابع ، إذ طرأ تغيير جذرى عليهـا فى عهد الملك كونبرت (٦٨٨ ـ ٧٠٠) ، يتمثل فى أنه أصدر لأول مرة عملة ذهبية تميزت بتخلصها من التأثيرات البيزنطية ، من الممكن أن نطلق عليها عملة لومباردية أصيلة (٣) . ويلاحظ أن هـذه العملة التى جرى أسلافه على نسقها وهى من فئـة التريمسيس tremisses ، كانت شبيهة بالصولدى البيزنطى solidus المضروب فى رافنا ، وقد وضع كونبرت اسمه على وجهها ، على حين وضع على ظهرها صورة القديس مايكل ـ المجنحة راعى اللومبارديين (٤) .

ولـما كانت العملة اللومباردية التى ظهرت قبل عهد كونبرت جاءت

---

(1) Lot, The End of the Ancient World, pp. 293-294.

(2) Wroth, Catalogue of the Coins of the Vandals, Ostrogoths and Lombards, and of the Empires of Thessalonica, Nicaea and Trebizond in British Museum, p. LV.

(3) Wroth, op. cit., p. LV; Lot, Pfister., op. cit., p. 228; Hodgkin, op. cit., VI, p. 317.

(4) Wroth, op. cit., p. LVII.

تقليدا لمثيلتها البيزنطية ، فقد نشأت عن ذلك صعوبات جوهرية حالت دون ترتيبها زمنيـا حسب أسماء الملوك الذين تعاقبوا خلال تلك الفترة الطويلة ، ومن المحتمل حتى عهد روثارى (٥٨٤ — ٥٩٠) • وثمة مجموعتان من النقود ترجع الى تلك الفترة ، أولاهـا فضية صغيرة تحمل اسـم الامبراطور جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) ، بيد أنه لخشونة مظهرها وعدم صقلها وسوء تصميمها ، وبالتالى نستبعد كونهـا بيزنطية أو قوطيـة شرقية ، فلابد أنهـا صدرت فى وقت مبكر يرجع الى عهـد الفاتح ألبوين (٥٦٨ — ٥٧٢) ، ومن بين هـذه المجموعة أيضـا نقود فضية وذهبية من فئة التريمسيس تحمل اسم الامبراطور جستين الثـانى (٥٦٥ — ٥٧٤) (١) • وكيفما كان الأمر ، فالنقود التى نستطيع أن ننسب اصدارها الى الملكين اللومبارديين ألبـوين وكليف وفترة الشـغور فى العرش اللومباردى (٥٧٤ — ٥٨٤) ، هى نقود ذهبية تحمل اسم الامبراطور جستين الثانى ، وأخرى فضية تحمل أسماء الأباطرة جستنيان ، وجستين الثانى ، وتيبريوس الثانى (٥٧٤ — ٥٨٢) • أمـا المجموعة الثانية من تلك النقود ، وهى من فئـة التريمسيس الذهبية ومعهـا عملات فضية صغيرة ، فقد وجد أنها تحمل اسم الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢) • ولما كان هـذا الامبراطور معاصرا للملكين اللومبارديين أوثارى وأجيلولف (٥٩٠ — ٦١٥) على وجه التقريب ، فبوسعنا أن نفترض تماما أنهما همـا اللذان أصدرا تلك النقود (٢) •

ومنذ اعتلاء أدالوالد عرش المملكة اللومباردية فى سنة ٦١٦ حتى أواخر عهد الملك جريموالد (٦٦٢ — ٦٧١) ، تتوفر لدينا ثلاث مجموعات من العملة من فئـة التريمسيس تحمل أسماء الأباطرة هرقل (٦١٠ — ٦٤١) ، وقنسطانز الثانى (٦٤٢ — ٦٦٨) ، وثالث جاء اسمه مشوشا •

---

(1) Ibid, pp. LV-LVI.

(2) Ibid, p. LVI.

وتتميز هذه العملات بأنهـا أصغر من التى تحمل اسم الامبراطور موريس وتختلف عنهـا ، وتبرز أهميتها فى أن حافتها الحلقية تدل على أنها كانت متداولة فى ايطاليا الشمالية ، ممـا يحملنا على الاعتقاد أنهـا من إصدار الملوك اللومبارديين . ونتيجة لذلك يمكننـا أن ننسب اصدار المجموعة الأولى التى تحمل اسم هرقل الى الملوك أدالوالد وأريبولد وروثارى ، والمجموعة الثانية التى تحمل اسم قنسطانز الثانى الى رودوالد وأريبرت الأول وبركتاريت وجودبرت وجريموالد ؛ ومن المحتمل أن الأخير أصدر عملته حوالى سنة ٦٧١ (١) . وممـا يجدر ذكره أن روثارى كان أول من أفرد مادة فى قانونه المعروف تعاقب كل من يقوم بغش العملة ؛ كمـا أن جريموالد كان أول من وسم عملته التريمسيس بمونوجرام ، وهى علامة ترمز اليه تتألف من أحرف اسمه الأولى مرقومة على نحو متشابك . أما المجموعة الثـالثة من النقود التى تحمل اسما مشوشا لأحد أباطرة بيزنطة ، فيبدو أنهـا سكت بعد العملة التى تحمل اسم الامبراطور قنسطانز الثـانى ، والدليل على ذلك أنها تصغرها فى الحجم ، والكتابة على وجهها رديئة ، ومعيارها الذهبى غير نقى ، بحيث لم تكن إلا مزيجا من الذهب والفضة ، وهو الذى يطلق عليـه الالكتروم (٢) ، الأمر الذى يدل على هبوطهـا وتدهورها . وعلى أية حال ، فان هـذه المجموعة تغلب عليهـا خصائص العملة الذهبية التى أصدرهـا كونبرت والملوك المتأخرون ، وذلك بوضع حرف على وجهها فى نهاية الرأس (رأس الملك) المنقوش تقريبـا ، هذا ويسود الاعتقاد بأن الملك بركتاريت هو الذى أصدر هـذه العملة خلال عهـده الثانى (٦٧٢ ـــ ٦٨٨) (٤)

وبغض النظر عن رأى المؤرخ جريجوريوس الذى يشـير الى أن

---

(1) Ibid.

(2) Paul the Deacon, op. cit., pp. 243-244; n. 1.

(3) Wroth, op. cit., p. LVI.

(4) Ibid, LVII.

القوط الشرقيين قد حموا الحضارة الرومانية فى ايطاليا ، على حين دمرها اللومبارديون ، فالذى يهمنا فى هذا الصدد أن عالم المسكوكات روث Wroth قد أيد هذا الرأى ، استنادا الى العملة اللومباردية . ذلك أن القوط الشرقيين واللومبارديين قد سكوا نقودا ارتكزت أساسا على الطراز البيزنطى ، حتى انها فى حالات عديدة لم تكن إلا نسخة متواضعة التقليد منه . بيد أن العملة القوطية قد تميزت على الاجمال بدقة صناعتها وروعتها ، على النقيض من العملة اللومباردية التى جمعت — على وجه التقريب — بين خشونة المظهر وسوء التصميم (١) . ومما يذكر أن بعض ملوك وملكات اللومبارديين مثل بركتاريت وثيوديلندا ، قد شجعوا الفن المعمارى والرسم والتصوير ، كما يتضح ذلك من المبانى الرائعة التى شيدوها ، ولكن تذوقهم الشخصى لم يتناول العملة البتة . وكيفما كان الأمر ، فان العملة اللومباردية التى جرى سكها منذ عهد الفاتح ألبوين حتى عهد جريموالد (ت ٦٧١) لم تكن فى الواقع إلا نسخة بربرية من العملة البيزنطية . وإذا سلمنا بصحة ما أشار اليه علماء المسكوكات من أن جريموالد وخليفته بركتاريت قد أعطوا العملة لمسة ابتكار وتجديد ، وأنها لم تصبح واضحة المعالم إلا فى عهد كونبرت ، فلابد من القول أن تلك العملة لا تخرج عن كونها صورة كاريكاتورية (مشوهة) لعملة رافنا البيزنطية (٢) .

كما أننا نلاحظ أن ليوتبراند أعظم ملوك اللومبارديين على الاطلاق ، قد أصدر عملة ذهبية جاءت صورة غير متقنة من عملة كونبرت . بيد أن العملة التى سكها آستولف (٧٤٩ — ٧٥٦) من فئة التريمسيس الذهبى أو الالكتروم ، وأصدر مثلها دسيديريوس آخر ملوك اللومبارديين وشارلمان عاهل الفرنجة ، كانت على عكس عملة ليوتبراند ، متقنة الصناعة وواضحة الكتابة ، فعلى الوجه نقش الصليب

---

(1) Ibid, pp. LVII-LVIII.

(2) Ibid, LVIII.

التقليدى المميز للنقود البيزنطية ، وعلى الظهر نقشت زخرفة رائعة ، من المحتمل أنهـا نجم أو تويج زهرة ، ورغم الغموض الذى لا زال يكتنف مـا ترمز اليه هـذه الزخرفة ، فمن الجائز أنها مجرد زخرفة (١) •

أمـا عن الكتابات المدونة على العمـلة اللومباردية، فالواقع أن دراستها لا تعطينا غير ملامح قليلة الفـائدة • إذ ظلت هـذه الكتابات المليئة بالأخطاء الفـادحة لسنوات طويلة نسخا باهتة من الكتـابات البيزنطية • وعلى أية حال ، سجل الملوك اللومبارديون على عملتهم اسم الامبراطـور البيزنطى والعبـارة المألوفـة « أوغسطس المنتصر » VICTORIA AVGVSTORVM، وإن كانوا قد دأبوا منـذ عهد كونبرت على تدوين اسمهم على العملة مصحوبا بلقب

D (ominus) N (oster) .... REX (٢) •

وإذا انتقلنـا الى الحديث عن نوع المعادن التى استخدمت فى سـك العملة اللومباردية وأوزانها ، فلا شـك أنه يأتى على رأسـها التريمسيس ، وهو العملة الذهبية الوحيدة التى تداولها اللومبارديون • وفى العينات الموجودة بالمتحف البريطانى نلاحظ أن التريمسيس الذى يحمل أسماء الأباطرة البيزنطيين من عهـد جستين الثـانى الى قنسطانز الثانى ، قد تراوح وزنه بين ٤٣ر١جرام و ٤٩ر١ جرام ، بيد أنه منـذ عهدت كونبرت أنقص مقدار الذهب فى تلك العملة ، حتى صـار فى عهدى استولف ودسيدريوس خليطا من الذهب والفضة ، وبلغ متوسط وزنهـا ١٢ر١ جرام (٣) • أمـا العملة الفضية التى أصدرها اللومبارديون ، فقد احتلت جانبا من الأهمية فى المراحل الأولى من الوجود اللومباردى ، ابتـداء من عهـد ألبوين حتى عهـد أجيلولف (ت ٦١٦) ، ثم توقف

---

(1) Ibid.

(2) Ibid, pp. LVIII-LIX.

(3) Ibid, p. LIX.

إصدارها على نطـاق واسع بعدئذ • على أنه ممـا يثير الدهشة أننـا لا نجد أثرا لعملة برونزية لومباردية على الاطلاق ، وربمـا يرجع السبب فى ذلك الى أن بعض القطع البرونزية الصغيرة المتعلقة بالوندال والقوط الشرقيين ، كان يجرى تداولها فى الأقاليم اللومباردية (١) •

وفى ختام حديثنا عن العملة اللومباردية ، نلاحظ أن قوتها الشرائية اختلفت على مر السنين ، شأنها فى ذلك شـأن أى عملة فى كل زمـان ومكان • ويهمنـا فى هـذا الصدد أن الصولدى عملة بيزنطة الذهبية ، الذى يزن أربعة جرامات ، ويعادل ثلاثة أضعاف التريمسيس اللومباردى ، قد جرى تداوله على أوسـع مدى فى أنحـاء المملكة اللومباردية (٢) ، الأمر الذى جعل قوته الشرائية المقياس الحقيقى للعملة اللومباردية • على أنه من الصعب الوقوف على القـوة الشرائية للصولدى ، عـلى أسـاس خضوعه لمبـدأ العرض والطلب ، واختلاف عيـاره ، وتذبذب استقراره وثباته من وقت لآخر • ومع ذلك ، فقـد حدد المؤرخ هودجين قيمتـه فى عهد الملك ليوتبراند باثنى عشر جنيها استرلينيا (٣) • ومهمـا يكن من أمر فقـد بيعت شجرة زيتون فى سنة ٧١٨ بثمانية صولدى ، وفى سنة ٧٤٩ عاد جوادان على صاحبهما بمبلغ خمسين صولدى ، فى حين أن الجواد المسرج كان من الممكن أن يصـل سعره الى مائة صولدى • وفى سنة ٧٢٥ قدر ثمن نصف منزل بتسـعة صولدى ، وحديقة بخمسـة عشر صولدى ، ووصلت أعلى دية لمن يقتـل امرأة متزوجة ١٢٠٠ صولدى ، وهو مبلغ ضخم كان لا يقدر عليه إلا ذو ثروة هائلة • كذلك فرضـت غرامة قدرها تسعمائة صولدى على من يفتح أحد القبور عنوة ، ونفس القيمـة على من يعتدى على امرأة حرة • كمـا فرض الملك روثارى غرامه مقداهـا صولدى واحد على من يتسبب فى إجهاض أنثى فرس ،

---

(1) Ibid, p. LX.

(2) Wallace - Hadrill, op. cit., p. 67.

(3) Hodgkin, op. cit., VI, pp. 313-314.

وثلاثة صولدى على من يرتكب نفس الاثم فى حق جارية (١) وإذا كان الانطباع الوحيد الذى خلفته الحياة الاقتصادية فى ايطاليا اللومباردية ، قد ارتكز أساسا على الطواحين والرعى والخيول وبساتين الفاكهة والعبيد ، فمن الواضح أن تداول الذهب بين اللومبارديين لم يكن له قوة تأثير فعالة • ونخرج من ذلك كله الى أن اللومبارديين عرفوا النقود ، ولكنهم ظلوا الى حد ما ، يعيشون على الطريقة البدائية المحلية المعروفة بالمقايضة (٢) •

الحياة الفكرية :

فى أثناء الفترة الواقعة بين وفاة الامبراطور ماركوس أوريليوس سنة ١٨٠م وأواخر القرن الخامس ، شهدت الامبراطورية الرومانية انهيارا فى جميع أوجه النشاط السايسى والعسكرى والاقتصادى والاجتماعى والفكرى • وكان أن تعرضت تلك الامبراطورية فى القرنين الأخيرين لسلسلة واسعة النطاق من الغزوات الجرمانية العنيفة ، أدت الى تدمير ولايات ومدن طالما نعمت بالاستقرار والحضارة فى ظل السلام الرومانى • وأخيرا شهدت ايطاليا فى القرن السادس ظهور عنصر جرمانى جديد يتمثل فى اللومبارديين ، الذين حاولوا أن يزيلوا النفوذ البيزنطى ، ولكن بيزنطة نجحت فى المحافظة على وجودها فى رافنا وجنوب ايطاليا •

وقد ترتب على الوضع السياسى فى ايطاليا ، أن مركز القوة انتقل من الرومان الى الجرمان ، فى الوقت الذى كانت الحضارة الرومانية بما تنطوى عليه من تراث جليل ، قد تفككت وذبلت ، ويبدو ذلك على الأخص فى التعليم والثقافة • ذلك أن التعليم قد وصل الى ذروة انحطاطه ، ولم يعد يهتم به إلا ذوو اليسار من الطبقة العليا ، ممن توفرت لديهم

(1) Wallace - Hadrill, op. cit., p. 67.

(2) Ibid.

الرغبة فى الافادة والقدرة على الدفع (١) • أما الدراسات القديمة (الكلاسيكية) فقد أضحت عقيمة فى موطنها القديم ايطاليا ، وعزف الرومان عن تذوق النماذج الأدبية العظيمة ، التى جادت بها مؤلفات شيشرون وفرجيل وهوراس وتاكيتوس وغيرهم ، ومع ذلك بقيت تلك الدراسات تربة صالحة لنمو الأفكار ، وهواء يتنفسه الأجيال الى حد ما (٢) •

وإذا ألقينا نظرة عابرة على الحياة الفكرية فى شمال ايطاليا ووسطها بعد وفاة البابا جريجورى العظيم سنة ٦٠٤ ، نجد أنها لم تكن أكثر شأنا مما كانت عليه فى القرنين الرابع والخامس ، إذ خلت من أسماء لامعة مثل إيسيدور الإشبيلى (ت ٦٣٦) ، وألدهيلم ، وبيدى Bede (ت ٧٣٥) ، وثيودلف الأورليانزى ، ولم يعد لها وجود إلا فى قليل من المراكز الحضارية والأديرة العظمى (٣) • وهنا يرى البعض أن احتفاظ جريجورى بمدينته روما بعيدا عن سيادة اللومبارديين قد منع ايطاليا ، ومن خلالها كل أوربا ، من الوقوع فى ظلام فكرى دامس ، ذلك أنهم على قوله قد تميزوا بالجهل المطبق ، فى الوقت الذى ينعدم الدليل على أن أيًا منهم قد استساغ الأدب وغرسه فى نفسه ، أو أسبغ رعايته عليه ، حتى أن قوانينهم جاءت خالية من الاشارة الى حرفة الأدب ، ولكونهم أصحاب سلاح فقط ، فان الابقاء على روما بعيدة عن سيطرتهم

---

(1) Taylor, The Mediaeval Mind, I, pp. 6-7, p. 249.

(2) Ibid, I, p. 8.

(3) Gregorovius, Hist. of Rome in the Middle Ages, II, p. 411: Laistner, Thought and Letters in Western Europe, p. 132.

قد حماها من الانغماس فى انحطاطهم الفكرى (١) • والواقع أن هـذا الرأى يحوى قدرا من المبالغـة ، إذ أن اللومبارديين بعد أن نفذوا الى ايطاليا ، ركزوا اهتمامهم أولا على توطيد نفوذهم ، بيد أنهم مع مـر السنين تأثروا بالحضارة الرومانية ، وظهر من بينهم من شجع الحياة الفكرية ، وأحاطها بعنايته كمـا سنرى بعد قليل • هـذا وينبغى ألا يفوتنا أن اللومبارديين لم يكونوا من كثرة العـدد ، مـا يكفى لتدمير الحضارة الرومانيـة •

وعلى النقيض من ذلك كانت الحيـاة الفكرية فى الجنوب الايطالى ، إذ شهدت أرض هـذا الجزء البعيد عن السـيادة اللومباردية ، تدفق جماعات هائلة من البيزنطيين ورجال الكنيسـة الشرقية ، بسبب الفتوحات الاسلامية لمصر والشام وشمال أفريقية ، ممـا جعل هـذا الجزء إغريقى الثقافة واللغة والدين حتى القرن التاسـع ، وبات يشكل فصـلا من فصـول تاريخ الفكر البيزنطى ، يختلف تماما عن شـمال ايطاليـا ووسطهـا (٢) •

كان هـذا موجزا للحياة الفكرية فى ايطاليا ، ولننتقل بعد ذلك الى الصورة التى كانت عليهـا فى المملكة اللومباردية • وهنا ندرك أن التعليم بعد انقضاء قرن على وجود تلك المملكة ، قد انحط الى حد بعيد : فالوثائق والمستندات كانت تدون بلغة لاتينية دارجة ، وتفشت الأمية فى أرجاء المملكة تفشيا مثيرا ، حتى إن الملوك عجزوا عن التوقيع بأسمائهم عـلى المراسيم ، واكتفوا بوضع أختامهم عليهـا ، فى الوقت الذى لم يفضلهم كثير من رجال الكنيسة فى هـذا الشأن (٣) ، بدليل أنه فى عام ٦٠٠ نهض

---

(1) Mann : The Lives of the Popes, I, Part I, pp. 113-114.

(2) Laistner, op. cit., p. 133; Oman, op. cit., pp. 189-190; Deanesly, op. cit., p. 247.

(3) Laistner, op. cit., p. 134.

الأسقف بتعليم رجال الدين فى اقليمه ، لعجزهم عن ذلك فى أى مكان آخـر ، والى جانب هـذا ، لم تعد مدارس البلاغة تؤدى رسالتها كمـا كان الحال أيام روما البيزنطية ، ومن ثم أغلقت أبوابها (١) .

ولم تكن اللغـة اللاتينية بأحسن حال من ضحالة التعليم ، فمنـذ سقوط الامبراطورية الرومانية تطورت هـذه اللغة بصـورة تدعو الى الدهشة . إذ بلغ الأمر بالمتعلمين ورجال الكنيسة أنهم كانوا يلفظونهـا كالعامة ، ويكتبونها كمـا يلفظونها ، واذا أضيف الى ذلك أن الاعراب والتصريف كانا فى حالة يرثى لهـا ، وأن جرس الشـدة حل محل الجرس الموسيقى ، أمكننا أن نوضـح أن استيعاب الكتابات القديمة الدينيـة والدنيوية لم تكن فى المتناول دون دراسة شاقة طويلة ، ومن هنـا اتسعت الفجوة بين اللاتينية الصحيحة واللاتينية الدارجة ، وأصبحت اللغـة اللاتينية لغة ميتة لا يفهمها العامة ، حتى إن المجامع الدينية سمحت بالتبشير باللغـة الدارجة ، وهى اللغـة الرومانسية ، لغـة الغال وايطاليـا وأسبانيا (٢) .

على أن اللومبارديين فى القرن الثامن، اختلفوا اختلافا واضحا عن أبناء أرومتهم الذين رافقوا ألبوين الى ايطاليا ، ويتضح هـذا فى ازدهار مدارس النحو والقانون واللاهوت من جديد ، واتسـاع دائرة الأديرة والكنائس كمراكز عطاء يشـع منهـا بريق التعليم والثقافة ، وعلى وجه الخصوص أديرة بوبيو وفيرونا ونابولى ومونت كاسينو ، وممـا يذكر أن حركة ازدهار الحيـاة الفكرية فى المملكة اللومباردية لم تقتصر على العاصمة بافيا ، بل امتد أثرهـا الى أروقة بلاط الدوقات الجنوبيين (٣) . وثمة صورة رائعـة رسمها بولس الشماس عن رجال واصلوا العطـاء الفكرى

---

(1) Deanesly, A Hist. of the Medieval Church, p. 32.

(٢) نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط فى أوربا ، حـ ١ ص ٢٨٣ .

(3) Davis, Charlemagne, p. 68; Lot, Pfister & Ganshof, op. cit., p. 332.

فى بافيا ، نذكر منهم على سبيل المثـال العالم النحوى فيلكس ، والأسقف داميان الذى عرف بتفوقه فى الفنون السبعة الحرة ، وبندكتوس كريسبوس (٦٨١ — ٧٢٥) ، الذى دخل فى جدال مع البابوية حـول الامتيـازات الكنيسية ، ونظم شعرا قصيرا ، فى الطب نال أعجاب بولس وامتداحه (١) .

ويبدو أن اللومبارديين الذين دمغهم البابوات بأنهم عنصر منبـوذ أرادوا أن يدفعوا عنهم هـذه التهمة ، فشجعوا التعليم والثقافة (٢) ، وممـا يثير الانتباه فى هـذا الصدد ، أن دسيدريوس آخر من جاء فى قائمةملوكهم ، دأب على تشجيع العلماء والباحثين ، رغم جهله بالقراءة والكتابة . ولعـل الإطاحة به عى أيدى شارلمان ، قد خفف من وقعها عبقرية ابنته أدالبرجا زوجة أريجيس دوق بنفنتوم ، التى عرفت بذكائها اللماح ، وميلها للتعليم ، فضلا عن جهودها فى تشجيع الثقافة (٣) . ويكفى القول أنهـا كانت ثانى امرأة جرمانية لمع إسمها فى العصور الوسطى على مدى القرون الأربعة التى أعقبت سقوط الامبراطورية الرومانية ، بعد أمالاسونثا Amalasuntha إبنة ثيودريك ملك القوط الشرقيين ، حيث لم تقل عنهـا فى مواهبها الطبيعية ، علاوة على أنهـا حفظت عن ظهر قلب « عبارات الفلاسفة الذهبية ونفائس الشعر » (٤) .

على أن الصورة الوضاءة للدراسات الأدبية فى ايطاليا اللومباردية ، تتمثل فى شخصيةبولس الشماس . وبولس المعروف بهـذا الاسم ، هو بولس بن وارنفرد Warnefrid لومباردى الأصل ، ولد فى أسرة عريقة حوالى سنة ٧٣٠ ،ونال قسطا طيبا من العلم والثقافة فى البلاط الملكى فى بافيا على أيدى أستاذه النحوى فلافيانوس ، ودرس الآداب اللاتينيـة

---

(1) Laistner, op. cit., p. 134.

(2) Gregorovius, op. cit., II, p. 411.

(3) Cronin, A Concise Hist. of Italy, p. 80.

(4) Gregorovius, op. cit., II, pp. 411-412.

واليونانية ، كمـا عقد صلات وثيقة مع البيت الملكى ، أهلته لشغل بعض المناصب العلمانية السامية ، وعهـد اليه بمهمة التدريس الأدلبرجا السالفة الذكر (١) • ولمـا بلغ حوالى منتصف عمره ارتدى مسوح الرهبان ، فالتحق أولا بدير كيفاتى Civate بالقرب من ميلان ، ثم تحول عنه حوالى سنة ٧٧٩ ، أى بعد أن شهد سقوط مملكة قومه بخمس سنوات ، الى دير مونت كاسينو الشهـير على النظام البندكتى • وبعد أن قضى به بضع سنوات ، وكان قد أصبح وقتئذ عالما مرموقا ، قام بزيارة الى مملكة الفرنجة فى عام ٧٨٣ ، ليستعطف شارلمان من أجل أخيه ، الذى مضى على سجنه سبع سنوات ، بسبب اشتراكه فى ثورة قام بهـا دوق فريولى ضـد العاهل الفرنجى سنة ٧٧٦ ، وقد استقبل فى البلاط الفرنجى بمظاهر الود والحفاوة ، وأجابه شالمان الى طلبه (٢) • ولا شك أن خبرة بولس بمراسيم البلاط فى بافيا وبنفنتوم ، فضـلا عن مواهبه الأدبية المتميزة ، قد تركا انطباعا رائعـا فى نفس شارلمان ، الذى كان محاطـا آنذاك بمجموعة من العلماء والباحثين من داخل مملكته وخارجها • ومن بين هؤلاء بطرس البيزى Peter of Pisa ، الذى قدم الى بلاط شارلمان من ايطاليا وظل به فترة طويلة ، وألكوين من إنجلترا ، وثيودلف القوطى الغربى من أسبانيا ، وديكويل Dicuil من أيرلندا ، وغيرهم ، وذلك فى الفترة الواقعـة بين سنتى ٧٧٥ و ٨٠٥ (٣) • ويبـدو أن بولس قضى فترة خصبة فى ميتز مسقط رأس البيت الفرنجى الكارولنجى ، إذ كتب فى موضوعات شتى ، من بينهـا كتابه المسمى « تاريخ أسـاقفة ميتز »

---

(1) Paul the Deacon, op. cit., pp. xi - xii.; Laistner, op. cit., p. 219.

(2) Laistner, op. cit., pp. 219-220; Deanesly, A Hist. of Early Medieval Europe, p. 248.

(3) Paul the Deacon, p. xii.

Gesta episcoporum Mettensium ، وهو كتـــاب هام وضعه بأسلوب سهل ، وضمنه التاريخ المبكر لأسلاف شارلمان (١) . كمـــا أنه قام بتدريس مبـــادىء اللغـــة الاغريقية لروتترود Rotrud ابنـــة شارلمان ، التى خطبت للامبراطور البيزنطى قنسطنين السادس ، غير أن الخطبـــة لم تلبث أن فشلت وجرى فسخها (٢) كمـــا رأينا من قبل . على أن بولس لم يمكث طويلا فى مملكة الفرنجة ، إذ بعد أن قضى بهـــا خمس سنوات رغب فى العودة الى وطنـــه ، فغادرها عائدا الى دير مونت كاسينو فى سنة ٧٨٦ ، حيث ظل مقيمـــا به الى أن توفى حوالى سنة ٧٩٩ (٣) .

وجدير بالذكر أن بولس كرس حياته للبحث والدراسة ، وأطلق العنان لنشاطه الأدبى ، وبفضل أستاذه فلافيانوس الذى غرس فى نفسه روح البحث الدءوب والعلم الجـــاد ، صـــار أعظم علمـــاء عصره ، إذ طرقت كتاباته كثيرا من فروع المعرفة ، فى الشعر والنحـــو واللاهوت والتاريخ ، وفى الفرع الأخير سطر قلمـــه أول كتاب نسخة ابان حياته الأدبيـــة المبكرة ، وهـــو « موجز التاريخ الرومانى » Breviarum of Romar History لمؤلفه إيوتروبيوس Eutropius ، وقد أضـــاف اليه قطعا من كتابات جيروم وأوروسيوس (٤) . والواقع أن أعظم أعماله الأدبيـــة التى تبقت لنـــا مـــع الأيـــام ، هـــو كتـــاب « تاريخ اللومبارديين » Historia Langobardorum ، الذى لولاه لمـــا وقفنا إلا على القليل من أحداث اللومبارديين ، ولا نبالغ القول أنه لولاه أيضـــا ، لمـــا عرفنا عن أحداث مراحل تاريخهم إلا أقل القليل .

وقد عكف بولس على تدوين تاريخ قومه فى أخريات سنى حيـــاته

---

(1) Wallace - Hadrill, op. cit., p. 55.

(2) Paul the Deacon, p. xiii.

(3) Laistner, op. cit., p. 220.

(4) Ibid.

بدير مونت كاسينو ، حيث عالج فيــه أحوالهم منــذ رحيلهم من ساحل البحر البلطى حتى وفاة الملك ليوتبراند ســنة ٧٤٤ ، ولو كان قد أعطى فسحة طويلة من العمر ، لأمكنه أن يواصل كتابه تاريخ قومه، ذلك أنه للأسف ، وقف عند نقطة صارت الأحداث عندها معاصرة له (١) •

ويلاحظ أن بولس تأثر فى كتابه بمــا كتبه جوردان عن قومــه القوط الشرقيين فى منتصف القرن السادس (٢) • ومن المصادر التى اعتمد عليهــا واستقى منهــا معلوماته كتاب « أصول شعب اللانجوباردى » لبلينى ، وكتــاب تــاريخ اللومبارديين المفقــود لسكوندس الترنتى Secundus of Trent ، كمــا رجع الى إيسيدور الاشبيلى ، وبيــدى ، وجريجورى التورى • وعلى الرغم من أنه اعتمد فى بعض فصول كتابه على مؤلفات هؤلاء الكتاب ، إلا أ نمهارته الأدبية ، ومعرفته الواسعة ، ونظرته الحيادية التامة ، هى التى أخرجت لنــا هــذا العمل النابض بالحياة والحيوية (٣) • إذ ينهض هــذا العمل أساسا على وحى جربته ومشاهداته الشخصية ، ويتضح ذلك بصورة خاصة فى وصفه الحى لبعض الحروب ، ممــا جعله يصــادف نجاحــا هائلا ، احتذى حذوه مؤرخو العصــور الوسطى ، فى الفترة الواقعة بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر • وأهم من ذلك ، أنه فى حياده لم يبرىء أسلافه من أعمال العنف والوحشية التى ارتكبوها خلال احتلالهم الأرض الواســعة بين نهرى تيس والدانوب حوالى سنة ٥٠٠ من ناحية ،وأثنــاء تحركهم فى فلك النفوذ الرومانى والمسيحية من ناحية أخرى •

وقد تختلف الآراء حول كتاب « تاريخ اللومبارديين » ، وهــذا أمر طبيعى نلمسه فى كل عمل أدبى ، ومن النقد العنيف الذى تعرض له له هــذا الكتاب ، مــا وصفه البعض بالضحالة ، وترتيبه الزمنى المشوه ،

---

(1) Wallace - Hadrill, op. cit., p. 56.

(2) Ibid, p. 55.

(3) Paul the Deacon, p. xvi.

وخلوه من الفلسفة (١) • ولكن الشيء الذى لا يختلف فيــه اثنان أن أن هــذا الكتاب الذى جاء أفضـــل ثمار جهد بولس، يعتبر أهم مصــدر على الاطلاق ، سطرت على صفحاته أحداث المملكة اللومباردية ، بأسلوب سهل واضح ، ينم عن موهبة تاريخية (٢) جديرة بالثناء • وقد يؤخذ على بولس أن كتابه امتلأ بالأحداث المختلطة بالأساطير الجرمانية وأدب البطولة الأسطورية التى تظهر واضحة فى ســيرة الملك ألبوين ، وفى قصة جونترام الفرنجى ، وقصة الملك كونبرت ، وبصــورة خاصة فى حياة الملك جريموالد ، ففى القصة الأخيرة تبرز شخصية بولس كمتفهم لتتابع الأحداث ، ولكنه يفاجئنا بتفسيرات أسطورية لهــا (٣) • وفى رأينــا أن كتــاب بولس لا ينقص من قدره مــا ازدحم به من أساطير ، ففى العصــور الوسطى ، بل والى أيامنا الحاضرة ، لا زال الحد الفاصل بين الأسطورة والتاريخ غير واضح المعالم •

الفن والعمارة :

وإذا انتقلنا الى الحديث عن الفن والعمارة عنــد اللومبارديين ، نلمس أن أسلوبهما قد تأثر الى حد بعيد بالأسلوب البيزنطى • ويبــدو هــذا على الأخص فى الفن اللومباردى ، فالتطور الذى اعتراه فى القرنين السابع والثامن ، يأتى دليلا على صلته برافنا البيزنطية مدينة الفنــانين والحرفيين ، وخير مثال على ذلك مــا عثر عليه من مخلفات فى قبــور اللومبارديين ، فقــد استبدلوا الزخرفة المتشابكة interlace بالزخرفة البيزنطية ذات الشكل النباتى والحيوانى (٤) ، التى كانت معروفة فى

---

(١) ديورانت : قصة الحضارة ، المجلد الرابع ، حـ ٣ ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

(2) Laistner, op. cit., p. 220.

(٣) اســحق عبيد : الامبراطورية الرومانية بين الــدين والبربرية ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(4) Wallace - Hadrill, op. cit., p. 68.

الشمال الايطالى • وتزخر هـذه القبور بدبابيس الزينـة brooches المشابهة لمـا كانلدى القوط الغربيين والأنجلو ساكسون ، وقد أخذت أشكالا متعددة : منهـا ذو النهـاية المعدنية التى على هيئة حصـان بخطوط بسيطة ، أو ذو الرءووس المربعة ، أو المتساوى الأذرع ، أو الذى على شكل حرف S ، أو المستدير المجترع الذى يفصل بين ألوانه المتعددة شرائط معدنية ، أو المرصع بأحجار كريمة فى إطار بارز . كمـا عثر أيضـا على إبزيمات buckles ، ودروع مزدانة بأزرار ، وسيوف ، وأقراط ، وصلبان ذهبية (١) • كذلك فى كنيسـة مونزا الشهيرة التى شيدتها الملكة ثيوديلندا واحتفظ اللومبارديون داخلها بتاجهم الحديدى ، لازال كثير من ذخائر الملكة باقيا فى غرفة المقدسات ، تحوز الاعجاب ، وتعطى مثلا رائعـا على الفن المبكر لشعب قد خرج لتوه من مرحلة البربرية ، وتحتفظ هـذه الغرفة أيضـا بتاج الملك أجيلولف الذى أهداه للقديس يوحنـا المعمدان ، ويحمل نقشا جاء به :

AGILULF GRATIA DEI VIR GLORIOSUS REX TOTIUS ITALIAE OFFERT SANCTO IOHANNI BAPTISTAE IN ECCLESIA MODICIAE(2).

وهنـا نلاحظ أن اللومبارديين طبعوا اسمهم على فن العمـارة ، رغم أنهم استمدوا أصوله من بواعث بيزنطية ، إذ كانت حرفة البنـاء قد احتفظت بشىء ممـا أخذته عن بيزنطة من تنظيم ومهـارة قديمين ، وكان لجماعة سادة كومو السبق فى صـياغة طراز « لومباردى » فى العمارة جمعته من أصول متعددة ، وازدهر فيمـا بعد حتى أصبح يحمل اسم الطراز الرومانسى (٣) • وقد بقى هـذا الفن فى المبانى الحجرية

---

(1) Deanesly, op. cit., p. 255.

(2) Oman, op. cit., pp. 193-194.

(٣) ديورانت : قصة الحضارة ، المجلد الرابع ، جـ ٣ ص ٢١ •

والرخام المنحوت وتيجان الأعمدة وبلاط المذابح • والواقع أنه قبل الطراز اللومباردى ، عرف اللومبارديون بناء الكنائس الدائرية منذ الفترة المبكرة لاعتناقهم الكاثوليكية ، بيد أن أعدادها كانت قليلة (١) • ويتضح ذلك فى كنيسة القديس سالفاتور ذات التصميم الدائرى فى باجامو التى شيدت قبل سنة ٦٠٠ ، وان كان من المحتمل أن زمنها يرجع الى الملكة ثيوديلندا : ذلك لأن تخطيطها المركزى الدائرى وقبتها المركزية يظهران استمرار التأثير البيزنطى ، رغم افتقار بنائها الى الاتقان والمهارة • على أن الأمر اختلف بالنسبة للكنائس البازيليكية — أو المستطيلة الشكل — التى شيدت فى ايطاليا اللومباردية فى الفترة الواقعة بين سنتى ٦٠٠ و ٧٧٤ ، وعلى سبيل المثال كنيسة القديس ستيفن فى بافيا ، بصحنها وأجنحتها الأربعة ، وكذلك كنيسة القديس بطرس فى نفس المدينة ، بتيجان أعمدتها البارعة الصنع ، فضلا عن التطور الذى يتمثل فى استخدام مكان خاص مرتفع لجوقة المنشدين ، وبناء سرداب تحت أرض الكنيسة لاتخاذه مدفنا • ومع أن تلك الكنائس اللومباردية جاءت تقليدا وتطبيقا للتصميم المعمارى السائد فى الشرق والغرب الأوربيين المسيحيين ، إلا أن زخرفة التوابيت الحجرية ، والأعتاب العليا للأبواب والنوافذ ، والفراغات المزدانة بالصور المنحوتة ، كل ذلك جعل منها طرازا مميزا فى الغرب الأوربى (٢) •

***

وهنا نأتى الى آخر المسار مع اللومبارديين آخر الشعوب المتبربرة ، التى اقتحمت ايطاليا فى القرن السادس ، وشيدوا بها مملكة دامت مائتى عام ونيف • والواقع أنه منذ أن تأسست تلك المملكة ، ابتليت بمحنة الشقاق الذى كان أشبه ما يكون بالداء الخطير الميئوس من شفائه ؛ وقد تمثل هذا الداء فى دوقاتها الذين انصرف جل اهتمامهم الى شن الحروب ضد بعضهم البعض من ناحية ، واشعال الفتن والثورات ضد السلطة

---

(1) Deanesly, op. cit., p. 255.

(2) Ibid, pp. 255-256.

الملكية من ناحية أخرى • وكما رأينا ، كانت غالبية الدوقيات اللومباردية وحدات سياسية مستقلة ، توارثها دوقات ذوو نفوذ وقوة وأطماع ، نجح بعضهم فى الوصول الى العرش • على أن الانقسام الداخلى لم يكن هو الخطر الداهم الوحيد الذى هدد كيـان تلك المملكة ، وجعلهـا لا تنعم بنعمة الوحدة والاستقرار، باستثناء فترات قصيرة ، ذلك أن الأعداء — البابوية والفرنجة — كانوا لهـا بالمرصاد ، وبعبارة أخرى تكاتفوا على إسقاطها • صحيح أن اللومبارديين فاقوا فى عنفهم وخشونتهم أى شعب جرمانى آخر ، بيد أنهم فى الحقيقة عاملوا جارتهم البـابوية باحترام وتقدير ، بدليل أنهم فى الأوقات التى كان بوسعهم الاستيلاء على روما ، ومـا يجر ذلك من تقليم أظافر البابوية ، رفعوا أيديهم عنهـا أكثر من مرة ، ولكن البابويةحرصـا منها على نفوذهـا السياسى لم تحفظ هـذا الصنيع ، بل بادلتهم كرهـا وعداء شديدين ، بحيث لم تهـدأ ثائرتهـا إلا بالقضـاء عليهم (١) • وكيفما كان الأمر ، فبين مد وانحسار ، سقطت مملكة اللومبارديين فى النهـاية على أيدى شارلمان عاهل الفرنجة ، وخلفت ايطاليا وراءهـا قطرا ممزقا واهنا ، قدر له أن يبقى على هـذا الوضـع حتى نهاية القرن التاسع عشر •

وجدير بالذكر ، أن ثمـة فارقا بين القوط الشرقيين الذين اقتلع جستنيان دولتهم من الوجود ، وبين اللومبارديين الذين أسدل شارلمان ستار النسيان على دولتهم ، يتمثل واضحا فى أن اللومبارديين كانوا أشد مراسا وقوة وحيوية ، شيدوا دولة عاشت مـا يزيد عن قرنين ، وخلفوا وراءهم مؤثراتهم التى لا زالت باقية حتى الوقت الحاضر • وأخيرا ، كمـا أدى بقـاء الفرنجة فى اقليم الغـال ، صار هـذا الاقليم على طول المدى فرنسا ، فبالمثل صارت ايطاليا الشمالية والداخلية — فى أقل الأحوال — لومبارديا خلال العصور الوسطى (٢) •

---

(1) Davis, Charlemagne, p. 69.

(2) Lot, Les Incasions Germaniques, p. 293.

الملوك اللومبارديون فى إيطاليا

ألبـوين	٥٦٨ — ٥٧٢
كليف	٥٧٢ — ٥٧٣
أوثارى	٥٨٤ — ٥٩٠
أجيلولف	٥٩٠ — ٦١٦
أدالوالد	٦١٦ — ٦٢٦
أريولد	٦٢٦ — ٦٣٦
روثارى	٦٣٦ — ٦٥٢
رودوالد	٦٥٢ — ٦٥٣
أريبرت الأول	٦٥٣ — ٦٦٢
جودبرت	٦٦٢
بركتاريت	٦٦٢
جريموالد	٦٦٢ — ٦٧١
بركتاريت (ثانية)	٦٧١ — ٦٨٨
كونبرت	٦٨٨ — ٧٠٠
ليوتبرت	٧٠٠ — ٧٠١
أريبرت الثانى	٧٠١ — ٧١١
آنسبراند	٧١٢
ليوتبراند	٧١٢ — ٧٤٣
هلدبراند	٧٤٣ — ٧٤٤
راتشيس	٧٤٤ — ٧٤٩
أستولف	٧٤٩ — ٧٥٦
دسديريوس	٧٥٦ — ٧٧٤

بابوات روما الذين عاصروا اللومبارديين

ملحوظة : وضعت أسماء البابوات غير الشرعية بين أقواس .

حنا الثالث	٥٦١ — ٥٧٤
بندكت الأول	٥٧٥ — ٥٧٩
بلاجيوس الثانى	٥٧٩ — ٥٩٠
جريجورى الأول	٥٩٠ — ٦٠٤
سابينيان	٦٠٤ — ٦٠٦
بونيفيس الثالث	٦٠٧
بونيفيس الرابع	٦٠٨ — ٦١٥
ديوسديدت الأول	٦١٥ — ٦١٨
بونيفيس الخامس	٦١٩ — ٦٢٥
هونريوس الأول	٦٢٥ — ١٣٨
سفرنيوس	٦٤٠
حنا الرابع	٦٤٠ — ٦٤٢
ثيودور الأول	٦٤٢ — ٦٤٩
مارتن الأول	٦٤٩ — ٦٥٥
إيوجنيوس الأول	٦٥٥ — ٦٥٧
فيتاليان	٦٥٧ — ٧٧٢
ديوسديدت الثانى	٦٧٢ — ٦٧٦
دونس	٦٧٦ — ٦٧٨
أجاثون	٦٧٨ — ٦٨١
ليو الثانى	٦٨٢ — ٦٨٣
بندكت الثانى	٦٨٤ — ٦٨٥
حنا الخامس	٦٨٥ — ٦٨٦
كونون	٦٨٦ — ٦٨٧

(ثيودور)	٦٨٧
سرجيوس الأول	٦٨٧ — ٧٠١
(باسكال)	٦٨٧ — ٦٨٨
حنا السادس	٧٠١ — ٧٠٥
حنا السابع	٧٠٥ — ٧٠٧
سيسنيوس	٧٠٨
قنسطنطين	٧٠٨ — ٧١٥
جريجورى الثانى	٧١٥ — ٧٣١
جريجورى الثالث	٧٣١ — ٧٤١
زكريا	٧٤١ — ٧٥٢
ستيفن الثانى « الثالث »	٧٥٢ — ٧٥٧
بولس الأول	٧٥٧ — ٧٦٧
(قنسطنطين الثانى)	٧٦٧ — ٧٦٨
ستيفن الثالث « الرابع »	٧٦٨ — ٧٧٢
هادريان الأول	٧٧٢ — ٧٩٥

أباطرة الدولة البيزنطية الذين عاصروا الحكم اللومباردى

الإمبراطور	مدة الحكم
جستين الثانى	٥٦٥ — ٥٧٤
تيبريوس الثانى	٥٧٤ — ٥٨٢
موريس	٥٨٢ — ٦٠٢
فوقاس	٦٠٢ — ٦١٠
هرقـــل	٦١٠ — ٦٤١
قنسطنين الثانى	٦٤١ — ٦٤٢
قنسطانز الثانى	٦٤٢ — ٦٦٨
قنسطنطين الثالث	٦٦٨ — ٦٨٥
جستنيان الثانى	٦٨٥ — ٦٩٥
ليونتيوس	٦٩٥ — ٦٩٨
جستنيان الثانى (ثانية)	٧٠٥ — ٧١١
فيليب	٧١١ — ٧١٣
أنسطاسيوس الثانى	٧١٣ — ٧١٦
ثيودوسيوس الثالث	٧١٦ — ٧١٧
ليو الثالث الأيسورى	٧١٧ — ٧٤١
قنسطنين الخامس	٧٤١ — ٧٧٥
ليو الرابع	٧٧٥ — ٧٨٠
قنسطنطين السادس	٧٨٠ — ٧٩٧
إيرين	٧٩٧ — ٨٠٢

المراجع العربية والمترجمة

ابراهيم أحمد العدوى : (دكتور)

المجتمع الأوربى فى العصر الوسيط .

(القاهرة ١٩٦١)

اسحق عبيد تاوضروس : (دكتور)

الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية .

(القاهرة ١٩٧٢)

جيبون (ادوارد) :

اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها . الجزء الثانى ، نقله الى العربية لويس اسكندر ، وراجعه احمد نجيب هاشم .

(القاهرة ١٩٦٩)

دوسن (كريستوفر) :

تكوين أوربا . ترجمة ومراجعة د. محمد مصطفى زيادة ، و د. سعيد عبد الفتاح عاشور .

(القاهرة ١٩٦٧)

ديفز (هـ . و) :

أوربا فى العصور الوسطى . ترجمة د. عبد الحميد حمدى محمود .

(الاسكندرية ١٩٥٨)

ديورانت (ول) :

قصة الحضارة . المجلد الرابع ، الأجزاء الأول والثالث والرابع . ترجمة محمد بدران .

(القاهرة ١٩٤٩)

رنسيمان (ستيفن) :

الحضارة البيزنطية . ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مراجعة زكى على .

(القاهرة ١٩٦١)

سعيد عبد الفتاح عاشور : (دكتور)

أوربا فى العصور الوسطى . جزآن ، الطبعة السادسة .

(القاهرة ١٩٧٥)

السيد الباز العرينى : (دكتور)

الدولة البيزنطية ٣٢٣ ـــ ١٠٨١ م .

(القاهرة ١٩٦٠)

ـــ الحضارة والنظم الأوربية فى العصور الوسطى ، القسم الأول .

(القاهرة ١٩٦٣)

شسينى (ل . ج .) :
تاريخ العالم الغربى . ترجمة مجد الدين حفنى ناصف ، مراجعة على أدهم .
(القاهرة بدون تاريخ)

عمر كمال توفيق : (دكتور)
تاريخ الامبراطورية البيزنطية .
(القاهرة ١٩٦٧)

فشر (هـ . ا . ل .) :
تاريخ أوربا العصور الوسطى . القسم الأول ، ترجمة د. محمد مصطفى زيادة ، د. السيد الباز العرينى . الطبعة الرابعة .
(القاهرة ١٩٦٦)

كانتور (نورمان ف .) :
تاريخ العصور الوسطى . قصة حياة حضارة ونهايتها . الجزء الأول ، ترجمة د. قاسم عبده قاسم ، مراجعة د. على الغمراوى . الطبعة الأولى .
(القاهرة ١٩٧٧)

محمد عبد المنعم بدر (دكتور) ، عبد المنعم البدراوى (دكتور) :
مبادىء القانون الرومانى . تاريخه ونظمه .
(القاهرة ١٩٥٦)

محمود محمد الحويرى : (دكتور)
رؤية فى سقوط الامبراطورية الرومانية .
(القاهرة ١٩٨١)

موس (هـ . سانت ل . ب) :
ميلاد العصور الوسطى . ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مراجعة د. السيد الباز العرينى .
(القاهرة ١٩٦٧)

نور الدين حاطوم : (دكتور)
تاريخ العصر الوسيط فى أوربا . الجزء الأول .
(بيروت ١٩٦٧)

هارتمان (ل . م) ، باراكلاف (ج .) :
الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى . ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف .
(الاسكندرية ١٩٦٦)

المصادر والمراجع الأجنبية

Bark (William Carroll) :

Origins of the Medieval World.

(U.S.A., 1958).

Barker (G. P.) :

Justinian.

(London, 1932).

Barry (William) :

The Papal Monarchy. From St. Gregory the Great to Boniface VIII (590-1303).

(London, 1902).

Bryce (J.) :

The Holy Roman Empire.

(London, 1907).

Bury (J. R.) :

A History of the Roman Empire From its Foundation to the Death of Marcus Aurelius (27 B. C. — 180 A. D.).

(London, 1930).

Cantor (Norman F.) :

Medieval History. The Life and Death of a Civilization. Second edition.

(London, 1969).

Cronin (Vincent) :

A Concise History of Italy.

(London, 1973).

Davis (C. H. W.) :

Charlemagne. (Charles the Great).

(London, 1900).

Davis (R. H. C.) :

A History of Medieval Europe.
(Hong Kong, 1981).

Deanesly (Margaret) :

A History of Early Medieval Europe. From 476-911.
(London, 1956).

= A History of the Medieval Church. 590-1500. Sec. ed.
(London 1928).

Diehl (Charles) :

History of the Byzantine Empire.
(New York, 1945).

Diehl (C.), Marcais (G.) :

Le Monde Oriental de 395-1081. (Hist. du Moyen Age. Tome III).
(Paris, 1936).

Dill ,Samuel) :

Roman Saciety in Gaul in the Merovingian Age.
(London 1966).

Dudden (F. H.) :

Gregory the Great. His Place in History and Thought. 2 Vols.
(London, 1905).

Dudley (D. R.) & Lang (D. M.) :

Classical Byzantine, Oriental and African Literature.
(London, 1969).

Einhard :

The Life of Charlemagne. Ed. by Garrod (H. W.) and Mowat (R. B.).
(London, 1925).

Eyre (Edward) :

European Civilization : Lts origin and development. By various contributors. Under the direction of E. Eyre. Vol. III.
(London, 1935).

Ganshof (F. L.) :

Histoire du Moyen Age.
(Paris, 1953).

Gibbon (Edward) :

The Decline and Fall of the Roman Empire. Vol II.
(Chicago, 1977).

Gregorovius (Ferdinand) :

History of the City of Rome in the Middle Ages. 8 Vols. Translated from the fourth german edition by Mrs Gustavus Hamilton.
(London, 1900-1902).

Gregory of Tours :

The History of the Franks. Translated by Dalton (O.M.), in Heritage of Western Civilization, ed. by Beatty & Johnson.
(Oxford, 1927).

Halphen (Louis) :

Charlemagne et l' Empire Carolingien.
(Paris, 1947).

Hodgkin (Thomas) :

Italy and her Invaders. 553-600. Vol. V.
(Oxford, 1916).

Hollister (C. Warren) :

Medieval Europe. A Short History. Fourth ed.
(U.S.A., 1978).

Hoyt (Robert S.) & Chodrow (Stanley) :

Europe in the Middle Ages. Third ed.
(U.S.A., 1976).

Hulme (Edward Maslin) :

The Middle Age.

(New York, 1938).

Jamison (E.M.), Ldy (C.M.), Vernon (K.D.) and Terry (C.S.) :

Italy Mediaeval and Modern a History.

(London, 1917).

Kleinclausz (A.) :

Charlemagne.

(Paris, 1934).

Laistner (M. L. W.) :

Thought and Letters in Western Europe. 500-900.

(London 1931).

Lavisse (Ernest) :

Histoire de France. Tome II.

(Paris, 1903).

Lot (Ferdinand) :

The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Ages.

(London, 1931).

= Les Invasions Germaniques.

(Paris, 1935).

Lot (F.), Pfister (C.) & Ganshof (F. L.) :

Les Destinées de l' Empire en Occident de 395 à 768.

(Paris, 1940).

Mann (Horace K.) :

The Lives of the Popes in the Early Middle Ages. Vol. I (in two parts).

Oman (C.) :

A History of the Art of War in the Middle Ages. Vol. I. Sec. ed.

(London, 1924).

Oman (C.) :

The Dark Agls. 476-918.

(London, 1962).

Orton (C. W. Previté) :

Outlines of Medieval History. Sec. ed.

(Cambridge, 1924).

Ostrogorsky (George) :

History of the Byzantine Empire.

(Oxford, 1968).

Paul the Deacon :

History of the Lombards. Translated by William Dudley Foulke. ed. by Edward Peters.

(U.S.A., 1974).

Portal (Roger) :

The Slavs. A Cultural Historical Survey of the Slavonic Peoples. Translated from the French by Patrick Evans.

(London, 1969).

Poupardin (René) :

Etude sur les Institutions politiques et Adminstratives principautés Lombardes de L' Italie Méridionale (ixe - xie) siècles.

(Paris, 1907).

Scott (Martin) :

Medieval Europe. Fifth impression.

(London, 1980).

Stephenson (C.) :

Mediaeval History.

(New York, 1943).

Taylor (Henry Osborn) :

The Medieval Mind. 2 Vols.

(London, 1925).

Thompson (Jannes Westfall) :

The Middle Ages. 300-1500. Vol. I.

(London, 1931).

Universal History of the World. Vol. 4. From the Empire under Antonines to the Middle Ages. Edited by J. A. Hammerton.

(London, no date of printing).

Wallace - Hadrill (J.M.) :

Italy and the Lombards, in the Barbarian I nvasions Catalyst of a New Order (ed. by Katherine Fisher Drew.

(New York, 1977).

The Barbarian West.

(London, 1952).

Vil ari (Pasquale) :

The Barbarian Invasions of Italy.

(London, 1902).

Webster (Hutton) :

History of Civilization. Ancient and Medieval.

(U.S.A., 1947).

Workman (H. B.) :

The Papacy and Temporal Power in Universal History of the World. Vol. 4. ed. by J. A. Hammerton.

(London, no date of printing).

Wroth (Warwick) :

Catalogue of the coins of the Vandals, Ostrogoths and Lombards and of the Empires of Thessalonica, Nicaea and Trebizond in British Museum.

(London, 1911)

فهـــــرس

الصفحة

الصفحة

رقم أمر التشغيل ٥٧/٨٥/٣

رقم الايداع ٣٧٨٧ لسنة ١٩٨٦
الترقيم الدولى ٦ — ١٦٩٧ — ٢ — ٩٧٧

مطابع سجل العرب